
غرناطة
روايات الهلال
رضوى عاشور

العدد ٥٤٤
ابريل ١٩٩٤ ● ذو القعدة ١٤١٤ هـ
No.544-AP-1994

روايات الهلال
Rewayat Al Hilal

سلسلة شهرية لنشر القصص العالمي

تصدر عن مؤسسة دار الهلال

رئيس مجلس الإدارة
مكرم محمد أحمد
نائب رئيس مجلس الإدارة
عبدالحميد حمروش
رئيس التحرير
مصطفى نبيل
سكرتير التحرير
محمود قاسم

ثمن النسخة

إهداء 2005
أ/إبراهيم منصور غنيم
القاهرة

الاشتراكات

قيمة الاشتراك السنوى ٣٦ جنيها فى ج . م . ع . تسدد مقدما نقدا أو بحوالة بريدية غير حكومية ـ البلاد العربية ٢٥ دولارا ـ أمريكا وأوربا وآسيا وافريقيا ٣٠ دولارا ـ باقى دول العالم ٤٠ دولارا .

القيمة تسدد مقدما بشيك مصرفى لأمر مؤسسة دار الهلال .. ويرجى عدم ارسال عملات نقدية بالبريد .

اك فى الكويت : السيد عبدالعال بسيونى زغلول
ص . ب ٢١٨٣٣ (13079) ت : ٤٧٤١١٦٤
القاهرة ـ ١٦ شارع محمد عز العرب بك (المبتديان
: ٣٦٢٥٤٥٠ (٧ خطوط) المكاتبات : ص . ب :
ـ القاهرة ـ الرقم البريدى ١١٥١١ ـ تلغرافيا :
ـ القاهرة ج . م . ع .
TELEX 92703 hilal u n
FAX 3625469

غرناطة

بقلم

د. رضوى عاشور

●

دار الهلال

الإهـداء

إلى ابنى تميم

الغلاف للفنان :

حلمى التـونى

-١-

ذلك اليوم رأى أبوجعفر امرأة عارية تنحدر فى اتجاهه من أعلى الشارع كأنها تقصده. اقتربت المرأة أكثر فأيقن أنها لم تكن ماجنة ولا مخمورة. كانت صبية بالغة الحسن ميّادة القد، ثدياها كأحقاق العاج وشعرها الأسود مرسل يغطى كتفيها، وعيناها الواسعتان يزيدهما الحزن اتساعا فى وجه شديد الشحوب.

ولما كان الشارع مهجورا والحوانيت لم تزل مغلقة وضوء النهار لم يبدد بنفسج السحر بعد فقد بدا لأبى جعفر أن ماشاهده رؤيا من رؤى الخيال. حدّق وتحقّق ثم غالب دهشته وقام إلى المرأة وخلع ملفّه الصوفى وأحاط به جسدها وسألها عن اسمها ودارها فلم يبد أنها رأته أو سمعته. تركها تواصل طريقها وظل يتابع مشيتها الوئيدة وحركة خلخاليها الذهبيين حول كاحلين لوثتهما وحول طريق تخوض فيه قدماها الحافيتان.

ورغم البرد القارس وصفير رياح تعصف بأشجار الجوز المغروسة على جانبى الطريق بقى أبوجعفر واقفا

بباب حانوته حتى أرسلت الشمس خيوطا صفراء واهية حددت معالم الشارع.

فى الحانوت تبادل مع نعيم كلمات معدودة ثم انتحى ركنا وجلس صامتا. لم يفت الصبى وجوم معلمه فاستبدل بصخبه المعتاد حركات وجلة محكومة، وراح يعمل بين رغبة فى إتقان عمله إرضاءً له وقلق عليه يشتته ويدفعه الى اختلاس النظر إليه بين لحظة وأخرى.

- ما اسمك يا ولد ؟

كان الرجل مديد الطول مهيب الهيئة لا يختلف مظهره عن أولئك الكبار الذين يفزعونه فما إن يستوقفه واحد منهم حتى يقفز مبتعداً كأرنب برى نفور. رفع عينيه متسلقا الجسد العالى حتى وصل الى عينيه، كانتا زرقاوين وديعتين . لم يركض، تمتم

- نعيم.
- وأين أهلك يانعيم ؟
- رحلوا أو ماتوا.. لا أدرى .

مد أبو جعفر يده وأطبقت كفه الكبيرة على يد الصغير الذى تبعه يفتح ساقية على اتساعهما ليواكب خطوته .

أطعمه أبوجعفر وآواه وعلّمه اسرار الحرفة، دربّه على دباغة جلد الماعز وصباغته وإعداده، وعلّمه ترتيب أوراق المخطوط ولصق الغلاف،

سمح له بالقيام بكافة المهام باستثناء مهمتين كان يفضّل أن يقوم بهما بنفسه ويطلب منه متابعته لكي يتعلم: يلضم الخيط في المخرز وبدقة وبطء يمرر المخرز والخيط في كعب المخطوط مرة وثانية وثالثة ورابعة ذهابا وإيابا حتى يُحكم خياطته. ثم يترك له لصق الكعب في الغلاف ووضع الكتاب في المكبس وبعد أيام عندما يُخرج الكتاب من المكبس يقوم أبوجعفر بكتابة العنوان واسم المؤلف واسم المالك بماء الذهب أو بغيره حسب الطلب ثم يزين الغلاف ويزخرفه.

يتحرق أن يسمح له معلمه أن يقوم بذلك ويلح فيناوله ورقة وهو يبتسم.

- هاك ورقة أكتب عليها الفاتحة.

فيشعر بأنه وقع في شر أعماله لأن خطه كان يتعرج صعودا وهبوطا كالسكة الجبلية.

- هل أنت مريض يا أبا جعفر ؟

لم يجبه أبوجعفر ولم يلتفت إليه بل ظل مطرق الرأس زائغ العينين، شاردا. انقضى النهار وطيف الصبية ماثل أمام عينيه. كان مضطربا وحزينا وإن لم يتملكه التوجس الا في اليوم التالي حين سمع بأمر اجتماع الحمراء وترددت الشائعات عن غرق موسى بن أبي الغسان في نهر شنيل، فهل تكون الصبية العارية إشارة صادقة كالرؤى والنبوءات ؟

استتب تطيره وترسخ في قلبه بعد أيام معدودة عندما

حكى له نعيم عن امرأة وجدوا جثتها عارية تطفو على صفحة النهر. سأله :

- في حَدَرُه أم شَنيل؟
- في شَنيل.
- إذن لا مفر !

تطلع اليه نعيم مستفهما ولكن أباجعفر ظل صامتا ولم يفسر شيئا من كلماته.ابتلعت دوامات النهر الأمل الباقى وانفرط عقد الأمة وتيتمت العباد.

لثلاث ليال لم تنم غرناطة ولا البيازين. تحدث الناس بلا انقطاع ليس عن المعاهدة بل عن اختفاء موسى بن أبى الغسان. استغرقهم الخبر الذى انتشر من نهر شَنيل إلى عين الدمع ومن باب نَجْد إلى مقابر سهل بن مالك. سرى فى الشوارع والحوارى والجنّات. حمله ماء شَنيل من أطراف المدينة ثم دخلها مع نهر حَدَرُه وانتقل إلى ضفته الغربية ومنها إلى السبيكة والحمراء وجنَّة العريّف، وإلى ضفته الشرقية ومنها إلى القصبة القديمة والبيازين ثم تجاوز الأسوار والأبواب والأبراج وأطواق الكروم إلى جبل الثلج من ناحية وجبل الفخّار من الناحية الأخرى.

قال البعض إن ابن أبى الغسان خرج من اجتماع الحمراء وقد قرر أن يقاتل القشتاليين وقاتل جموعهم وحده ولما أصابوه وكادوا يظفرون به ألقى بنفسه فى النهر.

وقال البعض الآخر بل قتله محمد الصغير لينفذ

مايريد دون مخالفة ولا معارضة. سلم الشقيتو المنحوس البلد وباعها وما كان بإمكانه أن يفعل وابن أبى الغسان يقف له بالمرصاد.

وقال فريق ثالث لا أغرق نفسه ولا قتلوه بل صعد إلى الجبال ليدرِّب الرجال ويستعد.

وقال فريق رابع غرق أو لم يغرق لا فرق، ليس هذا زمانه ولا زماننا فلنحمل ما نقدر عليه من متاع ونرحل فبلاد الله واسعة أو نبقى مسلمين أمرنا لله وللأسياد الجدد ونعيش.

كيف ؟ ! كان السؤال يقطع فى روح أبى جعفر كنصل باتر يتّقيه كباقى العباد بالحديث مع نفسه ومع الآخرين. وكان يحدث نفسه حين مر المنادى معلنا بنود الاتفاقية. اتجه اليه ووقف ملاصقا له. استمع إلى شروطها كاملة من شرطها الأول الذى يقضى على ملك غرناطة والقادة والفقهاء والحجّاب والعلماء والمفتين والوجهاء بتسليم المدينة فى مدة أقصاها ستون يوما حتى شرطها الأخير الذى يقضى بتعهد الملك فرديناند والملكة إيزابيلا بتنفيذ كافة ماورد فى المعاهدة والتزام من يخلفهما من أبناء وأحفاد بما جاء فيها. وعندما تحرك المنادى قاصدا مكانا آخر تبعه أبوجعفر.

الناس فى غرناطة تسمع وتتقصى وتجمع التفاصيل وحين يعلن المنادى الخبر أو يعتلى إمام المسجد المنبر قبل صلاة الجمعة يسهب فيه ويفسره ويدافع عنه .ينصت

الناس من باب التأكد أو المضاهاة ويملأون بأنفسهم الفراغات بالحقائق التى جمعوها وأسقطت من القول المعلن.

ورغم أن المنادى لم يعلن ولا إمام المسجد أشار إلى تفاصيل اجتماع الحمراء الذى أقر المعاهدة فقد عرف أبوجعفر كغيره من أهل المدينة مادار فيه:

أبو القاسم بن عبد الملك ويوسف بن كماشة، الوزيران اللذان أوفدهما الملك للتفاوض، دخلا القاعة بصحبة دى ثافرامندوب ملكى قشتالة وأراجون. وكان ثلاثتهم يحملون نص المعاهدة لقراءتها. بكى أبوعبدالله محمد الصغير وقال إن الله كتب عليه أن يكون شقيا وأن يتم ضياع البلاد على يديه. انتحب الوزراء والقادة والعلماء ورددوا لا حول ولا قوة إلا بالله ولا راد لقضاء الله. اعترض موسى بن أبى الغسان على الاتفاق وطالب الحاضرين برفضه ولما لم يجد من يسانده غادر القصر غاضبا واعتلى حصانه واختفى. كرر الحاضرون انه لا مفر من قضاء الله وأن شروط المعاهدة أفضل مايمكن الحصول عليه... بكوا ووقعوا.

كيف يتعهد ملك بتسليم ملكه ؟ وكيف يقضى بتعهد قادة البلاد وفقهائها وكافة أهلها بأن يسلموا طواعية قلاع الحمراء وحصنها وأبراجها وأبواب غرناطة والبيازين وضواحيها ؟

سار أبو جعفر خلف المنادى فى حشد كبير من الناس.

زاغت العيون من العيون، والرأس مال يحجب مرآته المكسورة ورعشة الجفنين، والذراعان انهدلتا على الجانبين. تحركت الأقدام وئيدة ثقيلة فى فضاء صامت يتأكد صمته مع رنين صوت المنادى وحفيف أوراق الشجر المصفرّة الجافة.

ولما ذهب المنادى وانفرط الحشد وجد أبوجعفر نفسه يسير وحيدا فى برد الشارع لايقصد مكانا بعينه بل تحمله قدماه اللتان تألفان الطرقات. يقول لنفسه هذا المنحوس ليس أولهم ولا آخرهم. يقول سيذهب أبوعبدالله ولن يخلفه - منحوس أو غير منحوس - سوى ملوك الروم. تتزعزع أحشاؤه للخاطرة فيدرؤها عن نفسه، يغلق دونها بابه ويحشد وراءه الأسانيد والوقائع والحجج. كل شىء يتبدل الا وجه الله ذى الجلال. ألم يعقد السلطان يوسف المول معاهدة أحط وأسوأ مع القشتاليين وجاء السلطان الأيسر وألغى المعاهدة وحاربهم ؟ والسلطان أبو الحسن كان يدفع الجزية ثم توقف عن دفعها ورد رسولهم: " قل لملكى قشتالة إن دار السك لا تنتج الا السيوف هذه الأيام". وهذا الزغيبى المنحوس ألم يبدأ ولايته بمقاتلتهم حتى أسروه ؟ من يدرى ما الذى يحدث غدا ؟! ليس أولهم ولا آخرهم، جاء كما جاء سواه ويذهب كما ذهبوا وتبقى غرناطة محروسة بإذن الله وإرادته .

كان يجتهد فى تهدئة نفسه المطوّقة وهى تضرب بجناحيها مستريعة على حد السكين. يكرر لها غرناطة محروسة وباقية، يشاغلها بالكلام، يمد لها عبر الشباك يده، يلامس ريشها المبتل وبدنها الراجف، يحنو ويعطف

وُيربّت ويغنى لها همسا أغنية أليفة تطيب لها.

مالت شمس الضحى على الطرقات ثم مالت أكثر وغابت ، وأبوجعفر يواصل السير حتى وجد نفسه على ضفة شَنيل. حدّق فى مائه فأتاه طيف الصبية عارية كأنها تخرج من الماء اليه ثم حدّق فلم ير سوى تجعيدات الماء ثم عاد فرأى الصبية على صفحته عاجية تكبر فى الموت حتى غطت صفحة النهر فارتج جسده وراح يتصبب عرقا .

-٢-

كان أبو منصور جالسا على مصطبة المعلم فى الحمام يمين البوابة. رد تحيتهما متمتما وأشار بيده الى الخزانة التى صفت فيها المناشف المطوية النظيفة. حمل سعد ثلاث مناشف وصعد خلف سيده الدرجات الثلاث التى توصل الى المقصورة الغربية حيث عاونه على خلع ملابسه وستر عورته بإزار لفّه حول خاصرته. طوى ملابس سيده بعناية ولفها فى منديل حريرى كبير ثم خلع ملابسه سوى السروال وصرّها فى منديل قديم. أسلم اللفافة الكبيرة والصرة الصغيرة الى أبى منصور الذى أومأ برأسه ولم يقل شيئا ولم يتطلع اليه.

قبل أن يدلفا الى الحمام الجوّانى دخل سيده إلى بيت الخلاء فجلس سعد على إحدى المصطبتين الشرقيتين ينتظر. لم يكن فى الوسطانى إلا ثلاثة رجال. جلس اثنان منهم كل على مصطبة فى مواجهة سعد وراح الثالث الذى كان طويلا ونحيفا يقطع القاعة ذهابا وإيابا بين بابها المفضى إلى البرّانى وبابها المفضى إلى الجوّانى.

ترى ما الذى أصاب أبا منصور ؟ كاد سعد يسأله إن كان مريضا ولكنه استحى. ليس من عادته أن يجلس فى

المدخل كغيره من أصحاب الحمامات بل يُجلس أحد معاونيه لتسلم الأمانات وينطلق فى حركة نشطة بين الجوّانى والوسطانى حاملا صابونة لهذا وطستا لذاك، مئزرا أو منشفة، يحكى المُلح ويطلق النكات ويثير قهقهات رواد الحمام الذين يمسكون خصورهم من شدة الضحك. كان رجلا بدينا فى الخمسين أو الأربعين من عمره بشرته وردية وملامحه دقيقة وذقنه ملساء، له رأس صغير وكرش كبير يهتز اهتزازا وهو يضحك. لكنه اليوم كان يجلس ساهما زاهدا فى أى سلام أو كلام. "من الذى يضمن ؟ ! من الذى يضمن ؟!".

رفع سعد عينيه فرأى الرجل النحيل يمر من أمامه فى دورته المتكررة وهو يتمتم بهذه الكلمات لنفسه ويواصل المشى وقد ارتفع كتفاه الضيقان حتى كادا يلامسان أذنيه. صاح أحد الرجلين الجالسين مقابل سعد: "أصبتنا بالدوار يا أخى لمَ لا تهدأ وتجلس مثل الناس" ولكن الرجل لم يعره اهتماما واستمر فى دورته وتمتماته.

كان الجوّانى مكتظا بالرجال ، منهم من جلس على بلاط مصطبة بيت النار يتصبب عرقا من البخار، ومنهم من نزل المغطس ليسقط الجنابة قبل الحمام، ومنهم من استلقى على ظهره أو بطنه مسلما نفسه لخادمه أو لغيره من العاملين فى الحمام يكيسه أو يُليّفه أو يسكب الماء الساخن على رأسه. وكانوا جميعا يشاركون فى الحديث فتتقاطع أصواتهم من طرف الحمام إلى طرفه الآخر، حتى من دخل منهم المقصورة الخاصة بإزالة الشعر كان يسهم بما لديه من وراء الستار الذى يحجب عريه الكامل .

جلس سعد وسيده متربعين فى مكانهما المعتاد بالقرب من أحد أجران الماء الساخن. مد سيده ذراعيه على امتدادهما وغسل سعد الكيس وصبّنه ثم بدأ بتكييس اليد اليمنى فالذراع اليمنى وتحت الإبط ثم انتقل الى اليد اليسرى. قال أحدهم:

- يا أبا جعفر ... يا أباجعفر الله يرضى عليك، نحن لانختار بين بديلين بل هو قدر مكتوب. نحن مهزومون فمن أين الاختيار ؟!

قاطعه آخر :
- أنا معك، الاتفاقية شر لا بد منه . كان مولانا فى مأزق والمواجهة التى كان يريدها ابن أبى الفسان محكوم عليها سلفا فما الذى يملكه أونملكه نحن أمام جيوشهم الجرارة والانفاط اللُمباردية الجديدة ؟!

قال أبو جعفر :
- بإمكاننا مّحاربتهم ، أقسم برب الكعبة أنه بإمكاننا محاربتهم.

كان سعد يتابع الحوار بأذنيه ولا يملك أن يرى أيا من المتحدثين اذ كان يجلس مقابل سيده لا يرى من الحمام سوى الحائط وجرن الماء الى يساره.

- ولماذا نحاربهم ألم تكفنا عشر سنوات من الحرب ؟! هل تريد أن يحل بنا ماحل بأهل مالقة فنأكل البغال والحمير وأوراق الشجر ؟!

- سينكلون بنا بعد التسليم ، والمعاهدة ليست الا ورقة لا قيمة لها. لو سلمناهم غرناطة فسيفرضون علينا الركوع حين يمر ركب القساوسة، ويرغموننا على الحياة فى حى مغلق ليس له الا باب واحد ويشرعون سيف الترحيل على رقابنا. ما الذى يمنعهم من فعل ذلك حين يملكون البلد ويصبح لهم ؟!

انبطح سيده على ظهره فارتكز سعد على ركبتيه ومال بجذعه وفرك له صدره وبطنه ووجه ساقيه ثم انقلب سيده على بطنه ففرك له سعد ظهره.

- التسليم يرد شرهم عنا ويحفظ لنا حقوقنا .
- كيف ؟!

كررتها أصوات متتابعة فى حدة أقرب الى الصراخ .

أزاح سيده يده واعتدل جالسا.

- المعاهدة تنص على معاملتنا معاملة شريفة واحترام ديننا وعاداتنا وتقاليدنا وحريتنا فى البيع والشراء. ومن حقنا الاحتفاظ بأملاكنا وأسلحتنا وخيولنا، ومن حقنا اللجوء الى قضاتنا للفصل فى خلافاتنا. حتى أسرانا سيعودون الينا أحرارا معافين.
- حبر على ورق !

واصل سعد التكييس وعندما انتهى مد يده إلى سيده ليشاهد بنفسه فتائل الوَسَخ التى أطلعها من جسده والتى يطلب رؤيتها كل مرة لكى يتأكد من أن خادمه أحسن فرك جسمه .

أمسك سعد بالطاس واغترف ماء ساخنا من الجرن وسكب على سيده ثم بدأ فى تصبين رأسه.

- لو رفضنا المعاهدة وصمدنا ستأتينا النجدة من عُدوة المغرب ومن مصر ومن بنى عثمان .
- لن يأتينا شىء !
- لا لن يتركونا نواجه وحدنا !
- أنا مع أبى جعفر، وابن أبى الغسان لم يمت كما يشيع المغرضون. لن يفلت القشتاليون منا، نحن من أمامهم ورجال ابن أبى الغسان من خلفهم وأساطيل مصر والمغرب وبنى عثمان تطبق الحصار عليهم فلا يكون لهم من خلاص سوى الموت .

أشار له سيده بالتوقف عن سكب المزيد من الماء الساخن على رأسه وقال وهو يضغط على مخارج الألفاظ وينطقها ببطء وقوة:
- غرناطة ساقطة لا محالة وابن أبى الغسان كان أحمق يريد لنا خوض قتال لا قبل لنا به. الحمد لله أنه مات وأراحنا واستراح !

لم يفهم سعد ماالذى حدث اذ قفز سيده فجأة من أمامه وانطلق راكضا . استدار سعد فاذا بأبى منصور يمسك بعصا غليظة ويركض مهتاجا. متى دخل أبو منصور الحمام ؟ ومن أين أتى بتلك العصا وما الذى حدث ؟ كان أبو منصور يزأر متوعدا ويصيح :
- مركوب ابن أبى الغسان أشرف منك ومن ألف من أمثالك يا كلب يا ابن الكلب .

سقط إزار سيده وهو يركض فزعا من عصا أبى منصور الذى استمر فى ملاحقته وهو يصرخ :

- أمك الساقطة وليست غرناطة. ياغراب الشوم، أخرج من حمامى والاقتلتك !

اندفع المستحمون لكى يحولوا بين أبى منصور وضرب الرجل، من كانوا فى المقاصير المستورة أو فى المغطس خرجوا عراة كما ولدتهم أمهاتهم ومن كان جالسا أو راقدا يتحمم سقط عنه إزاره فى الركض المفاجىء ووقف سعد مشدوها يعى أن عليه اللحاق بسيده ولا يتحرك كأنما تثبتت قدماه فى الأرض .

أن تهيم على وجهك نهارا وتستقبل المساء جالسا فى زاوية المسجد تؤلمك قرصة الجوع ولا ينقذك منها سوى النوم متدثرا بملفك الخشن ... ما الجديد فى ذلك ؟

لم تكن المرة الأولى التى يجد فيها سعد نفسه بلا مورد رزق تواجهه أيام يبدو المستقبل فيها كصباح شتائى يجثم عليه الضباب فلايكاد المرء يبصر فيه موقع قدميه .

فى تلك الأيام كان يجتر الماضى، الماضى الأبعد والغصن ينمو تلقائيا، والماضى الأقرب وقد صار مقطوعا من الشجرة تتقاذفه الرياح. وكلما استعاد ما مر به تحضره تفاصيل جديدة أفلتت من ذاكرته فيدهشه أنها أفلتت ويدهشه أكثر ظهورها المفاجىء فيوقن بعد تأمل أن لا شىء يضيع وأن عقل الانسان صندوق عجيب، صغير مادام محمولا فى الرأس، ويحتفظ رغم ذلك بمالا يحصى

أو يعد : رائحة البحر، وجه أمه، خيوط صفراء واهية تنفذ في خضرة أوراق الكروم المبللة بقطرات المطر، خيوط الحرير على نول أبيه، سعلة جده فى الصباح، ضحكات الصغيرة، مذاق حبة لوز أخضر، جرة مكسورة يسيل الزيت منها، وحبة مسبحة مفروطة تدحرجت إليه فى مخبئه خلف الخزانة .

بعد ثلاثة أيام من البحث عن العمل نهارا والنوم فى المسجد ليلا فكر سعد فى طلب المساعدة من أبى منصور، قال له :

- تركت سيدى، أقصد طردنى سيدى وأبحث عن عمل .
- هل تعرف حارة الورّاقين ؟
- أعرفها .
- اذهب إلى هناك واسأل عن حانوت أبى جعفر، قل له إننى الذى أرسلتك اليه .

ثم أردف :

- ان لم يجد لك عملا، عد إلىّ .

قال أبو جعفر وهو يقوم لمواصلة عمله:

- عليك أن تراقب كل ما أقوم به وما يقوم به نعيم. وإن شاء الله تتعلم بسرعة ... هل تقرأ وتكتب ؟
- لا .
- هذه مشكلة أخرى علينا التغلب عليها . تعال يا نعيم هذا سعد جاءنا من مالقة، سيكون رفيقك فى العمل وعليك أن تساعده، ألم تعد معلما ماهرا ؟!

ابتسم نعيم باعتداد للمهمة الموكلة إليه ولكن سعدا لم

يبتسم وهو ينظر إلى نعيم إذ رآه صبيا صغيرا له جسد نحيل وعينان عسليتان تلتمعان ببريق ماكر. لم يكن سعد قد تجاوز الثالثة عشرة من عمره ولكنه كان يشعر بأنه رجل ولمَ لا وقد بلغ ونما جسمه واخشوشن صوته وخط شاربه فكيف يعلمه هذا الصغير الذى بدا له كفأر مكتوم اللون ؟!

وفى الليل تأكدت مشاعر سعد تجاه الولد وازداد منه نفورا إذ كان ثرثارا يتحدث بداع وبلاداع. راح نعيم يسأله عن مالقة وعن أبيه وعن أمه وكيف وصل الى غرناطة وحده ولماذا لم يبق معهما وأين كان يعمل قبل مجيئه إلى أبى جعفر .

كان الولد يسأل بلا كلل وسعد لا يرغب فى الإفضاء بشىء فيجيب إجابات مقتضبة أو مراوغة .

ولما وجد نعيم أن سعدا ليس لديه ما يحكيه انطلق يحكى له عن نفسه. قال انه لايعرف، لا يذكر، لا أمه ولا أباه. كل مايذكره هو تلك العجوز التى كانت ترعاه ولما ماتت لم يجد سوى الطرقات، ثم التقى بأبى جعفر .

- تعرف يا سعد، أنا لا أخاف المشى فى الطرقات ليلا ولا الكلاب الضالة ولا متولى الشرطة وهو يسير منتفخا كأنه كيس طحين، حتى العفاريت لا أخافها. يخيفنى فقط أن يمرض أبو جعفر أويصيبه مكروه.

قالها نعيم وقد اكتسى وجهه بمسحة حزن مفاجىء.

مرت لحظة صمت ثم واصل حكايته .

- حملنى أبو جعفر من الطريق الى أم جعفر وطلب منها أن تحممنى وما ان سكبت على رأسى الماء الساخن حتى صحت بأعلى صوتى وقفزت بعيدا وفى نيتى الهرب من البيت لكنها قبضت على وقرفصت وأجلستنى عنوة وأحاطت صدري بذراعها اليسرى وخصرى بساقيها القويتين فلم أعد أملك سوى الصياح طالبا النجدة وكلما علا صوتى فركت جسمى بقوة أكبر حتى بدا لى أننى سأموت بين يديها. حممتنى النهار بطوله .

- النهار بطوله ؟!

ضحك نعيم :

- هذا ماشعرت به ساعتها !

-٣-

لم يكن المؤذن قد أذّن لصلاة الفجر بعد ولا ديك الجارة صاح صياحه المتكرر عندما انطلق حارس من حرّاس الحمراء الذين أنهيت خدماتهم يركض فى الطرقات صائحا بكلمات غير مترابطة بعضها مفهوم وبعضها الآخر غامض. كان الصوت الموتور العالى يقول من بين مايقول إن جنود الروم يدخلون الحمراء اليوم ويتسلمون مفاتيحها.

قام أبو جعفر من نومه وراح يحسب الأيام مرة فى عقله ومرة على أصابعه، وجدها سبعة وثلاثين يوما.

ظل جالسا فى مكانه. سمع صياح الديك مرة ومرتين وثلاثا ثم أذّن المؤذن وطلع النهار وتقدّمت ساعاته.

الصوت الذى أيقظ أبا جعفر أيقظ سعدا فجلس واجما فى عتمة الحانوت لا يدرى إن كان ماسمعه حلما أم علما ثم قام وانتعل سباطه وتدثر بملفه الصوفى وخرج الى الطريق.

مشى يتابع الأزقة الملتوية الهابطة الى باب الدقّاق.

وعندما اجتازه طالعته التلة الحمراء غائمة في بنفسج السحر والقصور من فوقها ناهضة تحميها أسوارها وأبراجها. لعله كان كابوسا. تقدم إلى قنطرة القاضي وعبر إلى الجهة الأخرى من النهر ثم عاد وعبر القنطرة ثانية إلى جهة البيازين وحدق في ماء النهر. كان حدره يجري في أمان الله وشجرة التين التي أكل من تينها الأخضر قبل شهور قليلة على حالها واقفة. تعرت غصونها ولكن الغصون هناك. تطلع الى أعلى الطريق، كان مهجورا مازال. سار باتجاه قنطرة الهرّاسين وجلس على مصطبة حجرية على ضفة النهر وراح ينتظر. رأى الأفق من وراء القصور يتلون بورد الصباح أرجوانا غائما ممزوجا بزرقة السحر ثم يشتعل أرجوانا صريحا. كانت الشمس على شروق ثم أشرقت في سكون مطبق يعززه تغريد عصافير متفرقة. ثم طلع النهار وتحددت الحمراء بكامل هيبتها: الأسوار المسننة التي تستعصي ، والأبراج العالية، والقصور المنيفة، وأشجار السرو والنخيل خصيبة وسامقة و ممتده. هدأ وكاد يدير ظهره ويمضي عائداً الى الحانوت ولكنه سمع صوتا واهنا، أرهف أذنيه، تأكد. كان صوتا بعيدا ويقترب. بعد فترة ميّز قرع الطبول ونفخ الأبواق ورنين المثلثات . هل يتقدمون لتسلم الحمراء ؟ هل يتقدمون من الجهة الشرقية حيث لا يملك رؤيتهم ؟ هل صح كلام الرجل ؟ ظل متحجرا في مكانه يتابع قرص الشمس . كان صوت الموسيقى يزداد اتضاحا ويعلو فتتسارع دقات قلبه وتسري في بدنه ، رغم البرد القارص، رجفة المحموم .

-

قرب الضحى رأى سعد جنودا قشتاليين يرفعون صليبا

فضيا كبيرا فوق برج الحراسة. وعندما انتهوا من تثبيته رفعوا علم قشتالة وراية القديس ياقُب ثم صاحوا بلغة أعجمية كلاما لم يميز منه سوى اسمى فرديناند وإيزابيلا، ردَّدوه ثلاثا ثم دوّت الطلقات فى الفضاء .

لم ينتظر سعد المزيد بل ركض كالممسوس صاعدا تلة البيازين حتى إذا وصل الحى راح يعوى فى الشوارع:
«دخلوا الحمراء، رأيتهم»، «أخذوا الحمراء، سمعتهم»،
« ياأهل البيازين، رأيتهم، سمعتهم»
كانت الطرقات مقفرة، لا بشر، لا دواب، لا طيور، والأبواب مغلقة كأبواب القبور وهو يعوى بينها ويركض حتى وجد نفسه فى الحانوت عاريا من ملَفِّه الصوفى وسبّاطه. انهد جالسا وانخرط فى النشيج.

فاجأ سعد نعيما فوقف حائرا لا يدرى ماذا يفعل أو يقول ثم تحرك متعثرا يبحث عن جرة الماء ليفرغ منها شربة لزميله.
- ماذا حدث يا سعد . . لماذا تبكى هكذا ؟!

ولكن سعدا كان يواصل انتحابه ولم يملك نعيم سوى أن يعود لجرة الماء.ملأ طستا وحمله الى صاحبه مسح له وجهه برفق ثم انحنى على قدميه وراح يغسلهما من وحول الطريق وآثار الدماء التى خلفتها الحجارة والأشواك.

قضى أبو جعفر يومه فى محل نومه، يجلس ويقوم، يدور بين الجدران الأربعة. هل أخطأ وأخطأ كل أهل البيازين حين ساعدوا أبا عبدالله فى التمكن من حكم

البلاد ؟ ناصروه واشتبكوا مع أهل غرناطة من أجل هذا الزغيبى المنحوس . ساعتها لم يبد الفتى شقيا أو منحوسا بل وعدا يُخلّصهم من مظالم أبيه الغارق حتى أذنيه فى الملذات. انحازوا الى ابن الحُرّة وأغلقوا أبواب البيازين فى وجه الطاغية أبيه فارتد عن الأسوار خائبا مخلوعا. هل أخطأوا فى الانحياز - وهم المظلومون - الى أمير مظلوم ؟ هل أخطأوا حين نَصبُوا الوعد بأمير عادل؟ وما الذى أصاب الأمير الفتى. . . هل أعطبه الأسر وهزمته الهزيمة أم أنه المسطور فى اللوح المحفوظ ؟ وهل يسطر الله فى لوحه هزيمة عباده الصالحين ؟! تأخرت النجدة . . . تأخرت. .. ولكنها قادمة من أهلنا فى مصر والشام والمغرب . . . سيأتون بأمر الله وإرادته ... وان لم يأتوا ؟!

تطلع أبو جعفر من طاقة فى الجدار الى الفضاء. لا أرض بلا سماء : يا أحكم الحاكمين يا صاحب الزرقاء العالية يا وعد الحق .. يا ألله .

مالت شمس الضحى ثم مالت أكثر فى سكون. وأتى المساء وتوغل، واستتب الليل، والناس فى بيوتهم واجمون. وكمالم يخرجوا فى النهار إلى أعمالهم لم يأووا فى الليل الى فراشهم، وبقيت المدينة التى أطبق الصمت عليها فى الصباح صامتة فى الليل أيضا ولكن أحدا لم ينم حتى الصغير حسن الذى ضربته أمه ضربا مبرّحا لم يفهم له سببا .

كان حسن قد خرج للعب فى الزقاق مع رفاقه ولمالم

يجد أحدا منهم مر على أخوين فى بيت مجاور فاستبقته أمهما ليلعب معهما فى الدار.

لم تنتبه أم حسن لخروجه ولا لغيابه ولما انتبهت أصابها الهلع وبحثت عنه فى الحوارى المجاورة فلم تجده. وما إن دخل الصغير البيت ورأته حتى انهالت عليه بالضرب الشديد. بكى الولد وصاح مستنجدا بجدته التى هرولت إليه وانتزعته من بين يدى أمه وهى تصرخ فيها موبخة .

قضى حسن باقى اليوم منكمشا فى ركن من أركان الدار. أعرض عن مشاركة أخته سليمة اللعب وبقى مقرفصا فى مكانه تنحدر الدموع من عينيه يمسحها بظهر كفه ويمسح مخاطه فى طرف كمه فى صمت.

ما الذى أصاب أمه ؟ هل فقدت عقلها وأصبحت مجنونة كذلك الرجل الذى يسكن الزقاق المجاور ويخافونه ويركضون فزعا لمجرد رؤيْته؟ لم تضربه أمه أبدا حتى عندما كان يتسبب فى كسر جرة أو إضاعة دراهم. ضربته كثيرا وبلا سبب، وعندما انتزعته جدته من بين يديها ظلت أمه تنتحب. كان خائفا منها وخائفا عليها، يبكى لأنها ضربته ويبكى أكثر لأنها تبكى. قالت له جدته وهى تعطيه قطعة من الحلوى وتمسح دموعه. "اليوم دخل القشتاليون غرناطة. خافت أمك، ظنت أنهم سرقوك لبيعك فى السوق" ولو سمع حسن هذا الكلام من جدته فى وقت آخر لضحك فهل يباع الصغار كالحمير فى الأسواق؟! وهل تظنه حمارا ليصدقها ؟!

نادته جدته لإطعامه فلم يُلبِّ دعوتها ولا هى كررتها.ولما آوى الى فراشه بقى مؤرقا يفكر فى سلوك أمه الغريب وسلوك جده أبى جعفر أيضا. ضربته أمه وعلا صوته بالبكاء ولطمت هى وجهها وانتحبت، وكان جده فى الدار ولكنه لم يحرك ساكنا كأنه لم يسمع. فما الذى جرى لأهله اليوم . . . ما الذى جرى ؟ !

لم يجد حسن إجابة على سؤاله لا فى تلك الليلة ولا فى الليالى التالية. حتى عندما صار عمره سبع سنوات واصطحبه جده الى فقيه ليعلمه كانت ذكرى ذلك اليوم تستحضر له لغزا يستعصى. عرف انه كان يوما حزينا لكل أهل غرناطة وان القشتاليين كانوا قد أخذوا نساء وأطفالا ورجالا أيضا من قرى مجاورة وباعوهم فأصبحوا عبيدا. ولكنه لم يفهم لماذا ضربته أمه بهذه القسوة ولا استطاع إدراك كيف يبيع رجل رجلا مثله أو طفلا أو امرأة. ثم إنه لم ير فى جنود قشتالة ماينفّر أو يخيف. كانوا كغيرهم من الرجال لا تميزهم عن أبناء العرب سوى بشرْتهم الأكثر توردا وملابس مختلفة تثير إعجابهْ بستراتها الغربية وسراويلها الضيقة والقبعات التى كثيرا مايعلوها ريش ملون. وكان هؤلاء القشتاليون يبدون فى أبهى حالاتهم حين يعتلون خيولهم ويمرون فى ركب تسبقه البيارق الملونة وحاملو الطبول ونافخو الأبواق فيصبح الطريق بهيجا كيوم العيد .
فلماذا كل هذا الحزن لدخولهم المدينة ؟!

-٤-

لو قُدِّر لأهل غرناطة قراءة الغيب هل كانت تبدو السنوات القليلة التى أعقبت ضياع بلادهم قاعا، لاقاع بعده، للمهانة والانكسار ؟

عاشوا هَمَّ يومهم لا يُهَوِّن عليهم ماورد فى المعاهدة من ضمانات تصون حقوقهم فى التجارة والعبادة وممارسة حياتهم بالشكل الذى يرتضونه، ولايخفف من وطأته أن الكونت تانديا حاكمهم الجديد كان يسوسهم برفق وأن دى تالافيرا كبير أساقفة غرناطة كان يجتهد، رغم شيخوخته، فى التواصل معهم الى حد تعلم اللغة العربية ومطالبة المبشرين بتعلمها. ولكن زمن الاحتلال هو زمن الاحتلال، وأهل غرناطة شغلتهم هموم عديدة خيَّمت على حياتهم كذلك الصليب الفضى الكبير المشرف على المدينة من فوق أبراج الحمراء.

كان أمر المعاهدة السرية بين أبى عبدالله محمد الصغير والملكين الكاثوليكيين قد افتضح وشاع. سلمهم الملك الصغير مفاتيح الحمراء فكافأوه بثلاثين ألف جنيه قشتالى وبصون حق ملكيته الأبدية فى قصوره وضياعه وممتلكات أهل بيته "أخذ المنحوس حقوق ملكيته الأبدية ورحل" عاشوا يومهم تثقلهم مرارة اكتشاف أنهم بيعوا

كقطيع أبقار أو غنم.

رأوا الهجرة الجماعية للأشراف وعلية القوم والأغنياء، هرج ومرج، ركض محموم، بيع وشراء، كل شيء يباع، وكل شيء يشترى : بيوت وضياع وجنّات ومخطوطات ثمينة وسيوف أورثها الأجداد و أجداد الأجداد. "اشتر يا أبا جعفر فالثمن بخس والشراء مكسب" وأبو جعفر كبغل حرون لا يريد بيعا أوشراء، غاضب لايرى فى رحيل السفن إلا نعوشا سابحة .

رأوا الأمراء يتنصّرون. سعد ونصر ولدا السلطان أبى الحسن سميا نفسيهما الدوق فرناندو دى جرانادا والدوق خوان دى جرانادا وزاد سعد على أخيه درجة فالتحق بجيش قشتالة مقاتلا فى صفوفه "استرح فى قبرك يا أبا الحسن ... نم قرير العين حتى تهب عليك رياح الجنة... تاجرت ذريتك فى تجارة نادرة فأوفت وأبلت بلاء حسنا ياأبا الحسن !"

والوزير يوسف بن كماشة الذى فاوض باسم الأمة وأعد المعاهدتين العلنية والسرية كلل مسيرته بالتنصر ودخول سلك الرهبنة.

كان أبو جعفر وهو يخطو فى عقده السابع يزداد صمتا، صمتا كثيفا يحجب عن عيون أقرب الناس إليه إعصارا داخليا. لاينام أو ينام ساعة أو بعض ساعة ثم يقعد حتى إذا انفصل الخيط الأبيض عن الخيط الأسود خرج من البيت يمشى فى الحى فى انتظار فتح أبوابه، وما إن

تفتح الأبواب حتى يغادره. يهبط إلى رصيف حدرّه ويسير محاذيا النهر يتملى السبيكة وقلاع الحمراء وقصورها والأشجار المزروعة على الضفتين: أشجار السرو والنخيل والصنوبر على سفح التلة فى الجهة الأخرى من النهر وأشجار التين والزيتون والرمان والجوز والكستناء من جهة البيازين. يمر بالأشجار يتفحصها ويحدق فى النهر. وعندما يصل إلى الجامع الأعظم يكون النهار طالعا ومستتبا، يدور بعينيه فى الساحة منتبها للحركة الدءوبة للباعة والشارين ولألفة الأصوات التى تنادى على بضائعها ثم يواصل سيره ويشرّق حتى غرناطة اليهود وباب نجد ثم يعود أدراجه الى الأسواق يمر بزنقة العطارين ودرب الفخارين والزجاجين والنحاسين والصيّاغ ثم يدخل الى القيصرية ولايترك زقاقا من أزقتها العديدة إلا ويمشى فيه متأملا الأقطان والأصواف والحرير، المنسوج منه والخام، والرجال المنهمكين فى القياس والوزن والبيع والشراء وتسليف العملة وتبديلها ثم يخرج من القيصرية إلى شارع السقاطين ومنه مرة أخرى إلى رحبة المسجد الجامع يدخله ويتوضأ ويصلى أربع ركعات فرض صلاة الظهر وركعتين سنة ثم يقفل عائدا إلى حارة الوراقين حيث حانوته.

وفى اليوم التالى يكرر الجولة نفسها أولا يكررها فيبدأ بزيارة ابنه ووالديه فى مقبرة سهل بن مالك يقرأ لهم الفاتحة ثم يقطع الحى من أقصاه إلى أقصاه ليذهب إلى مقبرة الفخارين ويلتقى بصديق له تحت التراب، يحدثه قليلا .

كان أبو جعفر يتفقد عمائر المدينة، مدارسها وجوامعها وروابطها وزواياها وأرباضها وحدائقها كأنما يتعين عليه أن يرسم تفاصيلها ويحيط. يخرج من بيته ويعود، ثم يخرج، لايتبادل حديثا مع أحد وإن حكمت الضرورة ينطق بكلمات مقتضبة ولايزيد.

وفى الحانوت لم يكن هناك عمل يذكر وقد شحّت الأرزاق بعد أن هاجر من هاجر وبقى من صرفته الهموم وضيق ذات اليد عن الانشغال بغلاف جميل لمخطوطة جديدة.

كانت زوجته تعزو صمته لضائقتهما المالية فتحاول إيجاد مخرج ولكنها كلما فتحت له بابا أغلقه.

- بع بيت عين الدمع .
- انه لحسن وهبته لأبيه فورثه عنه.
- والمخطوطات ؟
- تبقى لحسن وسليمة. لم يبق لى ما أتركه لهما إلاها.
- بإمكانك التخفف من أجر سعد ونعيم.
- لا أهل لهما فهل ألقى بهما إلى الطريق !
- لاداعى إذن لدروس الصغيرين .
- سليمة تحب الدراسة وحسن يحتاجها .

أبو جعفر يسلك كأنما الحال مستورة والزمان هو الزمان.

- من أين يا أبا جعفر وكيف ؟
- لم يبق لى فى الدنيا الا القليل، دعينى أفعل ما أريد !

ولكن الهموم التى تأكل قلوب الكبار وتسارع

بخطواتهم الى القبر لاتقدر على الصفار وهم يشبّون عن الطوق فتحملهم سيقانهم وتعلو، تنبض قلوبهم فى حضرة الصبايا وكحل العيون والنهود المستورة كأنما تقصد مكايدة خيالاتهم التى تزداد اتقادا.

كان سعد ونعيم يضحكان وهما يسترجعان الأيام الأولى لتعارفهما. يقول سعد : "قلت صبى مغرور فى حجم الفأر، مكتوم اللون مثله " فيجيبه نعيم" وأنا قلت ابتلانى أبو جعفر برفيق ثقيل الظل، نكد !"

لم يعودا مجرد زميلين قضت ظروفهما بالبيات معا فى الحانوت الذى يعملان فيه بل صاحبين يألف كل منهما تاريخ الآخر كأنما هو تاريخه الشخصى ، لا يفترقان فيقول أهل حارة الوراقين " سعد ونعيم مؤخرتان فى لباس واحد" كانا دائما معا يشاهدهم الناس فى رواحهما وغدوهما فى ملابس متشابهة يتبادلانها أحيانا رغم أن ملابس سعد كانت تبدو فضفاضة بعض الشىء على نعيم وملابس نعيم ضيقة قليلا على سعد.

كان سعد يكبر نعيما بعام واحد، له وجه أسمر منحوت يشى بشىء من تجهم أو صرامة، نما شاربه فأخفى الكبر النسبى للأنف وغلظة الشفتين. أما العينان الكحلاوان اللتان كانتا تستوقفان الناظر فى سنوات سابقة فقد بدتا أقل اتساعا بعد بروز عظمتى الحاجبين وان بقى ذلك الشىء المميز للوجه كله : عمق سواد العينين ونظرة عتب حزينة تنفى ماتشى به الملامح من صرامة .كان سعد متوسط الطول مربوعا وعريض المنكبين أما نعيم فكان

أنحف من صاحبه وله نفس الطول تقريبا. لون بشرته يضرب الى صفرة، وملامح وجهه أدق وشعره كستنائى أملس، يعلو شفتيه زغب أشقر خفيف يتحرق لرؤيته ينمو لكنه لاينمو وكانت ملامحه الدقيقة وعيناه العسليتان الملتمعتان ذكاء تضفيان على الوجه عذوبة وملاحة.

كان نعيم وهو فى الرابعة عشرة من عمره يبدو طفلا. وكان، رغم ذلك، غارقا فى الحب حتى أذنيه، يعيش حالة من الوله المتجدد المستمر.. يرى صبية يفتنه جمالها فتتسارع دقات قلبه، ويشتعل وجهه فيتبعها كالممسوس، يسأل عن اسمها وأهلها وعنوان دارها. تحمله قدماه كل يوم الى حيّها لعله يراها. يردد اسمها ويكتبه فى حجاب صغير يتحرز به أسبوعين، ثلاثة، وربما أربعة ثم تظهر حبيبة جديدة تحل محل القديمة فى قلبه وفى الحجاب.

يضحك سعد متندرا على نعيم الذى يغضب من صاحبه ويخاصمه نهارا أو بعضَ نهار. وفى الليل عندما يغلقان باب الحانوت يتحرق نعيم لإنهاء الخصام فيبادىء سعدا بالحديث:

- لقد أسأت إلى ...
- آسف، لم أقصد الا مداعبتك.

تتكرر الافتتاحية بينهما الى حد أنها أصبحت تضحكهما وهما يرددانها كطقس أليف وطريف يؤذن بانطلاق الحديث المحجوز الذى يتدفق بقوة وصخب .

* * *

كان على سليمة أن تقنع جدها بالسماح لها هى وأخيها أن يذهبا. قال أبو جعفر :

– إنه موكب كباقي المواكب، لا أرى داعياً للذهاب !

– أرجوك يا جدى، أرجوك، دعنا نذهب .

– لا داعى !

ولكن سليمة عادت تلح فى اليوم التالى وناصرتها جدتها التى قالت إنها لا ترى ما الذى يمنع ذهابهم "مادام ذلك يفرحهم ويسرى عنهم" ثم انتحت بأبى جعفر جانبا وهمست :

– يا أبا جعفر، الصغار صغار، الحداد لايليق بهم ولا صبر لهم عليه، دعهم يذهبون لأجل خاطرى.

حين تنشغل سليمة بأمر ما تنهمك فيه انهماكا كاملا فلا يقوى أى من أهل الدار ولا كلهم مجتمعين على زحزحتها بعيدا عنه. وحين ترغب فى شىء تظل تطلبه وتلح ولا تكل ولا تمل ولا تهدأ ولاتترك أحدا يهدأ إلا عندما تحصل عليه. تقول أمها " فى سليمة من البعوض صفتان الزن وعدم المنفعة !" فتضحك أم جعفر وتقول "إنها كالملكة بلقيس تريد أن تأمر فتطاع ولا يملك أحد أن يأمرها بشىء!"وكانت أم جعفر كثيرا ما تشيرلها مداعبة باسم بلقيس بدلا من سليمة وكانت، رغم كلامها المازح، قلقة على حفيدتها التى لاتعرف حتى كيف تقلى بيضة ومن فى سنها من بنات الجيران يعاون أمهاتهن فى شتى الأعمال المنزلية . وأخوها الذى يصغرها بعامين يفوقها دربة ونشاطا يرسلونه إلى فرن الحى فيحمل على رأسه السمك أو الفطير المطلوب خبزه وينتظر ويحاسب الفرّان ويعود

الى الدار بالمخبوز من الطعام .

ولم يكن أبو جعفر قلقا مما يُقلق زوجته وزوجة ابنه إذ كان يعرف أن كسل البنت يعوضه نشاطا من نوع آخر. كان عقلها نشطا كطاحونة لاتكف عن الدوران تراقب وتتأمل وتتسأل وتنهمك. وكانت وهى بعد لم تبلغ التاسعة من عمرها قد أتمت ثلث القرآن حفظا وتقرأ بسهولة ويسر وتكتب بخط واضح وسليم، يطرى عليها أستاذها لسرعة فهمها واستيعابها ما يشرحه لها من قواعد النحو.

يرق قلب أبى جعفر وهو يتطلع إلى حفيدته فيرى انها وإن أخذت عنه زرقة العينين ، فقد أخذت عن ابيها تلك النظرة المتوقدة بحضور متألق وذكاء وحيوية. كانت البنت فى تلك الأيام منشغلة انشغالا شديدا بما يتردد عن اكتشاف عالم جديد. سألته

- لماذا جديد ؟

- لانه اكتشف حديثا .. لم نكن نعرف انه موجود من قبل.

- لكن يا جدى هذا لا يجعله جديدا !عندما سمعت العبارة لأول مرة تخيلت انه عالم خلقه الله مؤخرا وتصورت أن أشجاره شجيرات صغيرة وأن كل المخلوقات فيه صغيرة حديثة الولادة .

ضحكت من نفسها وقالت :

- كنت بلهاء !

سمح أبو جعفر لسليمة وحسن بالذهاب لمشاهدة

الموكب واشترط أن يرافقهما سعد ونعيم. وقال لحسن:
- احرص على اختك فقد يكون هناك شباب قشتاليون يتطاولون على بنات الناس انتبه وابق يدها فى يدك ولا تغفل عنها لحظة.

بعد يومين توجه الأربعة، حسن وسليمة وسعد و نعيم، الى المكان المعلوم. ورغم نسمة باردة الا أن السماء كانت صحوا وأشعة الشمس تضفى على النهار دفئا محببا فى صباح ربيعي. وكان الأربعة يتحدثون ويضحكون فى صخب مستثار بالرحلة التي انتزعوها انتزاعا وبالموكب العجيب الذى يتوقعون مشاهدته.

وكلما اقتربوا من المكان زاد الزحام حتى إذا ماوصلوا وجدوا الطريق مكتظة بالبشر وكذا شرفات البيوت والنوافذ والأسطح المطلة على الجانبين. كان الناس يتحدثون ويضحكون ويتصايحون أو يشترون لصغارهم من الباعة الجائلين لوزا أخضر وتينا مجففا وفطائر محلاة بالعسل .

ثم هدأ الناس وسكتت الأصوات واشرأبت الأعناق وتثبتت العيون على أعلى الطريق. ميزوا قرع الطبول ونفخ الأبواق ورنين المثلثات والأجراس وهى تقترب وتتعالى فيزداد صمت الناس و تتسع عيونهم كأنما بإمكانهم أن يروا أكثر. ثم ظهر حاملو البيارق الملونة ومن خلفهم العازفون بملابسهم القشتالية، السراويل الضيقة المقطوعة على حجم الجسد والسترات المزينة والقبعات .

هتف رجل بالقشتالية :

- انه هو ... هذا هو ... انظروا !

كان يشير إلى فارس يتقدم معتليا حصانا أبيض مطهما يطأ الأرض بخفة متهاديا كأنما يتيه بحسنه .

- يعيش كريستوبال كولون ... يعيش كريستوبال كولون !

رفع الرجل الملتحى قلنسوته السوداء وحيا الناس بها وابتسم ابتسامة عريضة معتدة كأنه ملك على الملوك .

قالت سليمة بحماس متقد :

- يقولون إن الأرض التى اكتشفها كلها ذهب وفضة وهو فى طريقه الآن الى برشلونه لإعطاء الملكين ماوجده من الكنوز .

قال حسن :

- ولم لا يأخذ الكنوز لنفسه ؟!

قالت سليمة :

- لا يملك !

سألها سعد :

- لماذا ؟

أجابته :

- لقد دفع الملكان المال اللازم للرحلة.. كأنهما استأجراه للقيام بها.أنظر يا سعد أنظر !

بعد مرور الفرسان الذين يتبعون الأدميرال ظهرفى الموكب رجال يحملون أقفاصا كبيرة بها طيور مدهشة الألوان بعضها صغير كالعصافير وبعضها متوسط الحجم كالببغاوات وبعضها كبير كالأوز، منها ما له مناقير

كبيرة لم تشهد العين لها مثيلا وأعراف دقيقة كالتيجان. ومن بعدهم مر رجال يحملون صناديق زجاجية بها مخلوقات غريبة : عناكب ضخمة وحيات عملاقة وزواحف هائلة يفزع الانسان من مجرد النظر اليها. كان الناس يتابعون الموكب مبهورى الأنفاس موزعين بين التوقد والخوف من ذلك العالم الجديد المجهول الذى اكتشفه الفارس .

بعدها، وكأنما أراد منظمو الموكب أن يلتقط الناس أنفاسهم، مر حاملو النباتات فامتلأت الطريق بسعف نخيل ليس بنخيل، وأفرع أشجار لا يعرف المرء نوعها، وثمار غريبة منها الملتحف بغطاء بنى كالصوف ومنها المغطى بقشور كأنه قُدّ من جذع نخلة. ثم تقدم فرسان آخرون يحملون ، كمن سبقهم ، علبا من زجاج مغلقة على المعروض فيها، يلتمع التماعا فى ضوء الشمس، يخطف الأبصار. صاحت امرأة : "انه الذهب !" "الذهب" ترددت الصيحة ثم انعقدت الألسنة وتسارعت دقات القلوب واتسعت العيون تُحدق فى العلب التى تحمل تبْرا "رمال من الذهب" أو قطعا كاملة من الذهب الخالص. سبائك كبيرة لم يسمع الناس ان فى الأرض لها مثيلا.. هتفت امرأة:

- يعيش كريستوبال كولون !

تردد الهتاف أكثر خفوتا هذه المرة وكأنما الدهشة والانبهار سحبتا مافى الأبدان من قوة.

هتفت سليمة :

– ليس عالما جديدا، إنه عالم مختلف، هذا هو كل مافى الأمر !

ولم تكن المدهشات قد انتهت بعد اذ ظهر فى نهاية الموكب الأسرى. وسرى الهمس بين الصفوف :

– أهل البلاد .. انهم أهل البلاد ... سكان العالم الجديد !

كانوا يمشون بخطى وئيدة وأيديهم مقيدة خلف ظهورهم يحيط بهم الحراس من الجانبين. كانت لهم ملامح دقيقة وأجساد نحيلة لاتخلو من هشاشة، والرجال كالنساء تنسدل شعورهم، سوداء ملساء طويلة، تغطى أكتافهم. ورغم الملابس القشتالية التى كانوا يرتدونها الا أن اختلافهم كان واضحا وبيّنا بسبب ملامحهم أونظرة عيونهم أو الريش الملون المنغرس فى عصبات تحيط برءوسهم. وكانت هيئتهم على غرابتها لا تثير النفور بل على العكس تماما من ذلك، ربما لملاحة الوجوه ورشاقة القدود وربما لسبب آخر. ولكن بعض القشتاليين كانوا يضحكون . التفتت سليمة إلى سعد :

– ما الذى يضحكهم ؟!

– لا أدرى !

كانت الضحكات قد فاجأت سعدا أيضا وأربكته ثم استفزّته.

صاح نعيم :

– سعد، هل ترى هذه الصبية ؟

– أية صبية ؟

– الأسيرة التى ترتدى ثوبا أبيض .

أشار نعيم بيده الى فتاة ممشوقة كالعود كانت قد تعثرت وسقطت على الأرض وحاول أحد الحراس إعانتها على النهوض فدفعته بكتفها وتحاملت وقامت وحدها رغم يديها المقيدتين وواصلت المشى .

- ترى ما اسمها ؟
- ومن يدرينى ؟!
- ليتنى أعرف اسمها !

مر الموكب مجللا بنقر الدفوف ودق الطبول والمزامير تتداخل تلاوين اصواتها مع رنين المثلثات المعدنية وصخب الناس وضحكاتهم. ولم يعرف الصغار الأربعة أين ذهبت البهجة التى كانت تتقافز فى قلوبهم، بل الحق أنهم لم ينتبهوا إلى ذهابها وحلول مسحة حزن على الموكب وعيونهم. كانوا يراقبون فى صمت الأيدى المقيدة خلف الظهور، والخطوة الوئيدة والرءوس المطرقة والنظرة المفاجئة التى تطالعك حين يرفع الواحد منهم عينيه اليك فيحدق فيك كما تحدق فيه.

قالت سليمة :

- لم لا نرجع الى البيت ؟
- نرجع .. أين ذهب نعيم ؟

وقفوا ينتظرون عودته وطال انتظارهم وراحوا يضربون أخماسا فى أسداس. وأراد سعد أن يذهب للبحث عنه وقيّده وعده لأبى جعفر بأنه لن يترك حسن وسليمة وحدهما "ولا لطرفة عين !" وانتظروا أكثر ثم حسم سعد أمره :

- نعود الى البيازين، وقد يكون نعيم قد سبقنا الى هناك .

لم يقل انه ينوى اعادتهما ثم الرجوع الى المكان للبحث عن صاحبه.

فى رحلة العودة كان حسن وسليمة يؤكدان أن نعيما عاد الى المدينة فيقول لهما سعد ان ذلك بالضبط هو ما حدث ولكنه لم يكن يصدق مايقوله لهما، يثقل قلبه القلق.

ساروا فى صمت فى طرق جبلية غربت شمسها فغامت الألوان على التلال لتخبو وتسلم نفسها لليل الوشيك. وكان سعد يحدق فى موكب الأسرى الذى ذهب . ترى هل حاصروهم من البر والبحر كما حاصروا مالقة ؟ هل جوعوهم حتى أكل من جرؤ منهم لحم حصانه ؟ هل قصفوا بيوتهم واقتحموها عليهم واقتادوهم أسرى ؟ .

مطلع الصيف: الجو أكثر دفئا بعد أمطار غزيرة حمّلت المكان بزائحة العشب المبلل. يقول الكبار سقطت بلْش مالقة والقشتاليون قادمون.

يقول الكبار: وصلوا وأقاموا معسكرهم خارج أسوار المدينة وحفروا الخنادق وأنشأوا أبراجا وجسورا خشبية ونصبوا المدافع اللمباردية. وصل الملك فرديناند ... ووصلت الملكة من قرطبة. يقول أبوه ان حامدا الثغرى الذى قاد دفاعا مستميتا عن رونده قد طُلب

منه بعد سقوطها أن يقود الحامية الموجودة فى قلعة جبل الفارو المشرفة على مالقة. يقول أبوه : نزل الثغرى من القلعة مع قواته ونحى حاكم مالقة الذى كان يريد تسليمها ونظم الدفاع عن المدينة . الكبار لا يتحدثون الا عن ذلك، يسمعون كلامهم فيفهمون بعضه ولا يفهمون البعض الآخر. فى الحالتين يعيدون مايسمعونه لعبا وتشخيصا.

متعة الركض فى الحارات وبحث الواحد منهم عن رفاقه المختفين خلف الأشجار وسرقة الحصرم من كروم لا يملكونها، كلها توارت أمام المتعة الجديدة. يوزعون الأدوار ويختلفون ويتعاركون. كلهم يريد أن يكون الثغرى أو، على الأقل ، مقاتلا من مقاتليه ثم يقبل فى نهاية الأمر أن يقوم بدور فرديناند أودور رجل من رجال حاشيته وفرسانه. لا شىء ينقصهم، وفى البيوت والطرقات وفرة: إناء فخارى يحضره أحدهم سرا من داره هو تاج فرديناند يقلبه على رأسه ويشد قامته فيصير الملك، وفروع الأشجار سيوف جاهزة، والحصى الصغير دنانير الذهب والحصى الأكبر الجواهر النادرة، وجلباب قديم ويلفه صاحبه على رأسه يصير عمامة مهيبة تجعله تاجرا من كبار التجار.

الملك فرديناند تعلو رأسه الآنية الفخارية المقلوبة ينادى على ثلاثة من فرسانه ويطلب

منهم التوجه الى مالقة : "قولوا لهم أن يسلموا المدينة " ينحنى الفرسان ويقبلون يده الصغيرة ثم يستديرون لينقلوا رسالتهم الى الجانب الآخر " الملك فرديناند يطلب منكم التسليم " تقترب الرءوس المعممة، تتشاور. يقول التجار: نُسلم والا هلكنا. يقول الباقون: لا نُسلم. على درويش قائد المدينة يحسم الأمر: سنسلم.

يظهر الثغرى ممتطيا جواده الوهمى، يرفع سيفه فى وجه درويش فيسقط على الأرض قتيلا ويهرب الآخرون. ويقول الثغرى وغصن الشجرة مشرع فى يده: "قل للملك ان سيدى الزغَل لم يوكل لنا قيادة القلعة لنسلمها، سندافع عن مدينتنا" . يقول مندوب الملك: "ولكن الملك أرسل لك هذه الهدية" يمد يده بالحصى الصغير والكبير" وسيعطيك إن سلمت له المدينة قصرا ومالا أكثر". يعيد الثغرى الحصى لمندوب الملك وهو يقول فى اعتداد: "لا أريد منكم شيئا" .

ثم تشتعل الحرب، ويشاركون جميعا فى النزال بسيوفهم الخشبية، وتتسع الساحة لتشمل كرم العنب كله فيتفرقون فى أنحائه كل اثنين يتبارزان حتى يهدهم التعب.

لعبتهم اليومية فى الأسابيع الأولى للحصار

قبل أن يشح الزاد ويتساقط الناس من شدة الجوع وتقعدهم بطونهم الخالية عن كل ركض ولعب. حتى الحصرم الذى كانوا مشغوفين بسرقته يستطيبون لذعته الحادة كرهوه وحموضته تلسع جوفهم وتحرقه حرقاً.

يرفض أبوه أن يذبح حصانه، تبكى أمه: سيموت الصغار جوعا ... ويصيح هو كاذبا: من قال إننى جائع... أقسم بالله العظيم أننى لست جائعا ...ويبكى جوعا وخوفا على الحصان.

أبوه لم يذبح حصانه، أمه تقطف أوراق العنب وتغليها فى الماء وتطعمهم. تدق سعف النخيل حتى يصبح دقيقا كالطحين وتعجنه بالماء وتسويه .. فيأكل .

لم يحجب خفوت ضوء الفسق عن سليمة وجه سعد ... لم تفهم اختلاجته ولا اجتماع الصفاء والكدر على صفحته المرتعشة بحزن عميق أحسته وان لم تحط به ولما رأت تلك الدمعة التى انحدرت من طرف العين خلسة مدت يدها الى يده وأمسكت بها .

أوصل سعد حسن وسليمة الى بيت أبى جعفر ثم اتجه الى الحانوت. سأنتظره بعض الوقت فان لم يظهر ارجع الى مكان العرض لأبحث عنه. لمح ضوء القنديل يتسرب من تحت باب الحانوت فعرف أن نعيما قد عاد.

- ماذا حدث، أين كنت ؟

تلعثم نعيم وبدا مضطربا ثم قال على استحياء :

- مشيت مع الموكب .
- ولماذا تمشى مع الموكب ...ولماذا تذهب دون أن تخبرنا ؟!

قالها سعد بصوت عال محتد ..وكان يعرف انه سوف ينفجر فى نعيم موبخا ان لم يجد لديه تفسيرا مقبولا لسلوكه .

- ماذا حدث ؟ !
- اهدأ يا سعد ... اهدأ ... لن أستطيع أن أجيبك الا لو هدأت فأنا أيضا مضطرب وحزين ولا أدرى ماذا أفعل .
- ماذا حدث ؟

قام نعيم وأعد لقمة للعشاء. أكلا فى صمت وعندما انتهيا قال:

- لقد وقعت فى حب الصبية .
- أية صبية ؟
- الصبية التى كانت فى الموكب، ذات الرداء الأبيض .
- ثم ؟ !
- أخذت قلبى يا سعد ... وارتعت فأنا لا أعرف حتى اسمها. ركضت خلف الموكب وحاولت الوصول إليها فأخذت أحدث أصواتا لكى تنتبه. تطلعت إلى وخلت شيئا كأنه القبول على وجهها ولكن الحراس دفعونى بعيدا ... سقطت على الأرض. وكانت تتطلع فابتسمت ثم نقلها الحراس الى الجانب الآخر من الموكب حتى لا أراها. مشيت بمحاذاة الموكب لعلى أراها مرة أخرى ولكنى لم

أرها ... ماذا أفعل الآن يا سعد ؟

- اطفىء القنديل ونم !

* * *

جاءت سليمة الى الحانوت تسأل عن أبى جعفر ولم يكن موجودا «عندما يأتى جدى قل له إن جدتى ... » لم يسمع سعد باقى كلامها. لحظة خاطفة أسرع من ومض البرق فى السماء. غض الطرف لانه لم يقدر على مواصلة التطلع الى الوجه الذى رآه الف مرة ولم يره أبدا إلا عندما سقطت الغشاوة عن عينيه فرأى ولما رأى تزعزعت أحشاؤه وغض الطرف .

لم ينم سعد الليل بطوله، بقى مؤرقا يتقلب فى فراشه كالمحموم وفى الأيام التالية انقطع عن الذهاب الى بيت أبى جعفر، يطلب من نعيم الذهاب، لو اقتضت الضرورة، متعللا بعذر أو سواه. وكلما أراد أن يُسِّر لنعيم بحبه تلّجم لسانه، وكلما حاول أن يغالب مافى قلبه ازداد مافى قلبه اتقادا.

بعد شهرين حكى لنعيم. تراقص نعيم طربا لكلمة "أحب" التى نطق سعد بها لكن باقى العبارة " سليمة حفيدة أبى جعفر " وأدت الرقصة فى بدنه وتركته واجما. غلبه الصمت لحظات ... ثم قال "أحبها بعض الوقت ثم أحب سواها !" كان ما يدور فى رأس نعيم مطابقا لما يشغل سعدا. ما الذى يقوله أبو جعفر لوعلم ؟ هل يقول ائتمنت سعدا على أهل بيتى فخان الأمانة. وهل لوطلب سعد الزواج من حفيدته يقبل ؟ ألا يقول انه فقير وبلا

أهل ويريد الزواج من حفيدته طمعا فى مالها ومكانته ؟
عاد نعيم يقول:
- أحبها أسبوعا أسبوعين ثم تحول الى غيرها. قلقت عليك يا أخي وقلت أغلق سعد قلبه في وجه النساء ... الحمد لله انحلت عقدتك !
توقف نعيم لحظات ثم سأل:
- كيف تحبها يا سعد ؟
- لا أفهم ؟
- أخي أريد أن أطمئن عليك ... أريد أن أقارن بين طريقة حبك للنساء وطريقة حبي ... قل لي بتفصيل التفصيل كيف تحبها !

كان حسن وسليمة يلقيان المعتاد من التدليل فى بيت الأجداد ويلقيان المزيد منه لأنهما ولدا الغالى الذى اختطفه الموت قبل الأوان. ولم يكن أبو جعفر يأتى للصغيرين بكل مايطلبانه فقط بل كان أيضا يعلق عليهما الآمال العريضة. جاء لسليمة بمن يعلمها القراءة والكتابة فى الدار وعندما أتم حسن السابعة من عمره اصطحبه لفقيه ذى مكانة ليلحقه بحلقة درسه. وكان يقول لحسن : " سقطت غرناطة يا حسن ولكن من يدرى قد تعود على يديك بسيفك أو قد تكتب حكايتها وتسجل أعلامها. لا أريدك ورّاقا مثلى يا ولد بل كاتبا عظيما كابن الخطيب يسجلون اسمك مع غرناطة فى كل كتاب " .

كانت سليمة فى التاسعة من عمرها فى اليوم الذي تطلع فيها سعد وغض الطرف. لا حظت وانتبهت وأربكها مالاحظته لان وجود سعد كان مألوفا ومعتادا كوجود حسن

ونعيم وجدّها والمعلم الذى يعلمها. أما نظرته وإحساسها فكانا غريبين جديدين لم تعرف كيف تتعامل معهما. شغلها الأمر يوما ويومين وثلاثة ثم تشاغلت عنه وتناسته حتى نسيته. ولم تكن سليمة منتبهة لأنوثتها كالعديدات من قريناتها اللائى يعدهن أهلهن فى تلك السن للزواج. وكان أبوجعفر، رغم انه لم يشر لأحد بذلك قط، يتمنى فى قرارة نفسه أن تكون سليمة كعائشة بنت أحمد زينة نساء قرطبة ورجالها أيضا فاقتهم فى فهمها وعلمها وأدبها ... لم ينشغل بأمر زواجها ولا شغلها به. كذلك أمها فعلت الشىء نفسه لأسباب أخرى تخصها، كان تعلقها الشديد بابنتها يجعلها تجفل لمجرد التفكير فى انفصالها عنهاللإقامة بعيدا مع رجل غريب فى بيت غريب.

كان بعض معارف أبى جعفر وأصدقائه ينبهونه الى أن مايتكلفه من نفقات تعليم حفيديه تبديد لا طائل من ورائه " لم يعد هذا زمان العلماء والفقهاء يا أباجعفر ولا حتى زمان النسّاخين. اللغة القشتالية قادمة لا محالة والعربية لم تعد بضاعة رابحة ". كان أبو جعفر يسمع مايقولونه ولا يعلق ولكنه لم يفكر ولا للحظة واحدة فى التخلى عن تعليم الصغيرين ليس فقط لأنه كان عنيدا فى تحقيق رغباته ولكن أيضا لقناعته بأن التراجع عن تعليم حفيديه تسليم بهزيمة قد يقدر الله ألا تقع فى نهاية المطاف. لم تكن أحلامه قد تخلت عنه فكيف يتخلى هو عنها ؟ ! وكان يحلو له أن يتخيل أن كل ماهو كائن ليس سوى كابوس عابر لأن الله لايمكن أن يترك عباده وينساهم كأنهم لم يعبدوه ولم يعمروا بيته وقلوبهم بحبه وذكره ... ويرى أياما قادمة ينسحب فيها القشتاليون الى الشمال

ويتركون غرناطة تعيش فى سلام فى ظل الحرف العربى وصوت المؤذن. كان يعرف أن العمر لن يمتد لتشهد عيناه ذلك ... يقول لنفسه أن روحه سوف تشهدها وهى تحلق فى سماء المدينة يمامة بيضاء تنساب مرفرفة من أبراج الحمراء الى مئذنة المسجد الجامع تحط فى باحته لتلتقط فتات خبز يلقيه لها الدارسون الصغار، تطير وتحلق وتسلك وتحط فى نهاية اليوم على نافذة بيت فى البيازين كان بيته وأصبح بيت حسن الغرناطى الكاتب ساهرا يغمس ريشته فى دواته ويكتب.

وكان الصغيران يغذيان الحلم بتفوقهما فسليمة تحفظ من الأشعار مالا يحفظه رجال طالت لحاهم وحسن يرسم الخط رسما وتستقيم سطوره كأنما هى افريز بديع من أفاريز المساجد والصفحة تخرج من بين يديه متعة للناظرين، ومعلمو الصغيرين يستبشرون بذكائهما خيرا فيغدق أبو جعفر فى مكافأتهم حتى وان اقتطع من ثمن ملف أو مركوب يتوجب شراؤه عوضا عن المرقوع البالى.

وصل الرجل الى غرناطة في يوليو ١٤٩٩. حرب أو لا حرب، احتلال أو فرح، التلال فى الصيف تقيم أعراسها، تنشر على الملأ أخضرها العميم تدغدغه زهور البرّ بعطورها وألوانها وبينها شقائق النعمان تفوقها بهاءً وفُجرا بأحمرها الكيّاد. صيف غرناطة عروق زيتون تحمل، ومشمس مغْناج يلوح ويختفى بين خضرة الأوراق، ورمان كتوم يجمّع حلاوته على مهل قبل أن ينفرط بين أيدى آكليه، وتعريشات دوال، وأشجار جوز ولوز وكستناء تظلل الطرقات، وماء دافق ينحدر من قمم الجبال مقبلا على الوديان ضاحكا ومكركرا.

لكن الرجل نزل المدينة فى الصيف. رأسه حليق الا من طوق من الشعر يحيط بالقبة الجلدية اللامعة. وجهه صارم يضرب الى صفرة ممتقعة، جبهته عريضة وعيناه صغيرتان تتطلعان فى نفاذ محقّق. له أنف أقنى وشفتان دقيقتان مزمومتان زادت العليا على السفلى امتلاءً. جسده نحيل مشدود ويبدو، حين ينشر ذراعيه فى ثوبه الأسود الفضفاض، كوطواط بشرى هائل.

من هو الرجل ومن أين أتى ؟ لم يتقن الناس نطق

اسمه الا بعد حين: فرانسيسكو خيمنيث دى سيسنيرو. كان أسقف طليطلة وإن أتى إليهم، هكذا قيل، ومن مدينة القلعة حيث كان يؤسس جامعة. إذن فهو عالم فقيه، فقيه قشتالى جاء للقاء فقهاء العرب، اتصل بهم وتودد اليهم وأغدق عليهم عطاياه .

نادى المنادى فى الناس أنه سيفرج عن حامد الثغرى فمن أراد من الأهالى رؤية الرجل رأى العين والتأكد ليتوجه فى اليوم التالى الى كنيسة سان سلفادور لأن الدخول مشاع والفرجة للجميع .

قال أبو منصور مستنكرا:

– وهل ندخل الى باحة مسجد حولوه الى كنيسة ؟! .

قال سعد :

– المكان لنا حتى وإن غيروا اسمه. ثم أننا لا نذهب من أجلهم بل من أجل رجل يخصنا. نحن جاهته وعزوته فهل يصح أن يخرج الثغرى من أسره الطويل وحيدا عاريا من أهله ؟! سنخرج به من ساحة المسجد محمولا على الأعناق كما يليق به وبنا.

بقى أبو جعفر صامتا .

فى اليوم التالى اتجه ثلاثتهم الى مسجد البيازين الذى أصبح اسمه كنيسة سان سلفادور. وكان حشد كبير من أولاد العرب قد توافد على المكان. بعضهم من أهل مالقة الذين قدر لهم الوصول الى غرناطة، رجال ونساء عرفوا الثغرى وتعلقت روحهم بالكلمة التى يقولها

والقرار الذى يتخذه، وبعضهم الآخر من أهل غرناطة والقرى المجاورة الذين تابعوا بطولات حامد الثغرى وابتنوا له فى قلوبهم بيتا صغيرا دافئا يجاور ذلك البيت الآخر الكبير الذى سكنه على وعمّره ببطولاته وعدله .

توافد الناس على باحة المسجد وتربعوا فى صفوف متراصة يتطلعون وينتظرون. ثم ظهر الكاردينال خيمينيث فى ثوبه الأسود الضافى واتجه بخطوات مشدودة وئيدة إلى الرواق الشرقى حيث وضع مقعد كبير فخم جلس عليه. تطلع إليهم وتطلعوا إليه ثم صفق بيديه فدخل حراس أربعة يحيطون برجل شديد النحول يرتدى ملابس رثة. كان مقيد اليدين والقدمين مطأطىء الرأس متعثر الخطى .

تهامس الناس :

- هل هذا حامد الثغرى ... هل يعقل أن يكون حامد الثغرى ... ليس حامدا !!
- إنه هو !

قالها رجل من مالقة حارب معه. وتناقل الناس العبارة بين الصفوف " أبو على المالقى تعرّف عليه "،" هل تعرّف عليه ؟"، "من تعرّف عليه؟ " " أبو على المالقى" . .

أشار الكاردينال بيديه الكبيرتين وأصابعه الدقيقة الى الحراس ففكوا قيود الرجل . قال الكاردينال :

- الآن يا حامد قل للناس ما رأيت ...

نظر حامد الى الحشد ثم أطرق ثم عاد ينظر نظرة زائغة مضطربة.

كتم الناس أنفاسهم. قال حامد :

- يا لأمس ...

قال أحد الحراس :

- ارفع صوتك .

تنحنح حامد وشد قامته بعض الشيء ورفع صوته :

- بالأمس، وكنت في سجني، رحت في النوم و ...

تلعثم، سعل، ثم واصل :

- وأنا نائم بالأمس جاءني هاتف قال لي يا حامد يريد لك الله ...

توقف ومرت لحظات من الوجوم بدا فيها أن الرجل لم يعد لديه ما يقوله . أغمض عينيه . قال :

- يريد لك أن تتنصر وهذه إرادة الله ومشيئته .

ساد صمت مطبق حتى بدا المكان المكتظ بمئات البشر مهجوراً . اقتاد الحراس الثغرى بعيدا. وجفل الناس حين صدحت موسيقى الأرغن في لحن كنائسي تردد في أرجاء باحة المسجد .

قال سعد :

- بنا يا أبا جعفر، بنا يا أبا منصور، لنعد الى البيت.

التفت الى أبي جعفر فراعته دموع تنسال غزيرة من عينيه كأنه ولد صغير. كرر سعد وهو يحيط كتف أبي جعفر بذراعيه :

- قم بنا يا جدي .

ولكن أبا جعفر أومأ برأسه إيماءة خفيفة وأشار بيده لسعد الذى فهم أنه يريد البقاء .

دخل الحراس مرة أخرى ومعهم حامد الثغرى وقد فكوا قيوده. كانوا قد غسلوا وجهه وصففوا له شعره وألبسوه ثوبا من الحرير. مشى الثغرى باتجاه مقعد الكاردينال بخطى ثقيلة غير متزنة وكأنه مازال مقيدا. ركع عند قدمى خيمنيث الذى تناول كأس التعميد من يد أحد معاونيه. غمس أطراف أصابعه فى الكأس ونثر شيئا من مائه على رأس حامد وهو يتمتم بكلماته المقدسة، اختار حامد الثغرى لنفسه اسم جونزاليز فرنانديز زِجْرى.

لم يكن الناس قد أفاقوا من وقع المشهد ولا جرؤ أحد منهم بعد على استحضار تفاصيله والخوض فى أوجاعها عندما سرى الخبر همسا أن القشتاليين يداهمون المساجد والمدارس ويجمعون ما فيها من كتب ويأخذونها الى مكان غير معلوم .

طوال أسبوع شهدت حارة الوراقين نشاطا لم تعهده أبدا. تغلق الحوانيت فى النهار أوتظل مفتوحة ذراً للرماد فى العيون وبعد صلاة العشاء بساعتين أوثلاث تصحو الحارة للعمل. يحرس أبو منصور وثلاثة من صبيانه الحارة من جهة الحمام ونعيم وشابان آخران يحرسونها من الجهة الأخرى .

خلف الأبواب المواربة تضاء الشموع، فى كل حانوت شمعة تتحرك فى ضوئها المرتجف الشحيح الأشباح.

خزانات الكتب مفتوحة على مصراعيها والأيدى تمتد بحذر، منها وإليها. تنتفخ الأكياس وتمتلىء السلال والصناديق . والأشباح تُحمِّل واحدا كيسا فيمضى، وغيره سلة فيذهب، ويتعاون اثنان فى حمل صندوق ويغادران. وتمور الطريق المعتمة بخيالات صامتة محنية الظهر حدباء، أو كالاعواد مستقيمة يكلل هامة كل عود منها تاج هائل وغريب، أو أشكال غريبة كأسرّة عالية قوائمها تسير. تزدحم الحارة بالأشباح الصامتة تَلتقى أجسادها وأحمالها، أو تومىء بأطرافها فتبدو مخلوقات خرافية هائلة يختلقها فى الليل الخيال ومع صياح الديك تتبدد .

كان أبو جعفر قد اتفق مع زملائه فى حارة الورّاقين على نقل الكتب تحت جنح الليل إلى بيوتهم ثم نقلها بعد ذلك فى وضح النهار إلى المخابىء الدائمة فى عربات أو على ظهور البغال مموهة ببعض المنقولات وكأنهم يقصدون الموانىء راحلين أوينتقلون من بيت الى بيت. وقرروا أن يتم ذلك تدريجيا وبتنسيق وهدوء وحنكة لا تلفت أنظار السلطات . واستقر الرأى على توزيع الكتب على العديد من الأماكن: الكهوف فى الجبال، أطلال المنازل المهجورة وسراديب البيوت.

بعد أيام اكترى أبو جعفر عربتين وحملهما كتبه وبعض كتب لأصحابه وأركب زوجته وسليمة بغلة، وحسن وأمه بغلة، وركب ثالثة واتجهوا الى عين الدمع. وقصد أبو جعفر أن يعلن فى طريقه بداع وبلا داعٍ انه كره الحياة فى البيازين وما عاد يطيق أسراب المبشرين التى اجتاحت الحى كالجراد .

نزلوا فى بيت عين الدمع وأنزلوا منقولاتهم وصرفوا المكاريين والعربتين ونقلوا الكتب الى السرداب. وأشرعت أم جعفر النوافذ وانهمكت مع أم حسن تعاونهما سليمة فى تنظيف الدار كأنما ينوون الإقامة فيها .

شاركت سليمة جدتها وأمها العمل بعض ساعة ثم تعللت بأنها سمعت جدها يناديها وتركتهما ونزلت الى السرداب. وكانت جدتها تبتسم لأنها تعرف أن حفيدتها لا تطيق الأعمال المنزلية أما أمها فكانت تفكر فى الشىء نفسه ولكنها لم تبتسم إذ كانت خائفة .

ما ان مر أسبوعان حتى اكترى أبوجعفر ثلاثة بغال وعربة وعادوا الى البيازين. وكان هذه المرة أيضا يكرر على كل من يقابله فى الطريق: "قلت اذهب الى عين الدمع أقضى فيها آخر أيامى فلم أقدر ... لا غنى لى عن البيازين. ولدت فيها والله أعلم أننى سوف أموت فيها أيضا »

* * *

ما ان فتحت أم حسن الباب حتى اندفع نعيم الى داخل البيت لاهثا.

- أين أبو جعفر ؟
- ما الذى أصابك يا ولد، قل صباح الخير !

ولكن الولد كمن فقد عقله راح ينادى على أبى جعفر بأعلى صوته. أتى أبو جعفر مهرولا. قال نعيم :

- إنهم يكدسون ما استولوا عليه من كتب فى باب الرملة ... إنهم سيحرقون الكتب !

لبس أبو جعفر مركوبه وخرج مهرولا وراء نعيم. وجاءت سليمة تستفسر عن سبب الجلبة فكررت عليها أمها ما سمعته فركضت إلى صندوق ملابسها وفى دقائق كانت قد تهيأت للخروج .

- الى أين ؟
- سأذهب مع جدى .

ولم تنتظر لتسمع ما تقوله أمها إذ انطلقت كالسهم إلى باب الدار فلم تملك أمها إلا أن تنادى على حسن لكى يلحق بأخته .

التقوا جميعا عند رصيف حدرّه. كان النهر يتدفق بين شاطئيه وأعداد غفيرة ممن يعرفون ولا يعرفون تهرول بمحاذاته صامتة وصاخبة . عندما وصلوا قنطرة الدبّاغين انحنى النهر فى طريقه إلى شانيل وواصلوا طريقهم الى باب الرملة.

فى ساحة باب الرملة رأوا توافد العربات تجرها الثيران و البغال والحمير. تقترب العربة من مركز الساحة ثم يشد الحوذى اللجام فتتباطأ الدابة وتصرّ العجلات وتتوقف، يقوم ثلاثة من الحراس الجالسين فوق الكتب المكدسة فى العربة يشدون قاماتهم ويحركون أطرافهم لحظة كأنهم يتخلصون من خدر أصابهم من القعود طوال الطريق ثم يشرعون فى العمل: تنحنى جذوعهم وتختفى رءوسهم ثم تظهر الرءوس وتنتصب

الجذوع وتلقى الأيدى بحمولتها، وتعود القامات تنحنى والأيدى تقبض وتطوّح، وتتوالى الحركة فى اتصال وسرعة فتسقط على الأرض الكتب وترتطم ببعضها البعض مغلقة أو مفتوحة أو أشلاءً ومزقا تتطاير كأوراق الخريف فى الفضاء لحظة قبل أن تحط فى هدوء وتسكن .

تابعوا تساقط المصاحف الكبيرة والمصاحف الصغيرة تنفصل عنها أغلفتها الجلدية المزينة بالزخارف والخطوط، تابعوا المخطوطات المفروطة ، قديمها وجديدها، والأوراق المفردة تحمل نفس الكلام منثورا ومتتابعا سطرا بعد سطر أو منظوما فى كل سطر شطرتان .

كان الحراس يواصلون العمل وكانت سبع عربات أخرى قد وصلت للتو وكانت عربات سواها تقترب من الساحة اختلط صرير عجلاتها بأصوات ارتطام الكتب بتعليقات الأهالى المحتشدين بتهديدات المسلحين تأمرهم بعدم الاقتراب من الكتب .

كان أبو جعفر يحدق فى المشهد ثم يغض الطرف ثم يعود يحدق ويتمتم بكلام غير مفهوم لا يعى قبضة سليمة المشدودة على يده ولا أظافرها المغروسة فيها ولا صوتها وهو يعلو ملحا مكررا السؤال : « لن يحرقوا الكتب ياجدى، أليس كذلك؟ لايمكن أن يحرقوا الكتب ؟! » وسعد وحسن واجمان ونعيم يبكى ويمسح مخاطه فى كمه .

يقترب المزيد من العربات من الشمال والشرق والغرب، من جهة البيازين والمارستان ومن جهة الحمراء وغرناطة اليهود ومن جهة المدرسة والجامع الأعظم .

لم تطق سليمة المشهد قالت لجدها إنها لا تريد أن ترى شيئا وانسحبت راكضة. ولكن أبا جعفر كان يتشبث بقشة الغريق : فهل يُعقل أن يتخلى الله عن عباده! وإن تخلى فهل يمكن أن يترك كتابه يحترق ؟! كان أبو جعفر يتطلع الى السماء ويحدق وينتظر حين سمع شهقة الأهالى المحتشدين ورأى تصاعد الدخان.

كان بعض العسكر قد تفرقوا بين الكتب وراحوا يوقدون النار فيها ثم ينسحبون ركضا لتلافى اللهب الذى أخذ يمتد أفقيا ويعلو ويتصاعد. تلتهم النار الكتب، تفحم أطرافها، تجفف أوراقها، تلتف الورقة حول نفسها كأنما تدرأ النار عنها ولاجدوى فالنار تصيب وتأكل وتلتهم وتأتى عليها سطرا سطرا وورقة ورقة، وكتابا بعد كتاب. نار موقدة توجوج فى الساحة تستعر وتضطرم، تلهب العيون وتخنق بدخانها الصدور وأبو جعفر يحدق فيها مستريعا ويصرخ دون صوت: لم تكن غابة أضرمت النار فيها فطاشت فى أخضرها تلتهم الغصون والجذوع، لم تكن غُابة حملت الريح بذورها وسقتها أمطار السماء فنمت برية وشيطانية، ولم تكن كفحص غرناطة حقلا تعهّده الفلاحون عاما بعد عام حنطةً وتينا وزيتونا وليمونا وبرتقالا ليحترق أمام عيونهم فيقولون لا حول ولا قوة الا بالله ويشمرون عن سواعدهم ويحرثون الأرض ويتعهدونها فتكرمهم بحصاد جديد. لم تكن، ولكنها بدت لأبى جعفر كحقل أو غابة يحاصرها الموت تحوم عقبانه على رءوس الأشهاد وتتخاطف من الصدور القلوب .

قفل أبو جعفر عائدا إلى البيازين يبصر الأهالى

السائرين حوله ولايرى سوى النار المستعرة. يسعل ويحك جفنيه ويمشى ولا يعى سوى أن بابا مشرعا للرحمن عاش عمره موقنا بوجوده وقربه كان موصدا كجدار مصمت. توقف وقد انتابته نوبة سعال متصل كادت تخنقه.

عندما أعطى ظهره لحدره ليصعد التلة بدت له الطريق الجبلية الصاعدة صعبة لا يقدر عليها. كانت ساقاه واهنتين بالكاد تحملانه وكأنه يحمل جذع شجرة ثقيلة لا طاقة لإنسان على حملها. يصعد ثم يتوقف ثم يعود يصعد. تعثرت قدماه وسقط على وجهه، تفصد من أنفه خيط دم رفيع وانجرحت ركبته ، لم يلحظ ذلك. قام وواصل الصعود حتى وصل إلى ساحة مسجد البيازين الذى صار كنيسة سان سلفادور وقعد على مصطبة حجرية وظل جالسا بلا حراك حتى غروب الشمس.

قبل أن يأوى أبو جعفر إلى فراشه، فى تلك الليلة، قال لزوجته " سأموت عاريا ووحيدا لأن الله ليس له وجود!" ومات.

غسّل الرجال الجسد المديد العارى وقرأوا عليه الشهادة وكفنوه وحملوا على أكتافهم نعشه وصلوا عليه ثم أوصلوه إلى مثواه الأخير .

هبط أبو منصور وسعد ونعيم إلى الحفرة الغائرة واستقبلوا جثمانه بأيديهم المرفوعة وفى بطء ورفق وسّدوه الأرض وصعدوا ثم أهالوا التراب .

واكتظت دار أبي جعفر بالمعزيات من النساء اللائى جئن يشاركن أهل الدار حزنهم بالبكاء والحديث عن جميل صفات الفقيد وضرورة الصبر على قضاء الله الذى لا يُحمد على مكروه سواه. وحدها سليمة لم تبك ولم تبادل أيا من الجالسات الكلام. يقلن " لكل إنسان أجل " فهل كان هذا أجله حقا أم أن حرق الكتب هو الذى قتله ؟

تذهب المعزيات ويتوغل الليل وينام أهل الدار وتبقى سليمة فى فرشتها تحدق فى الظلام وتتساءل. هى أيضا لم تطق حرق الكتب وكان نعيم يبكى بحرقة وسعد وحسن مفزوعين امتقع وجهاهما ... ولكن جدها وحده هو الذى مات هكذا فجأة دون مرض ينذر أو يمهد . لم تكن قد بلغت الرابعة من عمرها حين مات أبوها. قبلها كان مريضا ويتعذب . تسأل :

– لماذا يئن ؟
– لأنه مريض .
– ومتى يطيب ؟
– عندما يأذن الله .

أذن الله ولكن بشىء آخر ... حملوه إلى قبره.

– أين ذهب ؟
– مات .
– ماذا يعنى " مات " ؟
– اختاره الله ليكون بجواره فى الجنة .

تخيلته وقد اختصه الله بمقعد عال الى جواره فى جنة أجمل من جنّات عين الدمع يكركر الماء فيها جاريا بين الأشجار السامقة والزهور على كل لون. هل تطلب من

الله أن يختارها هى أيضا فتذهب إليه لتعيش معه فى ذلك المكان الجميل أم تبقى مع جدها وجدتها وأمها وأخيها؟ أم تدعوه أن يأخذهم جميعا معا ؟ وماذا عن رفيقاتها اللائى يشاركنها اللعب ؟ لعله من الأفضل أن تبقى.

بعد سنة أو أكثر قليلا وجدت سحلية صغيرة فى فناء البيت. اقتربت منها فلم تهرب مدّت يدها وأمسكتها من ذيلها. كانت باردة ميتة حملتها إلى جدتها :

- هذه السحلية ميتة أليس كذلك ؟

شهقت جدتها قرفا ووبختها وطالبتها بأن تلقيها وتغسل يديها ولكنها ظلت فى مكانها.

- عندما تموت السحلية يا جدتى هل تصعد الى السماء ؟

تلجلجت جدتها ولم تحر جوابا .

ظل السؤال معلقا ثم نبتت فى رأسها أسئلة أخرى: ما نفع السحالى والخفافيش والعقارب، لماذا خلقها الله أصلا ولماذا يميتها بعد ذلك ؟

بعد شهور سألت جدها :

- عندما تموت العقارب والسحالى هل تذهب كالبشر إلى السماء ؟

جذبتها أمها بعيدا وقالت لها إنها تزعج جدها بأسئلة سخيفة وطلبت منها أن تخرج للعب مع رفيقاتها فى الحارة ..

وقفت عند باب الدار وهى تفكر انه من غير المعقول أن تذهب العقارب الميتة والسحالى والأفاعى إلى الجنة فتخيف الناس وتزعجهم . عادت ركضا الى جدها!

- جدى هل تذهب السحالى بعد الموت إلى الجنة أم الى النار ؟

- إلى النار .

- وما الذى فعلته لكى تذهب إلى النار ؟

- إنها تسبب الأذى للبشر ولذلك تدخل النار .

تركت جدها وخرجت إلى الحارة غير مقتنعة بما سمعته. غريب أن تذهب العقارب إلى الجنة وأغرب منها أن تذهب الى النار. ألم يخلقها الله عقارب قارصة مؤذية ... لم تختر ذلك فلماذا يعاقبها الله على مالم تختره ؟!

عادت تفكر فى جدها وفى النار المشتعلة فى أكوام الكتب فى ميدان باب الرملة، تغفو ثم تصحو فزعة، ثم تشعر باللهب يحاصرها فتفتح عينيها فتنتبه إلى أن جسدها يُرتجف بردا وأن أسنانها تصطك. دثروها بأغطية كثيرة وبدا لها وهى محمومة انها تلحق بجدها ...

يوم شفيت سليمة من الحمى التى أصابتها بكت أم حسن بحرقة لأنها أيقنت ان المرض ذهب بعقل ابنتها وسلامة إدراكها إذ فوجئت بالبنت تقوم من فرشتها وتغسل وجهها وتغير ملابسها وتقول إنها ذاهبة الى عين الدمع .

- نعم سأذهب إلى عين الدمع إن أردتم أن تأتوا معى تعالوا وإن لم ترغبوا فى ذلك أذهب وحدى !

حاولوا جميعا إقناعها بالعدول ولم يفلحوا فسايروها لعل إرضاءها يهدىء من اضطراب عقلها فيعود لاتزانه. اكتروا عربة ورافقوها إلى بيت عين الدمع. وما ان وصلوه حتى نزلت سليمة إلى القبو ونظفته وأعادت ترتيب الكتب التى فيه وأتت بورق وريشة ومحبرة وسجلت أسماء الكتب، تكتب اسم المؤلف وعنوان الكتاب ثم تنتقل إلى السطر التالى حتى سوّدت قائمة من عشر صفحات تحمل كل منها عناوين سبعة كتب ماعدا الورقة الأخيرة التى سجلت فيها ستة عناوين . وعندما انتهت أجلست حسن أمامها وأعطته الريشة والمحبرة و ورقا أبيض وراحت تملى عليه القائمة مرة أخرى.

- لماذا يا سليمة ؟

- أريد نسختين من القائمة !

-٦-

فى ساحة البنود التى تتفرع الطرقات منها إلى البيازين والقصبة الجديدة والقصبة القديمة فتاة تحمل سلتها وتمشى كباقى خلق الله . خرجت من بيتها لتشترى غرضا أو تزور دار عمة لها أو خالة . ذاهبة أو عائدة ، الله أعلم ، ولكنها كانت تمشى فى حالها لا يخفى غطاء رأسها جديلتها الطويلة ولا ثوبها الفضفاض قدها المشوق .

لمحت رجلين قشتاليين يقتربان فغضت الطرف وواصلت السير لتتجاوزهما أو يتجاوزاها . رفعت عينيها فبدا لها أنهما يحدقان فيها. تجاهلت نظراتهما وأسرعت الخطو. رفعت عينيها فبدا أنهما يقصدانها . ازدردت ريقها وتحيرت للحظة. ثم اندفعت تركض فى الاتجاه المعاكس . ركضا خلفها حتى لحقا بها .

– ما الذى تريدانه ؟
– ما اسمك ؟

لم تملك الركض ثانية . كان أحدهما قد طوقها بذراعه وأمسك الآخر بجديلتها ولفها كالحبل حول قبضته .

صاحت البنت طلبا للنجدة فانهالا عليها بالضرب. علا

صياحها وتواصل حتى وصل أسماع أربعة من الشباب اقتربوا راكضين. رآهم القشتاليون فتوالت صفعاتهم وأوسعا الفتاة ركلا بالأقدام حتى سقطت مغشيا عليها.

- هذا بلاسكو دى بارينويفو مفوض الشرطة .
- ومن ذلك الآخر ؟
- انه سالثيو خادم الكاردينال .

تعرف الشباب على الرجلين زادهم غضبا على غضب فاشتبكوا بهما فى مشاجرة استخدمت فيها القبضات والرءوس والأقدام. وفى حين حمل شابان الفتاة الى أقرب بيت وهما لا يعلمان إن كانت على قيد الحياة أم فارقتها كان الاثنان الآخران مشتبكين مع القشتاليين " الكلب سالثيو أفلت !" صاح أحد الشابين ملتفتا فركض الآخر وراءه واختفيا. تلقى الشاب الذى التفت وصاح لكمة من بلاسكو أدارت رأسه ومكنت غريمه من الإفلات. قام الشاب وانطلق راكضا وراءه وكاد يمسك به فى مدخل الحارة ولكنه قبل أن يفعل ألقى شخص حجرا من نافذة أحد البيوت على رأس بلاسكو فسقط على الأرض وفارقته الحياة .

فى ساعات معدودة كان الخبر قد انتشر فى البيازين كلها ومعه انفلت الغضب المكتوم فى الصدور. "والعمل ؟" "تُغلق الأبواب ! " .

تفرق الرجال شرقا وغربا، شمالا وجنوبا وأوصدوا الأبواب بمزاليجها الحديدية الضخمة ومن خلفها أقاموا المتاريس بالأخشاب والحدائد وأجسادهم. أغلقوا الأبواب

كلها الا بابا واحدا خرج منه الشباب المتجهون الى قصر الكاردينال بالقرب من الحمراء. خرج الحشد الكبير من باب البنود الى القصبة القديمة وعبروا نهر حدرّه مندفعين متوقدين. والحزن، الحزن الثقيل الذى ركب على أكتافهم وناءت تحت وطأته الرءوس وانقبضت القلوب اعتلوه ، وعلى صهوته انتصبت الجذوع وعلت الهامات وتألقت العيون ودفعت الأقدام بمهاميزها فراح يركض منفلتا كأنما قُدَّ من لهب .

وفى البيازين سهر الناس فى أمان الله الذى أضاء لهم طريقهم بنوره الربانى بدرا تماما فى السماء. فى البيوت أشعلت النساء كوانين النار والتنانير وأدرن الرحى وطحنّ الدقيق وخلطنه بالماء وذرّات الملح وبسسنه وكورنه وفردنه وخبزنه وصففنه فى سلال حملها الصبية والصبايا على رءوسهم وساروا بها فى حذر متقد تسبقهم رائحته الشهية الى الرجال الساهرين خلف المتاريس .

وكالنساء أشعل الحدادون نارهم وانهمكوا فى العمل ينفخون ويطرقون ويطوّعون ويشكلون، يصلحون ما أتلفه الدهر وأراد الرجال استعادته فى تلك الليلة. كان الرجال قد أخرجوا سيوف أجدادهم وخناجرهم والسكاكين ومسحوا الغبار عنها يصقلون الصالح منها ويرسلون الباقى الى الحدادين ليصححوا مقبضا مكسورا أو نصلا مائلا .

لم تنم فى الليل البيازين كأنها ليلة الرؤية تمور الأزقة فيها بصوت الصغار وركضهم وحديث الكبار

وفعلهم وتتقد البيوت بالشموع والقناديل وألق العيون فيسكن فى الليل النهار.

وقبل طلوع الفجر دار المنادى فى الناس معلنا أن مسجد البيازين هو مسجد البيازين فمن يريد صلاة الفجر فيه فأهلا به وسهلا. ومن يريد المشاركة في تدبير الأمر فليحرص على صلاة الفجر فيه .

لم ينتظر الناس صوت المؤذن، بل قصد المكان فقهاء ومدرسون وتجار وحرفيون ومحاربون قدامى وصبية لم تخط شواربهم بعد. التقوا عند الساحة المتاخمة للمسجد وراحوا يتحدثون واقفين أو سائرين أو جالسين مفترشين الأرض ثم انطلق صوت المؤذن رنانا ومجلجلا فدخلوا المسجد وضمّوا الصفوف وكبّروا خلف الإمام .

•

لم يكن إمامهم شيخ المسجد وكان من كبار الفقهاء الذين حملوا أمتعتهم وهاجروا بعد إعلان الاتفاقية بأيام قليلة بل أمهم نجار مسن يعرفه البْعض ولا يعرفه البعض الآخر .

عندما انتهت الصلاة قال الإمام :

- طلب منى أن أؤم صلاتكم هنا فى مسجد البيازين بعد أن أعاده الله لنا .

اختنق صوت الشيخ بالدموع، تنحنح ثم واصل :

- هذا شرف لى وليتنى له كفؤ .. يا أهل غرناطة والبيازين هذه مدينتنا نطعم حلوها ومرها وها هو ذا أمرنا اليوم بين أيدينا نفلح فى تدبيره بحسن التفكير

والمشورة أو لا نفلح فنجرع كأسا مرة ونعيش بحسرتنا حتى نموت فما قولكم يا أهل البيازين ؟

سادت لحظات من الصمت ثم قام الناس وعدلوا من جلستهم مستبدلين بصفوف الصلاة المتراصة دائرة تمكن الواحد من رؤية الآخرين .. وتمكن الآخرين من رؤيته .

امتد الحديث بالرجال من صلاة الفجر حتى صلاة الظهر. وكانت أم حسن فى الدار تدور كحيوان حبيس تحاول أم جعفر تهدئتها بلا طائل: - ذهب لصلاة الفجر وتأخر، يعود بعدها بساعة، بساعتين، لم يعد، أين ذهب ؟ !

كانت الظنون تتوالى فى رأسها فترجّح ظنا وتعود ترجّح آخر. هل ذهب ليعسكر مع الشباب خلف المتاريس ... وإن كان قدِ ذهب فكيف تأتى به ؟ هل تبحث عنه عند باب فحص اللوز في الشمال أم باب قشطر فى الجنوب أم تشرّق الى باب وادى العليا أم تتجه الى باب إلبيره فى الغرب ؟ هل ركب الولد رأسه وخرج من باب البنودْ مع الشباب ليحاصروا بيت الكاردينال ؟

كانت تبكي ولا تتوقف عن ترديد أن قلبها يحدثها أن مكروها أصاب الولد " وقلب الأم لا يكذب ! "

وكانت أم حسن تواصل البكاء وأم جعفر وسليمة كفتا عن الكلام بعد أن اكتشفتا أنه لا يجدى شيئا عندما دخل عليهن حسن وكان متورد الوجنتين باسم الوجه ينعكس انشراح صدره على طلعته ومشيته.

استقبلته أمه وكأنه عائد من السفر. لم ينتبه لأثر الدموع على وجهها ولا لاحتفائها الملهوف بعودته وأعلن بصوت مجلجل :

– اليوم فى مسجد البيازين تشكلت لنا حكومة مستقلة عن قشتالة اخترنا أربعين رجلا ليتولوا أمرنا وأمر إدارة البيازين .

لم يبد أن أم حسن أدركت ما يقال لا نشغالها بحزنها السابق على غياب ابنها وفرحها اللاحق بعودته، أما أم جعفر فبدا وجهها شاحبا متوجسا ولم تقل إلا " ليوفقكم الله ياولدى ولينصركم وهو على كل شىء قدير " .

كانت سليمة هى التى تتقافز توقدا للخبر وتطالب أخاها بالجلوس ليحكى لها ما حدث فى المسجد ولتستنطقه فيقص عليها التفاصيل فلاتفلت منها شاردة ولا واردة كأنما كانت تشارك الرجال جلستهم .

ولم يكن حسن قد أتم حديثه عندما جاءه نعيم وأخبره بأن الرجال الذين يحاصرون بيت الكاردينال قد عادوا فخرجا ركضا غير مبالين بالإجابة عن سؤال سليمة " لماذا عادوا ؟ " ولا بصياح أم حسن التى كانت تلح فى عدم خروج ابنها ولا تملك أن تمنعه .

عند باب البنود تحلّق الأهالى حول الشباب العائدين ليسمعوا ويسألوا :

– رجمنا بيته بالحجارة ولم نوفر مسبّة .

– ولِمَ لم تقتحموا عليه البيت ؟

- حاولنا ولكن الأبواب منيعة والبيت قلعة .
- والنوافذ ؟
- لم نُبق واحدة منها على حالها .. تحطم زجاجها وتساقطت الشظايا أمام عيوننا .
- لم يظهر الكلب ؟ !
- لم يظهر، بقى لا بدا كالخفاش فى وكره فقررنا محاصرة البيت حتى يخرج إلينا جوعا وعطشا .
- لماذا عدتم إذن وما الذى حدث ؟!

كانت القوات القشتالية قد أحاطت بهم .

- قوات كثيرة تفوقنا عددا وكانوا مسلحين ولم نكن ... رحنا نتشاور هل نقاتلهم ونحتسب أنفسنا عند الله شهداء أم هناك بديل آخر. عندها ظهر الكونت تانديا معتليا حصانه الأشهب المطهم. ترجل وقال بصوت عال " من يمثلكم فأتحدث معه ؟ " وجمنا فقد خرجنا معا ولم يكن بيننا قائد ومقود فلما أعاد السؤال تقدم أربعة من الشجاب اقتربوا منه واستمعوا اليه ثم عادوا إلينا وأخبرونا أنه يطلب رفع الحصار عن بيت الكاردينال فورا قال: " غدا أذهب بنفسى إلى البيازين وأتحدث مع زملائكم وأنهى المشكلة " قلنا إننا سنبقى حتى يذهب فإن أجاب زعماءنا واستجاب لمطالبهم نفك الحصار. ذهب الشباب إليه ثم عادوا إلينا ينقلون ما قاله " فكوا الحصار أولا وإلا قمنا بذلك بالقوة. ولستم سوى حشد صغير عار من أى سلاح. وهاهم جنودنا ، كما ترون ، راكبون وراجلون مسلحون كامل التسليح " تشاورنا ثم قررنا فك الحصار ... هل أخطأنا ؟

كان سعد الذى رافق الشباب إلى بيت الكاردينال هو الذى طرح السؤال " هل أخطأنا ؟ " لم يجب عن سؤاله أحد وإن كانت العيون قد جاوبت شكه بنظرتها الحائرة.

ساعتها تعالت صيحات الأولاد الذين اعتلوا الأسوار والأبراج يعلمون الناس بأن حملة من الفرسان القشتاليين تقترب من الأبواب. ساد التوتر وانهمك كل فيما يراه ضروريا من عمل. البعض يقوى المتاريس والبعض يعد سلاحه والبعض، كنعيم، يصعد الأسوار محملا بالحجارة والشتائم لكى يلقيها جميعا على رءوس أولاد الحرام الذين يريدون اقتحام الحى. وانهمرت الحجارة والسباب من كل مكان والفرسان الذين نجحوا فى اتقائها ووصلوا الى الأبواب وجدوها مغلقة محكمة الإغلاق فاستداروا بأحصنتهم وانسحبوا وسط صخب هائل اختلطت فيه صيحات الغضب وصيحات الابتهاج والسباب والبصقات بكلمات الحمدلله .

ليلة أخرى مستثارة قضتها البيازين موزعة بين السهر والنوم والعمل والسكون المنهك .

والأربعون الذين اختيروا لإدارة أمر البيازين لم تتح لهم فرصة للنوم أو التفكير فيه . كان عليهم التشاور فيما يقولونه للكونت تانديا ان جاءهم للتفاوض كما وعد، وفيما يفعلونه لو حاول الجنود اقتحام الحى وكان عليهم تنظيم الأمور المعيشية لمائة ألف نسمة هم سكان البيازين فيما لو دام الحصار، أسابيع أو شهورا ... هل يكفى الطحين؟ والطريق الى حدره مقطوعة فهل تفى

بالماء الأبيار ؟ وهل يتوجب تقنين مايستهلكه الأهالى ؟ وهل يتوجب تسريب رسائل أخرى الى الأهل فى الجبال ؟ وكيف يرسلون طلبات النجدة الى المغرب ومصر والسلطان بايزيد سلطان بنى عثمان ؟ وفى حالة اقتحام الجنود للحى واشتعال القتال هل يفتحون الأبواب الشمالية الغربية لتخرج النساء والأطفال والشيوخ ويحتموا بعيدا أم تقتضى الحكمة بقاءهم فى حماية الرجال المتمترسين خلف الأبواب ؟

فى اليوم التالى جاء الكونت تانديا والتقى مع حكومة الأربعين. قال:

– ثورتكم على ملكى البلاد تمرد لا تحمد عقباه .

قالوا :

– بنود المعاهدة التى وقعها الملكان والتزما بها خُرقت: تنصروننا قسرا وتحرقون كتبنا وتتعرضون لنسائنا.

قال :

– اهدأوا وارجعوا الى أعمالكم فنبحث فى مظالمكم .

قالوا :

– ليغادر خيمنيث غرناطة فهو الذى أمر بحرق الكتب وهو الذى أملى على الثغرى التنصر بعد تعذيبه لشهور طوال. انه أس البلاء، شرطنا أن يرحل !

قال :

– ان لم تفتحوا الأبواب سنقتحم البيازين عنوة .

قالوا :

– اطردوا خيمنيث والتزموا ببنود المعاهدة تفتح الأبواب .

اعتلى تانديا حصانه ومضى يتبعه حراسه من الفرسان وعم الناس ارتياح يمازجه شيء من زهو فقد بقيت أبوابهم مغلقة ومتاريسهم قائمة وكانوا قادرين على الاستمرار راغبين فيه .

استمرت المفاوضات عدة أيام جاء فيها الكونت وذهب ثم جاء وذهب ثم عاد فى صحبة الأسقف تالافيرا . مر الأسقف من باب البنود وهو يبتسم ابتسامته الأليفة ثم تبعه تانديا ورفع قلنسوته من على رأسه وطوحها فى الهواء فسرى الهمس بين الناس :" إنه يريد السلام .. " ركض صبى التقط قلنسوة الكونت الحمراء ورفعها إليه فابتسم الكونت وابتسم الصبى . تحدث حاكم غرناطة وكبير أساقفتها مع حكومة الاربعين ومع آخرين أيضا من التجار والفقهاء .

قال الكونت :

- لنعش معا فى سلام ... ولتكن هذة أزمة عابرة ، ما قمتم به ليس تمردا على ملكى قشتالة ... أردتم تنفيذ بنود المعاهدة وهذا ما نضمنه مستقبلا.

قالوا :

- ومن يضمن ؟

قال كبير الاساقفة :

- أنا أضمن .

قالوا :

- كيف ؟!

قال تانديا :

- لابد من توافر الثقة ...

سكت ثم واصل :
- سأجعل زوجتى وأولادى يسكنون هنا بينكم فى البيازين ... ألا يكفى هذا الضمان ؟! إذن اتفقنا ، اليوم تنتقل أسرتى للإقامة بينكم واليوم تفتحون الأبواب وتلقون بالأسلحة وتعودون لأعمالكم .

ذهب الكونت وحراسه وكبير الأساقفة وخُدَّامه وبقى الناس فى أماكنهم واجمين. وانتشر الخبر فى لحظات معدودة، حتى النساء اللاتى لم يخرجن من بيوتهن عرفن به وهن منحنيات على صغار يطعمنهم أو ملابس يغسلنها. هل يصدقون الكونت أم قلوبهم ؟ ولماذا لم تقل حكومة الأربعين شيئا ؟ وهل يمكن أن يضحى تانديا بزوجته وأولاده ؟ لابد أن الرجل صادق وقلوبهم تتطير بلا داع ... كذّبوها.

ورغم الاتفاق الذى أبرم والقصر المتروك المجاور لمسجد البيازين الذى أُشرعت أبوابه للشمس والهواء وشهدت قاعاته حركة محمومة استعدادا لاستقبال أسرة الكونت انسحب الألق من العيون وبدت الوجوه شاحبة مشدودة كوتر، لاتطلق حزنها ولاتُنحّيه، وراح الشباب يرفعون المتاريس من خلف الأبواب ويشدون المزاليج الكبيرة فيحدث صريرها العالى قشعريرة فى الروح، يدفعون بمناكبهم الأبواب لتنفتح فيزيدهم أزيزها توترا.

بدت الساعات ثقيلة والأيام كئيبة، فلماذا والأزمة حُلّت ورئيس الأساقفة الذى يقدرونه ضمن لهم حسن المعاملة والاحترام؟ ومن أين أتت تلك الغربان التى تنعق فتصبغ

الفضاء من حولهم بقتامة لونها ؟

كانت القلوب عنيدة فى تطيرها ولكن أهل البيازين كذّبوا قلوبهم واتهموها زورا ثم عادوا فعدلوا بعد أن نصفتها الأيام. طالب القشتاليون بدم بارينويفو فأطاعهم القاضى بتسليم قاتله . ولكنهم عادوا فألقوا القبض على ثلاثة غيره. وعُلِّقت المشانق وتدلّت على الملأ أجساد أربعة من الشباب. عرف الناس أن الضربة التالية ستوجه الى حكومة الأربعين. ثم انتشر خبر هربهم الى جبال البشرات. أدان البعض هروبهم ودافع البعض الآخر عنهم " هل كانوا ينتظرون أن تعقد حبال المشانق حول أعناقهم ؟! " نفر قليل لايتجاوز أصابع اليد الواحدة استبشروا خيرا وراحوا يحصون الأيام .

-٧-

بعد موت أبى جعفر انتقل سعد للعمل فى حمام أبى منصور أما نعيم فقد وجد عملا فى محل إسكافى علمه الحرفة فتعلمها وصنع مركوبا لسعد ولما سأله سعد لماذا لم يصنع زوجا لنفسه راوغ نعيم فى الإجابة ثم أقر بالحقيقة " لم يكن بإمكانى عمل زوج آخر دون أن يلاحظ معلمى نقصا فى الجلد والمسامير !"

كان الصديقان على عهدهما يلتقيان كل يوم، يجلسان بباب الحمام بعد إغلاقه أو باب الاسكافى أو يسيران معا فى الطرقات يثرثران.

كان سعد يسرف فى الحديث عن حبه لسليمة ورغبته فى طلبها للزواج وخوفه من رفض طلبه. وكان نعيم يستمع اليه دون أن يتحدث عن قلقه الذى كان يتزايد يوما بعد يوم . فى بداية الأمر كان يسخر من سعد وكان سعد يسخر منه. جعل الله له قلبا أخضر يتمايل كالغصن مع النسمة العابرة ثم رأى تلك الأسيرة فأخذت قلبه وذهبت الى أين؟ الله وحده يعلم. ذهبت وتركت طيفها يسكن يومه ولياليه. يسبها ويسب اليوم الذي رآها فيه

و يقسم أنه سيقع فى حب أول صبية تلمحها عيناه فلا يرى من الصبايا الا طيفها الذى يأتيه كما فى الصحو فى المنام، وسعد تأخر فى الحب ثم وقع وقعة لا يحسد عليها. تسمر أمام سليمة وكأنه بغل حرون لايرجع عنها ولايتزحزح وهاهو فى التاسعة عشرة وسعد فى العشرين ولو بقيا على هذه الحال سنوات أخرى لاكتهلا وماقبلت بهما صبية لها سن ضحوك .

- توكل على الله ياسعد وقل لأبى منصور يخطبها لك .

قال أبو منصور لسعد عندما فاتحه فى الأمر :

- وهل هذا وقت للنكاح والبذار. أقسم برب الكعبة أننى أقول لنفسى كل ليلة ليتك ما تزوجت ... لولم تكن لك زوجة تعولها لتحررت من قهرك بدب خنجر فى صدر قشتالى أو دب نفسك فى النهر فتريح وتستريح .

ولكنه بعد أسبوع وكان سعد منهمكا فى تنظيف الحمام قال :

- ذهبت الى بيت أبى جعفر وتحدثت مع حسن. سيجيبنى بعد يومين.

ظل سعد واقفا لايتحرك والمكنسة فى يده ثم كأنما سمع الكلام فجأة سقطت المكنسة من يده واندفع يقبل رأس أبى منصور وكتفيه ثم ركض كالممسوس الى حانوت الإسكافى .

كان نعيم منحنيا على السندان يثبت وجه سُباط جلدى فى نعله والمطرقة فى يده يدق بها. لم ينتبه لمقدم سعد

وجفل حين سمع صوته فسقطت المطرقة على إبهامه. صاح

- متى أتيت وماذا حدث ؟
- طلب لى أبو منصور يد سليمة !

قفز نعيم واقفا فسقطت المطرقة على قدمه. تأوه متألما ثم راح يضحك ويتراقص .

- سأرقص فى عرسك رقصا يذكره أهل الحى حتى عندما يشيخون ويفقدون ذاكرتهم !

" لوكان جدى أبوجعفر على قيد الحياة هل كان يقبل تزويج سليمة من سعد ؟ " كان السؤال هو أول مافكر فيه حسن بعد ذهاب أبى منصور. ستقول أمه " فقير معدم ولا يملك سوى قرش يومه ". ونحن ألم نعد أقرب الى الفقراء لا نملك الا قرش يومنا ؟ سعد شاب أصيل يصون سليمة فلم يرد طلبه ... وسليمة؟ توقف حسن كأنما واجهته معضلة. قد تفرح وترحب وقد تقول لا قاطعة مانعة لايملك معها أحد سوى الانصياع لها. لم يقدر أبدا على فهمها، وهى أخته التى لم يعرف صبية سواها، كثيرا ما تساءل هل هذا طبعها لأنها سليمة أم أن هكذا طباع الصبايا تستغلق على الفهم .

أسر حسن لجدته أول ما أسر. قالت :

لو وافقت سليمة فعلى بركة الله. هذا زمان صعب وسعد أصيل لن نصبح يوما لنجده قد غير جلده وصار خادما للقشتاليين.

- هل كان جدى يوافق ؟
- الله أعلم يا ولدى !

فى المساء جلس حسن وجدته مع أخته وأمه قال :

- اليوم جاءنى أبو منصور وطلب يد سليمة لسعد .

- سعد ؟!

بدا صوت أمه مستغربا لايخلو من استنكار .

- ما قولك يا أمى ؟

- ولماذا يطلب سليمة، إنه من مالقة فليبحث عن ابنة مهاجر من مدينته ويطلب يدها .

- أى كلام هذا يا أمى ... ما الذى يعيب سعدا ؟

- يعيبه فقره ويعيبه انه بلا أهل نعرفهم ونطمئن اليهم ويعيبه ...

قاطعها حسن :

- لا يعيبه شىء من ذلك !

- ويعيبه انه لا يملك حتى دارا يُسكن فيها عروسه .

ضحكت أم جعفر:

- هذا العيب الأخير لصالحك يا زينب ... لن تخرج ابنتك من الدار بل تبقى معك هى وزوجها.

قالت أم حسن :

- لم يكن جدك ليقبل به .

- جدى كان يحبه كأنه أنا ولقد قال لى يا حسن لو طلب سعد يد سليمة زوجها له .

- هل قال لك ذلك ؟!

- نعم قال !

قالت أم حسن :

- ولكن سليمة لن تقبل.

أجابت سليمة بسرعة وحسم :

- من قال لك ذلك ... لن أجد زوجا كسعد !

قضت سليمة وأمها وجدتها الليلة بلا نوم. كن يرقدن فى نفس القاعة على ثلاث فرشات متجاورة ورغم ذلك فان أيا منهن لم تتحدث مع سواها بل أبقت حديثها مفردا وداخليا .

كانت أم جعفر تعرف أن زوجها لم يقل لحسن إنه يريد سعدا لسليمة فلم يكن يشغله زواج البنت ولا كان يتعجله بل كأنه كان يتمنى فى ضميره أن يظل يعلمها بلا حد أونهاية، وكأنها ليست صبية مآلها إلى الزوج وخلف الأطفال. حسن يحب سعدا ويألفه ويريد أن يرتبط به بتزويجه أخته، لم يفاجئها لا ترحيب حسن ولا تحفظ أمه فلو جاء ابنتها أمير من عدوة المغرب يعتلى حصانا مُجنَّحا لقالت يعيبه أنه أمير ويعيبه أن قصره وراء البحر فهى لا تقدر على بعد ولديها ولا تهدأ ولاترتاح الا وهى تراهما أمام عينيها. تأوهت أم جعفر وهى تتقلب فى فرشتها: الصغار يكبرون ومن رحل رحل " ألف رحمة ونور عليك يا أبا جعفر " تشبثت بصورة زوجها لكى لا تداهمها صورة ذلك الآخر الأغلى الذى لم تتعود بعد كل تلك السنوات على مواجهة فقده ... ابنها أبو الولدين، الذى لم تقدر أبدا بعد ذهابه على النطق باسمه فما بالك باستحضار هيئته ورسمه .

وكانت سليمة كجدتها تتقلب فى فرشتها مؤرقة تسأل نفسها لماذا أجابتهم بهذا الحسم. لم تفكر قبل ذلك فى موضوع زواجها من سعد ولا من غيره. واستغربت طلبه الذى بدا لها غير مفهوم ولا متوقع. وعليها الآن أن تفكر فى كيفية التعامل مع هذا الطلب، ليس رفضه أو قبوله

بل تأمله قبل رفضه أو قبوله .. أن تصبح امرأة لرجل تطيعه وتخدمه وتحمل له أولاده ... لماذا ؟ حين بدأت أمها تعدد عيوب سعد فوجئت بنفسها تماما كما فوجئت بالطلب تقول " لن أجد زوجا كسعد ! " هل تبحث عن زوج أصلا لكى تجيب هذه الإجابة. يتعين عليها الآن التفكير فى هدوء. ولن تسقط السماء على الأرض إن أعلنت فى الصباح أنها لاتريد الزواج من سعد أو سواه. ولولا حديث أمها الذى استفزها لما قالته.

وكانت أمها فى فرشتها مثلها مضطربة قلقة. يبدو أنها نائمة ثم تنتبه إلى أنه صحو وليس مناما، تمر على مخيلتها أجزاء من مشاهد غير مكتملة وبعض صور وأطراف لحظات وكأن خطا انتظم العمر نتفا وشذرات: وجه زوجها المُلتحى، الصوت الأجش، عيناه الزرقاوان ونظرته الثاقبة، لفتة الرأس، رمشة جفنيه وهى تناوله سليمة بين ذراعيه يوم ولادتها. ملمس يده على بطنها وهى حبلى بحسن، صوتها ينتحب وظهر أبى جعفر يوم ولد حسن بعد رحيل أبيه. وسعد رثا وهزيلا يوم رأته للمرة الأولى وكلام أبى جعفر " ولد مسكين من مالقة فقد كل أهله ".

وافق حسن على تزويج أخته لسعد ولكن سعدا حين نقل له أبو منصور الخبر اضطرب وسرت فى بدنه رجفة يصاحبها شعور كأنه الخوف أو الحزن أو شىء آخر. واصل عمله فى صمت ثم سار فى الطرقات ليختلى بنفسه ويفهم ما ألَّم بها . ألا يريد سليمة؟ يريدها ويطلبها ويلح فى الطلب ويرى فى النعم واللا حياة الروح أو موتها.

وها هى النعم جاءته تحمل فرحا تاقت اليه نفسه سنوات متتالية . ولكنه كان بائسا يفتقد أباه ويفتقد أمه ويفتقد الصغيرة والبحر وحقل العنب ويفتقد الحكمة فى حكم السماء بأن يطرق باب عروسه عاريا ووحيدا .

جلس سعد تحت شجرة كستناء بّرية وأغلق عينيه فرأى الصبى الذى كانه يركض فى الوعر وقد خلّف وراءه بيتا كان عامرا بأمه وأبيه وجده وأخته، بيتا عاد قفرا فى مدينة هدّها الحصار والجوع وقذائف المدافع اللُمباردية. كان يركض من ذلك كله الى أين لا يدرى.فى النهار يشغله النهار ورغم الوحشة يقدر، ولكن حين يأتى المساء تتحول جبال مالقة الصخرية الجرداء بقممها وخوانقها ووديانها إلى مخلوقات مفزعة يكاد قلبه يتوقف هلعا من حضورها الطاغى. لا يجرؤ على الالتفات يمينا حتى لايرى تلك الحيوانات الهائلة يمتزج فى شكلها طول الأفاعى وظهور الجمال ورءوس البوم عملاقة تقترب منه تكاد تلمسه وتقبض. والقمر المعلّق فوق رأسه نحاسى أحمر وكبير يزيده فزعا على فزع، والفضاء من حوله عدو يطلب روحه، وهو يركض مذعورا يصرخ فيسمع صدى الصوت فيبتلع الصرخة التالية. يحدث نفسه همسا " قال أبوك كن رجلا يا سعد، لا تخف، لأن الرجال لا تخاف " يقول "تشجع يا سعد هذه جبال من حجر رأيتها فى وضح النهار، جبال جرداءلا تملك لك أذى" ولكن أسنانه تصطك وبدنه يرتجف ويتفصد عرقا . يجلس منكمشا يسند رأسه إلى ركبتيه المضمومتين يلف جذعه بذراعيه ثم يهده التعب فينام جالسا حتى توقظه شمس الصباح وتبدد بضوئها شيئا من مخاوف الليل.

قام سعد ومشى منهكا ببطء عائدا إلى الحمام. وجد نعيما مقرفصا بالباب ينتظره .

- أين كنت ؟

لم يجب .

- هل قالوا لا ؟
- قالوا نعم .

واحتار نعيم وهو يحدق فى وجه صاحبه ، وجهه يقول شيئا ولسانه يقول سواه فما الخبر ؟

- وافقوا أم لم يوافقوا ؟!
- وافقوا .
- وما الذى دهاك ؟
- لا أدرى !
- هل أحببت سواها ؟
- نعيم ... أنا لم أمزح .
- وهل أمزح أنا؟ !

سارا معا كان سعد صامتا فلم يجد نعيم بدا من الصمت ... لم يفهم صاحبه ولكنه كان قد وطّد نفسه فى سنوات صحبتهما الطويلة على قبول مثل تلك الحالات التى لايفهمها والتى يبدو فيها وكأن سعدا قد أغلق أبوابه بالمفتاح و القفل والمزلاج وقبع بالداخل زاهدا فى الخروج لايفتح لطارق حتى لوكان نعيما أو يفاجئه بالرغبة فى الخروج الى الطريق وحده "المكان خانق، يطبق على الأنفاس، أريد هواء نقيا " "أى هواء يا سعد، الثلج يغطى الطرقات والبرد يجمّد الأطراف؟ ولكنه يذهب كأنه لم يسمع. تَعود نعيم أن يترك صاحبه لحاله يوما أو بعض

يوم وينتظر حتى يعود سعد اليه يشرع أبوابه ويمتد جسر المودة والتواصل كأن شيئا لم يكن.

* * *

ما الهدية التى تليق بسليمة؟ سار سعد فى باحة المسجد الأعظم المزدحمة دوما بالباعة والشارين. تطلع إلى قوالب الصابون وقوارير العطور والحصر والسلال والقناديل والمشكاوات والصناديق الخشبية. تأمل صندوقا مطعما بالصدف والعاج فى أسفله صفان من الأدراج الصغيرة، وآخر أصغر منه حجما تزينه المسامير وتشكل رءوسها الحديدية المدورة خطوطا متوازية ومتقاطعة. حياه البائع ودعاه للشراء فرد سعد التحية وشكره ومضى. مرّ على أطقم الخيول والألجمة والركب وتطلع وهو عابر إلى القدور والأوانى الفخارية والمقصدرة والمزجّجة مختلفة الأشكال والأحجام والألوان ثم توقف أمام حانوت صفّ صاحبه أوانيه وقدوره وقواريره على بساط صوفى تداخلت ألوانه بألوانها فأضفت على المكان صخبا بهيجا يشد العين ويستأثر. رفع البائع آنية لازوردية نقشت عليها بمداد أسود لامع عبارات بالخط الكوفى قال:

– إنها متعة للناظرين، وهدية ثمينة ما رأيك ؟

شكره سعد وانحرف إلى درب الصيّاغ حيث شاهد المشغولات الذهبية والفضية الثقيلة والخفيفة والدقيقة. تأمل الأحجار الكريمة وطالت وقفته أمام قلادة من حلقات ذهبية متشابكة و واسطة العقد فيها حجر كريم أزرق

كقاع البحر عميق. تمتم " تليق بسليمة ذات العينين الزرقاوين" تطلع إليه البائع فانتبه سعد إلى أن وقفته طالت فابتعد درءا للحرج ما دام لا يستطيع شراء حلى.

اتجه إلى شارع السقاطين ومنه دخل سوق القيصرية مّر ببائعى الحرير وقد بسطوا الحرير الخام والمضفور والمنسوج. تطلع إليه أحد الباعة قال:

– حرير البشرات، يأتون لشرائه من جنوا ويطلبونه فى القاهرة وحتى فى دمشق !

– هل عندك حرير من مالقة ؟

ابتسم الرجل ابتسامة مشفقة

– وهل هذا سؤال يا ولدى ... ومن أين لنا بحرير مالقة وهل عاد فيها أحد منا ؟!

سار سعد مبتعدا دون أن يقول شيئا فما الذى يقال سوى الاعتذار عن القلب الذى يطلب فجأة ما لا يُنال ... قطعة حرير من نسج أبيه يحملها بين يديه فتهبّ عليه منها رائحة البحر وأمه ... غريب هذا القلب، غريب !

واصل السير فى أزقة القيصرية يدخل إلى زقاق يقوده إلى زقاق ينتهى به فى زقاق، يتطلع إلى مقاطع الرجال وأثواب النساء والمناديل والقلانس والنعال والسبابيط. غادر القيصرية وعاد إلى باحة المسجد الأعظم وظل يمشى حتى وصل إلى باعة المأكولات والحلوى والتين المجفف والجوز واللوز مكدسة فى سلال كبيرة معروضة على الشارين، تجاوزها.

ما الهدية التى تليق بسليمة ؟ كان يفكر وهو يمضى إلى الأرض الخلاء المتاخمة للسوق، فى جانب منها كان سوق الدواب معقودا. مشى اليه وراح يشاهد الخيول والبغال والحمير والخراف والماعز. كاد يدير ظهره ليعود أدراجه حين رآها.

هل استوقفه خدر العينين أم رجفة الجفنين؟ أم أنها النظرة الموزّعة بين الخوف والدعة؟ كان جلدها رقيقا يضرب بياضه إلى صفرة محمرة. جسمها صغير تحمله قوائم دقيقة.

- هل يمكن أن أحملها؟

حملها وشعر بجفلتها بين ذراعيه. "سآخذها" دفع للبائع الثمن الذى طلبه وذهب.

الظبية التى اشتراها لسليمة سعد، وحملها بين ذراعيه من السوق الى بيت أبى جعفر جعلت أم جعفر تضحك عاليا وطويلا حتى ترقرقت عيناها بالدموع. أما أم حسن فقد حدقت فى الظبية وقالت مواصلة حديثها السابق " ويعيبه أيضا انه مجنون !" ولكن سليمة التى فاجأتها الهدية اقتربت من الظبية ومدت يدها لتتحسسها فجفلت الظبية وجفلت سليمة، سحبت يدها. راحت تتطلع اليها، لا حظت العينين السوداوين الواسعتين وحركتهما القلقة " إنها خائفة" مرة أخرى مدت يدها ببطء حريص، لم تجفل الظبية وإن أحست سليمة برعشة فى الجسد وهى تتحسسه برفق. أتت لها بآنية صغيرة بها حليب وتربعت بجوارها وهى تشربه.

قضت سليمة بقية اليوم منشغلة بالظبية لاتتركها إلا لتأتى لها بطعام أو شراب وفى الليل دب خلاف بين سليمة وأمها لأن أمها أرادت أن تربط الظبية فى الباحة الخارجية للدار وأصرت سليمة أن تبقيها معها فى الحجرة التى تنام فيها. قالت أم حسن :

– وهل هذا عقل ... هل تنام البهيمة بجوار فراشنا ؟!

– أولا ليست بهيمة، ثانيا لو تركناها فى الباحة الخارجية قد تصاب بالبرد وقد ينقض عليها طير جارح .

أصرت أم حسن على رأيها وكذلك سليمة ولم ينه الخلاف إلا تدخل أم جعفر التى اقترحت أن تترك الظبية فى الرواق.

– بشرط أن تنظفى المكان فى الصباح.

قبلت سليمة وقبلت أمها وأوت كل الى فراشها. وعندما تأكد لسليمة أن أمها استغرقت فى النوم حملت فرشتها وتسللت الى خارج الحجرة:

– الى أين ؟

سألتها جدتها فأجابت :

– سأنام فى الرواق، الحر هنا خانق تصبحين على خير يا جدتى .

– تصبحين على خير .

قالتها أم جعفر وهى تغالب الضحك

* * *

قبل الفرح بأسبوع فاح العرس من دار أبى جعفر فسبقت رائحة الفطائر المقلية فى زيت الزيتون خطوات

نعيم وحسن إلى بيت الجيران والمعارف والأحباب. يحمل كل منهما متردا جلديا صُفّت عليه الفطائر مغمورة بعسل النحل ويوصله إلى بيت من بيوت الحارة ثم يعود ليحمل سواه.

وكانت أم جعفر وأم حسن وامرأة ثالثة من القريبات قد انهمكن منذ الفجر فى نخل الطحين وعجنه وتخميره وتقريصه ثم قليه فى ثلاث قلايات نحاسية لم تُرفع عن كانون النار منذ مطلع النهار حتى العصر، يغلى الزيت فيها تستوى فطائر فترفع منها وتصفى فى حين تستقر فى زيتها المقدوح فطائر غيرها.

وقبل العرس بيومين تحركت ثلاث عربات تجرها البغال من بيت أبى جعفر قاصدة " حمام الهنا " حاملة سليمة وأمها وجدتها ونسوة الحى وصغارهن وصبايا يقاربن سليمة فى العمر .

وبجوار النسوة صُفّت السلال والمناديل المصرورة على المناشف النظيفة والغيارات وأكياس التفريك واللوف والطاسات المكيّة والصابون وأوان وقوارير أودعت فيها النساء حاجتهن من الحناء والمسك وزيت اللوز وزيت الزيتون .

وكان الخروف المحشو الذى سوته أم جعفر فى الليلة السابقة مستقرا فى قدر نحاسى كبير محكم الإغلاق تعاون على حمله الى العربة اثنان من المكاريين الثلاثة .

ولم يفت الجارات إحضار الطبلة والدف ولا إعلان المحبة بصمنع فطائر شهية محلاة بالعسل ومحشوة بالجبن واليانسون أو بالجوز المطحون . ولا فاتهن حمل شراب الفاكهة اللائى ركزنه وحلّينه وعبأنه فى القنانى واحتفظن به شهورا فى انتظار المناسبات السعيدة .

دخل الموكب الحمام واختلط صخب صغاره بزغاريد النساء ودعواتهن بالسعد والأفراح . وضعن أحمالهن ورحن يخلعن ملابسهن ويأتزرن كل بمنشفة حول خصرها وأخرى على الكتفين ، تستر ولا تستر النهود العارية .

ثم انتقل الموكب الى المغطس وعلا صوت إحدى الجارات مذكرة أم حسن بما كان منذ أربعة عشر عاما يوم ولدت سليمة .

– حملتها بين ذراعي وضممتها إلى صدرى وقلت لك يأم حسن لو أمد الله فى عمرى أحممها يوم عرسها . . أتذكرين ؟!

لم تكن أم حسن تذكر شيئا من ذلك ولكنها قالت :

– طبعا أذكر .

أجلست الجارة سليمة أمامها وحلت لها ضفائرها وراحت تغترف بالطاس ماء ساخنا من الجرن وتصبه على رأسها .

زغردت النسوة وأمسكت إحداهن بالدف وانطلقت أهازيج الفرح تقطعها دعوات المسنات بطول العمر والخلف الصالح إن شاء الله ..وكان الصغار يرقصون مستثارين فتنهرهم الأمهات محذرات من سقوط

أحدهم فتنكسر ساقه أو ذراعه .

وبعد أن كَيست الجارة لسليمة جسدها وصبنت لها شعرها وجسدها وسكبت عليها الماء الساخن قالت لها قومى لأرى، فقامت . سحبت المرأة الإزار من حول خصرها فوجدت سليمة نفسها تقف بين النساء عارية تماما كما ولدتها أمها فداهمها الحياء وتضرج وجهها بحمرة الخجل وكادت تنتزع الإزار لتستتر به نفسها . ولكنها تحرجت من أن تبدو صغيرة وبلهاء فظلت واقفة بلا حراك موزعة بين الحياء والمكابرة .

صاحت امرأة " سبحان الخلاق ... عريسك مُسْعَد ياصبية ... أشهد لله انه مسعد " وكانت قطرات الماء وحبات العرق تنحدر على عنق سليمة يغطيه شعرها الأسود المجعد الكثيف ويلتمع بدنها الأسمر متوردا بفعل اللوفة والماء الساخن .. الثديان ناهضان مستديران صغيران والخصر نحيل والردفان بهما امتلاء طفيف تحملها ساقان مصبوبتان " سبحان منْ صور."علقت امرأة " بنا ياعروسة " قالت أخرى وهى تسحب سليمة إلى مقصورة إزالة الشعر .

وتَواصَل الغناء مصاحبا لانهماك النسوة فى تحميم صغارهن وبعضهن البعض وذلك الطقس الآخر الأكثر إنهاكا الذى يدور فى المقصورة مستورا عن العيون وكانت أم جعفر وأم حسن قد أجلتا حمامهما إلى بعد الغداء فانهمكت أم حسن فى إعداد الحنّاء، حنّاء وفيرة ملأت قصعة كبيرة تكفى الجميع وانشَغلت أم جعفر بترتيب

الأطعمة فى الوسطانى . وكانت كعادتها قلقة يشغلها توفيقها فى صنع الطعام الطيب وما يكفى ويفيض منه فتعلق أم حسن " وهل هى أول مرة تولمين فيها يا أم جعفر لا أطعم من أكلك ولا أوفر منه " وعلى ما فى الكلام من ثناء فلم يكن يهدأ لها بال الا بعد أن تأكل النسوة ويتأكد أن الأكل طيب ويكفى ويزيد . تراقبهن وهن يأكلن وتدور عليهن وعلى صغارهن تشدد الدعوة وتثنى وتثلث لا تقرب الأكل ولا يشبعها الا شبع ضيوفها وتثبتها من أن واجب الضيافة قد تم على أكمل وجه .

بعد الانتهاء من الطعام استراحت النساء بعض الوقت ثم عدن الى المغطس ليواصلن الحمام . وأعلنت أم جعفر بحسم: " سأحمم سليمة " صبّنت لها رأسها ثلاث مرات وليفت جسمها مرة ومرة ومرة وسكبت عليها الماء الوفير، جففتها ثم دهنت لها شعرها بزيت اللوز ودلّكت بدنها بالمسك وزيت الزيتون . وفى حين انهمكت يداها فى العمل كان وجهها يُشرق ويغيم وعيناها تتألقان لحظة وتترقرقان بالدمع لحظة وهى تنتقل من قطعة اللحم الصغيرة التى حملتها وليدة بين يديها الى الصبية البهية، الغالية ابنة الغالى .. ترى أبا جعفر فتتشبث بصورته كطفلة خائفة من طيف ذلك الآخر الذى لا تملك أبدا التحديق فيه الا وخذلتها نفسها فانسحبت روحها وبدا لها أنها تموت ..

– لماذا لا تغنين يا أم جعفر ؟!

– أغنى، سأغنى .

شاركتهن الغناء بصوت راجف .

– هات الحنة يا أم حسن .

صاحت احدى الجارات :
- أنا أحنيها !

واقتربت من القصعة واقتطعت بيدها اليسرى شيئا من العجينة اللينة الرطبة " قفى يا سليمة " وقفت سليمة وتربعت المرأة على الأرض وأخذت قدرا صغيرا من الحناء على طرف سبابتها اليمنى ورسمت بها فى حرص دقيق خطا يتمايل صاعدا من مفصل القدم ثم أخذت قدرا آخر وواصلت . أعادت الكرة حتى اكتمل الرسم زخرفا جميلا كالغصون المزهرة تزين حمرتة الدكناء الكاحل ووجه القدم " أقعدى ياسليمة " قعدت فحنت لها المرأة الكعبين وبطن القدمين ثم انهمكت فى تحنية الكفين وما إن أتمت المرأة مهمتها حتى علت الزغاريد مرة أخرى ثم أخذت النساء الواحدة بعد الأخرى يقتطعن من القصعة شيئا من الحناء ويتحنين والأكبر سنا اغترفن قدرا أكبر لصباغة شعورهن.

وظلت سليمة جالسة بلا حراك ويداها وقدماها مشرعة حتى يجف ماعليها من الحناء .. كانت تتطلع الى المكان تتأمله وتتأمل نفسها فتستغرب ولا تفهم تماما وتود لو كانت مع ظبيتها تتحسس رأسها أو تتابعها وهى تتحرك فى ألفة الدار بخفة ورشاقة.

*　*　*

كانت ليلة العرس صاخبة عم المدعوين فيها الفرح المستثار ليس فقط لأن هكذا سنة الأعراس ولكن أيضا لأن

الثورة التى اندلعت فى البشرات ونجاح الثوار فى الإيقاع بالقشتاليين والاستيلاء على بعض الحصون الواقعة على البحر فتح أبواب الأمل على مصاريعها : قد يصلون المَريّة وقد تمتد ثورتهم فيستعيدون غرناطة وقد يأتى المدد من مصر والمغرب وقد يلتقى المجاهدون والمنفيون القادمون على متن السفن بإخوانهم المقاتلين على الأرض.

كان الخوض فى حديث ثورة البشرات قد أصبح للأهالى خَمْرتَهم اليومية يقبلون عليها فى نهم ويسرفون فى تعاطيها فتسرى فى عروقهم جذلا ونشوة. لا يملون ترديد التفاصيل ولا الاستماع اليها كأنما هى تقاسيم عود أو غناء موشحة يزيدك ترددها طربا: .

صعدت خيول القشتاليين الطريق الجبلية الوعرة تحمل فرسانهم منتفخين زهوا وخيلاء كأنما النصر فى متناول اليد ليس عليهم سوى أن يلكزوا أحصنتهم إليه، لكزتان فى بطن الحصان فيصهل مندفعا الى القمة المنشودة. ثم انهمرت عليهم الحجارة من أعلى الجبل، سيل من الأحجار على رءوسهم فتساقطوا مع خيولهم وتدحرجوا الى الوادى السحيق ويامغيث ولا مغيث. يضحك الأهالى طربا ويردد أحدهم والابتسامة لم تفارق شفتيه " ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل. ألم يجعل كيدهم فى تضليل. وأرسل عليهم طيرا أبابيل. ترميهم بحجارة من سجيل. فجعلهم كعصف مأكول. "

وتانديا الأفعى جرّد حملة الى الجبل وجلس فى قصره

مغتبطا ينتظر أخبار اقتحام القرى فى حين كانت الشلالات تغرق فرسانه بماء القنوات التى فتحها الثوار من أعلى الجبل وكأنه الطوفان سلطه الله عليهم بلا نوح ولا سفينة.

كانت ضحكاتهم الحرة العالية تختلط بأهازيج النساء ونقر دفوفهن. وكانت أم جعفر وأم حسن وحسن ونعيم قد أعدوا فناء الدار لجلسة الرجال وفرشوا أرضها بالأبسطة والزرابى ثم رافق نعيم وحسن سعدا الى حمام أبى منصور الذى أصر أن يحمم العريس بنفسه " هذا حمام العمر يا ولد ! " يحك له ظهره وقفاه وهو يضحك كأنما أعادت له ثورة البشرات شخصه القديم لطيفا ظريفا ضحوكا مقبلا على الدنيا والناس محتفيا بوجوههم .

وفى العرس رقص أبو منصور على دق العود وصفقات الأيدى منتظمة الإيقاع. كان يحرك كتفيه ويشرع ذراعيه ويشد قامته ويتمايل بجذعه فيرتج كرشه فيضحك ويضحك الحاضرون. ويواصل الرقص عفيا مشرق الوجه جذلا كأنه العريس. والعريس سعد يسحبه أبو منصور ويملى عليه الرقص فيرقص متعثرا خجلا لا يلاحق أبا منصور فى خفة حركته وليونتها فيزداد تعثرا ويشعر بالدماء تصعد الى رأسه حياءً وخفرا كأنه صبية عليها أن ترقص أمام الرجال.

جلس سعد وجلس أبو منصور وقام عدد من الرجال يرقصون ويغنون وحمل بعضهم العصى وصار كل اثنين منهم يرقصان معا . يرفع الواحد منهما عصاه فوق رأسه أفقية ما بين يديه فينزل عليها بالعصى رفيقه. يقفز

عاليا فتقطع عصا الآخر الهواء تحت قدميه وواصلوا حتى التصقت مقاطعهم بأجسادهم من شدة العرق.

ثم قام نعيم وقال وهو يضحك: " افسحوا لى مكانا لأنى أريد أن أرقص وحدى" وغمز لسعد بعينه مذكرا بوعده له.

أشرع ذراعيه على امتدادهما وشد قامته وشب على أطراف أصابع قدميه ثم رفع قدمه اليسرى عن الأرض ودار بجسمه فجأة دورات متصلة سريعة خلعته من قبضة الأرض وأضاعت حدود جسمه الملتف مستطيلا فى دوامتها، ثم فجأة توقف فصفق الحضور وتعالت صيحاتهم إعجابا بافتتاحيته المدهشة ثم بدأ نعيم رقصته منمقة مرهفة ووئيدة فى آن كالتقاسيم تتتابع تعلو وتخفت يصاحبها إيقاع الأيدى المصفقة فى انتظام. ترتفع ذراعاه فتستطيل قامته المشدودة ثم يتمايل جذعه قليلا قليلا كأنه لا يتمايل ثم يدق الأرض بقدميه وينزل ببطء ذراعيه لا يلامسان ردفيه وينفخ صدره كقوس مشدود ثم ينطلق وتتسارع دقات الساقين والفخذين يعلو ويهبط ثم يعلو ويهبط تتابعه العيون ، محدقة وأنفاس مبهورة كأن فى الرقصة بيانا وفى البيان سحرا .

-٨-

قبل أن يستيقظ سعد وسليمة كانت أم جعفر وأم حسن أعدتا كل شيء: الماء الساخن لاستحمامهما وخبزا طازجا بكرتا فى عجنه وخبزه، ودجاجتين مغمورتين فى مرقهما هنيئا مريئا للعروسين، وأصنافا من الحلوى صنعت أم جعفر بعضها قبل العرس وأتى ضيوف الليلة السابقة ببعضها الآخر.

وما إن خرجت سليمة من الحجرة حتى رمقتها أم جعفر بنظرة سريعة فاحصة. كان وجهها متورداً وملامحها مستقرة. اطمأن قلب الجدة فصبحت على سليمة وقبلتها وانصرفت لمواصلة أشغالها.

وأكد اليومان التاليان مالحظته أم جعفر فعلقت وهى ترى العروسين هادئين متألقين: " يبدوان كفرخى حمام! " وقالت أم حسن لابنتها وهى تبتسم مداعبة: " لوكنت أعرف ان الزواج يجعلك هكذا وديعة لزوجتك يوم تعلمت الكلام! "

فما الذى حدث بعد ذلك ؟ لاحظت أم جعفر وجه سليمة الشاحب وجفنيها المنتفخين كأنما من أثر بكاء " يحدث

احياناً أن يختلف الزوجان ولكن هل يختلفان فى الأيام الأولى لزواجهما ؟ " أسرت بما يشغلها لأم حسن وقلبت معها الأمر على وجوهه .. تشاجرا ؟ أم يثقل عليها بما لاتطيق ؟ أم يعجز عن الإيفاء بما تطلب ؟ لو لم تر سعدا لقالت أساء إليها واستبد كبعض الأزواج الذين يظهرون القسوة لنسائهم منذ البداية ليضمنوا طاعتهن وانصياعهن ولكن سعدا بدا مرتبكا مثل سليمة ، شاحب الوجه زائغ العينين فما الذى حدث ؟ سألتها أمها :

- مابك يا سليمة ؟
- ليس بى شىء .
- هل اساء لك سعد ؟
- سعد ؟ !
- هل تشاجر معك ؟
- هل هذا كلام يا امى ؟ طبعاً لم يتشاجر معى !

تداولت أم جعفر و أم حسن فيما يتوجب عليهما فعله . فكرتا فى التحدث مع حسن فى الامر ثم عدلتا وبعد طول تفكير توصلتا الى حل قررتا أن تتقاسما تنفيذه . حين يدخل العروسان إلى مخدعهما ويغلقان الباب تقف أم جعفر خلف الباب وتصيخ السمع ولابد أنها تسمع شيئا مما يدور بينهما . وعندما تتعب ويثقل جفنيها النعاس توقظ أم حسن لتواصل المهمة وتأوى هى إلى فراشها . ونفذت أم جعفر وأم حسن خطتهما فتقاسمتا الليل متناوبتين على باب الحجرة ، كل منهما بدورها تلصق أذنها لصقاً فى الباب وتركز حواسها جميعا فى هذه الأذن.

وفى الصباح عندما اخذت أم جعفر حصتها المقررة من

النوم وقامت لتلتقى بكنتها المرابطة خلف الباب انسحبت أم حسن من موقعها وخرجت المرأتان بخفة وحرص الى الباحة لتتبادلا نتائج مهمتهماالليلية.

بدأت أم جعفر الحديث أولا مراعاة للسن ولتسلسل الأحداث . قالت :

- وقفت طويلا حتى كلت قدماى ولم يحدث شيء !
- ما الذى تعنينه بلم يحدث شيء ؟!
- لم يتشاجرا ، ولم أسمع صوت سعد يوبخها أو يعلو بالكلام ولا صوتها المعتاد وهى تجيب بحدة عندما يعاتبها أحد .
- كانا صامتين ؟!
- لاكانا يتحدثان بصوت منخفض كأنما يسرأحدهما بشيء للآخر ، بدا لى ذلك ولكنى لم أفسر شيئا من الكلام ولم أدر هل هو الباب الذى كان يحجب بغلظة خشبه الصوت عنى أم أنهما أذناى ضعف سمعهما .
- لم تسمعى أى صوت أخر ؟
- أبدا وكأنه لم يقربها كما يقرب الرجل امرأته !
- وأنا ايضا لم أسمع صوتا من هذا النوع !

بدا وجه أم حسن حائرا وهى تقرر أنها لم تعد تفهم شيئا .

- قلت لنفسى لابد أن ما حدث حدث أول الليل وسمعته أم جعفر وهما الآن يتصافيان ويتواصلان بحديث يطيب النفس ولكنهما قضيا أول الليل يتحدثان وآخره يتحدثان .. هذا مالا يمكن السكوت عليه .

وقررت أم حسن أن تنقل الأمر برمته لابنها لكى

يتصرف فى أمر هذا الشاب الذى زوجه لأخته . حاولت أم جعفر أن تثنيها ولكنها أصرت واتجهت الى حيث ينام ابنها وجلست مستنفرة أمام فراشه تنتظر استيقاظه لكى تحكى له ماتأكدت منه بعد طول سهر ومراقبة. ولكنها حين حكت لحسن وبخها وقال لها إن ما تقوله حديث نساء ناقصات عقلا " لمَ لا تتركين سعدا وسليمة فى حالهما يبدآن حياتهما بالشكل الذى يروق لهما؟ !" فزادها كلامه غيظا على غيظ !

لو أن أحدا قال لسليمة قبل يومين اثنين من وصول الظبية أنه سيكون لها ظبية تحبها كما تحب أمها وجدتها وحسن مجتمعين لضحكت منه ووصفته بالخبل. ولكن الظبية التى فاجأتها الى حد الدهشة والانبهار تسللت الى قلبها واستقرت فيه كأنما هو بيتها الذى سكنته دائما. كانت فى الليل تقيدها فى الرواق الشرقى وما إن يطلع النهار حتى تطلقها وتبدأ يومها مع سعد باطعامها وملاعبتها وتبادل حملها . وحين يذهب سعد الى عمله تقوم سليمة بما تلح عليها أمها من الأعمال المنزلية بعجلة ونفاد صبر وتنتهى بسرعة لكى تفرغ للظبية ولكتاب تقرؤه . تحمل الكتاب وتتربع على بساط فى باحة الدار تقرأ قليلا ثم ترفع عينيها تراقب ظبيتها وهى تتقافز أو تقف ساكنة. وأحيانا كانت الظبية تأتى من نفسها وتتمدد عند قدميها فتواصل سليمة القراءة فى الكتاب الذى تمسكه بيمناها وبيسراها تملّس على جسد الظبية المستكينة بالقرب منها.

عندما قالت " لن أجد زوجا كسعد " باتت ليلتها مؤرقة

بسبب تسرعها غير المفهوم. والآن، تسترجع مامر برأسها تلك الليلة فتبتسم للعبارة نفسها التى أقلقتها وتبدو لها الآن إلهاما إلهيا لانها حين قبلت سعدا اقتربت منه أكثر وعندما اقتربت أحبته.

فى الليلة الأولى أقبل عليها سعد باستحياء فأقبلت لاتدرى كيف والتقيا ولما التقيا لفتهما سكينة لم تعرف شيئا يماثلها، سكينة أطلقت فى داخلها فيضا من حنو ودعة وعذوبة لم تعهدها فى نفسها.

وفى الليلة الثالثة حكى سعد عن البحر والسفن الراسية والتى ترحل وتعود." ومالقة بين البحر والجبل، وعلى الجبل قصر وقلعة والقلعة عالية الجدران وبهية، ليست أكثر بهاء من قصبة الحمراء وقصورها ولكنها أكثر مهابة وجلالا تثير فى النفس شعورا غريبا كاختلاط الخوف بالأمان. ومالقة مدينة كبيرة كثيرة العمائر والبساتين والمدرجات الخضراء المغروسة بأشجار التين والزيتون والبرتقال وكرمات العنب والنخيل. هل راقبت يا سليمة انهمار المطر على حقل كروم؟ السحب فى السماء الغائمة تخفى الشمس إلا قدرا من الضوء شحيحا ينفذ إلى أوراق الكروم ويضرب فى أخضرها اليانع صفرة بهية تزيدها حبات المطر تألقا، كريات كالندى. كان الحقل قريبا من بيتنا، لم يكن لنا، ولكن كان ملاصقا للبيت فتملكه عيوننا أكثر من مالكيه

" أبى اسمه محمد عبدالعزيز الحريرى من أسرة توارثت نسج الحرير، كان طويلا منحوت القسمات وجهه

أسمر وشعره أجعد مثلى وكانت عيناه شديدتى السواد ثاقبتين تضفيان عليه حضورا وهيبة. وكان جدى يقيم معنا بالبيت، كان يشبه أبى وان جعلته الشيخوخة نحيلا يبدو أقصر من أبى. كان يطيل الصلاة ويحمل بين يديه مسبحته طوال اليوم حتى وهو لا يُسبِّح بها. يصيح فينا حين نسرف فى الصخب ولكنى لم أكن أخافه، لا أدرى لماذا لم أكن أخافه.

" أمى اسمها عائشة. كانت بيضاء، فى جسمها امتلاء، تميزها ضحكتها، تضحك فيصير وجهها وضاء شديد الجمال. وكان أبى ينسج لها قطعة من الحرير كل عام فتفصلها ثوبا ترتديه فى ليلة النصف من شعبان وأول رمضان وليلة القدر والعيدين وعندما تدعى لعرس من الأعراس. أتذكرها فى ثوبها الحريرى الأزرق وفى ثوب آخر كحلى به نقوش بيضاء .

"وكانت أختى نفيسة تصغرنى بأربع سنوات، تقول أمى " فطمتك فحملت بها " أتذكر وأنا أحملها وأهدهدها حتى تنام. وأتذكر خطواتها الأولى وهى تتعثر فى المشى، وأتذكر أننى كنت أحملها على ظهرى وأركض بها فى حقل الكروم وهى تضحك . "

كان وجه سعد شاحبا وكانت سليمة تغالب البكاء. لم ينتبها لطلوع الفجر ولم ينبهما صوت مؤذن اذ كان القشتاليون قد منعوا ذلك منذ زمن. غيَّر سعد ملابسه واستعد للذهاب الى عمله.

لم يكن سعد راغبا فى مواصلة الحكاية ولكن سليمة ألحّت فحكى على مدى ثلاث ليال تفاصيل كثيرة عن حصار مالقة ثم سقوطها فى نهاية المطاف بعد قصف مروع من البر والبحر. قال سعد: " كان القشتاليون يقصفون المدينة بكرات اللهب وكرات الرخام والمدافع اللمباردية التى يقتلك صوتها قبل أن تصلك قذائفها ثم اقتحمت قواتهم المدينة ووزعوا الأجراس والصلبان على المساجد وارتفعت بيارقهم على القلعة والأسوار وأبنيتها.

"بعد أيام عندما أعلنوا أن الملكين الكاثوليكيين قد أمرا بتوزيع حصص من القمح على الأهالى كان جدى قد مات جوعا أو قهرا وكانت نفيسة الصغيرة قد قتلها الجوع أو ربما الخوف. بكت أمى وكررت " ما نفع ذلك الآن ؟!" ولكنها ذهبت وعادت بحصتنا من الطحين وعجنته وخبزته وقالت لى " كل " فأكلت.

" فى أول الأمر قالوا إن بإمكان أهل المدينة أن يجمعوا مشتركين فدية لكل أهلها من المال والذهب والمتاع المنقول: ثلاثين دُبلة ذهبية عن كل رأس حتى وإن كان طفلا رضيعا. قيل إن بالمدينة خمسة عشر الفا من السكان فكيف لأهلها بجمع مايفتديهم جميعا؟ أرسلوا المراسيل الى غرناطة وقيل انهم طلبوا العون من المغرب .

"جمع القشتاليون ما استطاعوا جمعه من الأهالى ثم قالوا إن الفدية لم تكتمل وأعلنوا أن أهل مالقة جميعا صاروا عبيدا لملكى قشتالة وأراجون يتصرفان فيهم كيفما يريدان. وقرر الملكان تبادل الثلث مع أسراهم

المحتجزين في بلاد المغرب، وفرض على الثلث الشغل المؤبد لسداد ما تكبدته الخزانة القشتالية من تكاليف الحرب أما الثلث الباقي وأغلبه من النساء فقد خصص لاهدائه للبابا ونبلاء أوروبا وأفراد البلاط والمقاتلين، وكانت أمي من هذا الثلث الأخير.

" عندما أخذوا أمي كنت أصيح وأنتحب وألطم خدي. فعطف علي جندي قشتالي وربت على رأسي وجعل يسري عني ويحكي لي عن أولاد له في سني كنت في الثامنة قال " إبق معي ولن يمسك أحد بأذى، سآخذك اليهم وأربيك معهم " أمضيت معه شهرا في مالقة ثم ونحن في طريقنا، أقصد أنا وذلك الرجل، كان اسمه خوسيه بلانكو، الى حيث يقيم هربت منه " .

كانت سليمة تستمع الى حديث سعد وهي جالسة بجواره مقوسة الظهر قليلا رأسها مائل ويداها معقودتان على بطنها. كانت تشعر برجفة تسري في بدنها وألم في رأسها وتقلص في أحشائها ثم قفزت من على الفراش خشية أن تفرغ مافي جوفها وهي تهرول " سأذهب الى بيت الخلاء " اندفعت الى الباب وفتحته بسرعة فاصطدمت بأمها وصرخت كلتاهما في صوت واحد، ثم واصلت سليمة ركضها الى بيت الخلاء لتفرغ مافي أحشائها.

غلت لها جدتها أوراق النعناع مرتين ثم عادت وأعدت لها كأسا من منقوع البابونج الساخن، كان النهار قد انتصف قالت لها أمها وهي تتأملها:

- يبدو لى أنك أفضل الآن، وجهك أقل شحوبا ... هل تشعرين بأنك أفضل ؟

أجابتها سليمة وهى تحدق فيها :

- ما الذى كنت تفعلينه خلف الباب يا أمى ؟!

-٩-

رآها حسن فى الخان. كانت تمسك بصاجتين بأطراف أصابعها، تصاحب عزف ثلاثة رجال. رجل كبير يُنزل من كتفه الأيمن حزاما جلديا يقطع صدره وينتهى عند خاصرته بطبلة أسطوانية كبيرة يدق عليها بعصاتين خشبيتين صغيرتين، وشابان ينفخ كل منهما فى مزمار فتنتفخ وجناتهما ويصطبغ وجهاهما بالأحمر.

كانت الموسيقى بصخبها المحبب وانسيابها وتقاطعها هى أول ماشده فنظر فى اتجاههم، ولما نظر تعلقت عيناه بالبنت. قدر أنها فى الثانية عشرة من عمرها، أوالثالثة عشرة على الأكثر. صغيرة ونحيفة لم يتكور جسدها تكور الفتاة البالغة. وجهها خمرى وشعرها مموج أسود وملامحها مليحة وعادية كبنات كثيرات يراهن فى الأسواق فما الذى استوقفه اذن ؟ شىء ما فى عينيها أو وجهها أو كلها يفتح لك بابا فتدخل من الظلام إلى النور أو تخرج من عتمة سجنك الى الفضاء الرحب وتتعجب لانك لم تع أبدا وجود ذلك الباب الموصد عليك .. فما الذى حدث ؟ هل تكون البنت من بنات الغجر اللاتى يسحرن عقول الرجال فتملأ رءوسهم التهيؤات ؟!

تعلقت عيناه بها ولما غض الطرف عرف أن روحه هى التى تعلقت. غادر المكان فبقى طيفها يلازمه. كانت سمراء، كان واثقا من ذلك، سمراء، شعرهاأسود وعيناها سوداوان فمن أين أتت الألوان ؟! هل كان ثوبها فى لون الحناء على كفيها ؟ هل هى خضرة الوشم أسفل شفتها أم كان ثوبها أخضر ؟ أم هو وقع الصاجات وصخب الموسيقى تثير فى الخيال وهجا كزرقة اللهب ؟

لازمه الطيف وألح فقال أذهب الى الخان وأراها فتتبدد الألوان فأعود لحالى .

ذهب مرة ومرة، ذهب مرات، ينظر ويغض الطرف حتى يراهم يحملون آلاتهم ويغادرون الخان.

ثم ذهب وعزفوا ولما انتهوا توجه الى الرجل وقال :
- اسمى حسن تربيت فى بيت جدى أبى جعفر الورّاق رحمه الله، أعمل خطاطا وأتدرب على كتابة العقود لم يتلعثم، واصل ..
- إن كانت هذه الفتاة بنتك زوجها لى .

ارتعش جفنا الرجل ثم مد يده مصافحا .
- تفضل مع أهلك الى دارنا وإن شاء الله يصير خير .

ذهب حسن مع جدته وأمه وأخته وسعد . لم يكن البيت فقيرا كما توقع. كان بيتا عتيقا من تلك البيوت الكبيرة المتوارثة لأجيال عديدة تتوسط باحته نافورة ماء وتحيط به من جهات ثلاث عقود تفضى الى القاعات.

دخلت النساء الى حيث النساء ودخل حسن وسعد الى قاعة مفروشة بالأبسطة والزرابى التى لم يطُل قدمها الواضح جمال نقوشها وإن أفقد ألوانها رونقها الأصلى. ولم تكن الجدران عارية بل مكسوة بالمعلقات، سيف قديم فى غمده، نقش كتابة، خنجرين غمداهما من الفضة المشغولة، آية قرآنية مكتوبة بخط كوفى وبيرق قديم.

جلس حسن وسعد فى حضرة الرجل ورجلين يقاربانه فى السن، قال إن أحدهما أخوه والآخر ابن عمه، والشابين نافخى المزمار اللذين عرف حسن أنهما ابنا الرجل.

قدموا البرتقال والتين المجفف والتمر والزبيب. وكان حسن يدعو الله فى سره أن يفك عقدة لسانه وظل لسانه معقودا. تكلم سعد وتكلموا وتبسطوا وتبسط ثم توكلوا على الله وقرأوا الفاتحة.

قالت أمه معاتبة بعد عودتهم إلى البيت " لم تقل لى إن الرجل وأبناءه يعزفون فى الخان ! » تلعثم حسن ولم يجد ما يقوله. جدته هى التى قالت: لايعيب الرجل شىء. كان منشدا ينشد فى الأعياد والمواسم سيرة الحبيب وكراماته وبطولات ابن عمه. ثم جاء الشياطين إلى بلادنا ومنعوا الانشاد فهل كان يسرق أم ينشد لملوك الروم ؟! " ولكن أمه قالت " لا أدرى ما الذى أعجبك فيها إنها سمراء مخضرّة ونحيفة كالعود. ابنة الجيران أحلى منها ألف مرة فلم لا أطلبها لك ؟! " نظر حسن إلى أمه نظرة عاتبة وقال " لقد قرأنا الفاتحة يا أمى وما دار بيننا كان حديث رجال! ثم اننى أريد هذه الصبية بالذات " بدا على أم حسن

الامتعاض وقالت " يعز على أن تتزوج من ابنة طبال "
اكفهر وجه حسن وتدخلت أم جعفر لكى تنهى الحديث،
قالت " ما الذى دهاك يا زينب البنت لطيفة وخفيفة
الروح، وهى صغيرة لم يكتمل نموها بعد، عندما تزوجت
كنت أنحف منها ... مبروك يا حسن، إن شاء الله تكون
عروسك قدم السعد عليك وعلى الدار كلها، ألف مبروك "

بعد أسبوع عقد حسن على عروسه. وقام أستاذه الذى
يدربه على كتابة العقود بنسخ العقد .

" بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على سيدنا
محمد وعلى آله وأصحابه من المهاجرين والأنصار وأحبابه
وأوليائه أجمعين.

أما بعد فهذا كتاب نكاح سعيد انعقد بيمين الله
وبركاته وعلى منهاج الشرع الواضح بين حسن بن على بن
أبى جعفر الورّاق وبين البكر السعيدة مَريمة بنت أبى
ابراهيم على صداق قدره خمس دُبلات من الذّهب والدار
المتخلفة للزوج عن أبيه رحمه الله والواقعة بعين الدمع
خارج غرناطة المحروسة، وجميع أصول الزيتون وجميع
الكرم المغروس فى الأرض المحيطة بها، قبليّها دار أبى
محمد الشاطبى وجوفيّها منية أم السعد بنت طه المَسْعود
وشرقيّها لرضوان أبى خليل وغربيّها الجبل.

وعلى ماذُكر انعقد العقد وتم وكمل منه القصد . »

*　　*　　*

لمريمَة صندوق ألفته منذ درجت قدماها على الأرض وتعلمت الأسماء وعقلت معناها. كانت أمها تقول " هذا صندوق مريمة تحمله معها يوم تذهب الى دار زوجها " كان الصندوق لجدتها ورثته عن أمها عن سلسال من الجدات القديمات.

صندوق خشبى مستطيل عليه رسوم عصافير وزهور وغصون تميل منقوشة. بالبرتقالى والليمونى والفستقى والأخضر وحدة منمنمة من نقش عصفورين متشابهين متقابلين بينهما وردة تحيط بها وبهما الغصون. وحيث ينتهى قوس الجناح المضموم وطرف الذيل تبدأ وحدة منمنمة جديدة ذيل عصفورها يكاد يلامس ذيل عصفور الوحدة الأولى ثم يصعد مبتعدا مع قوس الظهر وينتهى برأسه المتطلع الى الناحية الأخرى حيث وردته وإلفه. وفى المثلث مقلوب الرأس الفاصل بين الوحدتين تكثر الفروع والأوراق ومنمنمات الزهور. تتكرر الوحدة كأنها نسج من الألوان المبسوطة على خلفية زيتونية زادها القدم دكنة وعمقا .

كان الصندوق كبيرا يمكن مريمة حتى سنوات قليلة مضت من أن تجلس فيه. تلح على أمها فلا تقبل الافيما ندر. تقفز مريمة داخله وتجلس متربعة فيه يشاركها قارورة لازوردية مملوءة بماء زمزم حملها جد من الأجداد الى امرأته وهو عائد من الحجاز، ومنديل مطرز، وجلالة من المخمل الكحلى المقصب، وقبقاب تتداخل فى خشبه البنى مربعات ومثلثات دقيقة من الصدف اللامع، ومكحلتان إحداهما صغيرة من الذهب الخالص على شكل طاووس دقيق والثانية من الفضة لها مرود مستدير من

غصون متفرعة، وحق من العاج، وحجر غريب وردى اللون مائل الى دكنة.

تجلس مريمة وهى فى الخامسة من عمرها تلمس الأشياء فى رفق كما أوصت أمها يزيد من سرورها وعيها بأن الجلوس فى الصندوق عزيز كالأعياد التى لا تأتى إلا بعد طول انتظار ولا يصح لغيرها من بنات الحارة. تحكى لهن وتسهب وتضيف مايعن لخيالها فيصدقن لأن أيا منهن لم يتح لها رؤية الصندوق إلا مغلقا بقفله الحديدى العتيق .

بعد أن طلبها حسن وقرأ الفاتحة مع أبيها أضيف لصندوق مريمة ثلاثة أثواب جديدة وسباطان جلديان ومنديل مرقوم وخمار وقميصان وأربعة سراويل وزوجان من الجوارب الثقيلة وملف صوفى. طوتهم أمها ووضعتهم بحرص مع الأشياء الأخرى وأضافت مصحفا صغيرا تتوسط غلافه الأخضر كلمتا " القرآن الكريم " داخل نجمة ثمانية محاطة بزخرف نباتى وكأنها قلادة ذهبية مستطيلة أودعت اطارا دقيقا من خطين ذهبيين تتداخل فيهما خضرة الغلاف بافريز من متتاليات مسدسة ومزخرفة.

الصندوق وسليمة وأهلها وبعض الجيران حملتهم جميعا عربة يجرها بغلان قويان قطعت بهم الطريق من غرناطة الى البيازين حيث كان حسن ينتظر وصول عروسه ضاويا ومتألقا .

وصلت العروس وتهللت الوجوه وعلت عبارات الترحيب والدعوات بالسعد والخيرات، ولكن واحدة من أهل البيت أو الجارات لم تطلق الزغاريد، ولا زغرودة واحدة. وكان هذا رأى أبى منصور الذى قال لسعد فنقله سعد لحسن. وافقه حسن وأبلغه لأمه وأخته وجدته فأعلمن به الجارات.

قال أبو منصور :

- ياسعد هل تقيمون عرسا فى بيت أبى جعفر وقرى البشرات تحترق وأهلها يذبحون بالمئات كل يوم ؟!

طأطأ سعد رأسه ولم يجد ما يقوله .

- هل تنطلق من بيت أبى جعفر الزغاريد والبشرات فى حداد ؟!

لم يكن أبو منصور غاضبا اذ كانت أيام الغضب قد ولّت. كان يجلس أمام باب الحمام ساهما ولا يتحدث الا لماما، يترك العمل فى الحمام الى معاونيه ويقول لسعد: «انت عاقل ومسئول فتصرف بما تراه لائقا» لم يكن يدخل الحمام الا لحظات ثم يخرج كأنما لم يعد يطيق الوجود فى مكان مغلق بسقف فوق الرأس وجدران من كل جانب .

حين نقل حسن الى أمه وجدته كلام أبى منصور الذى قاله له سعد قالت أمه :

- وما الذى يقوله أهل الصبية، عرس بلا طبل ولا زغاريد ؟!

وقالت جدته :

- سيأتى أهلها وجيرانها وأهل حارتنا فكيف نحييهم ونحتفى بهم ؟

قال حسن :

- اذبحى الخراف وأعدى طعاما مناسبا ولا داعى للزغاريد والأهازيج .

لا أم جعفر ولا أم حسن بدتا مقتنعتين بهذا الكلام وان نقلتاه لنساء الحى.

قال بعضهن : " أبو منصور على حق ... " وقال البعض الأخر: "لو لم نقم الأعراس وندفىء قلوبنا بشىء من الغناء تقتلنا الأحزان ! " وقالت أم جعفر " ولكننا سنفرح، سنجتمع ونشارك حسن فرحته ... لن نزغرد ولن نغنى ولكننا سنفرح ! " قالتها وقامت لكى لا ترى النساء الدموع المترقرقة فى عينيها والتى انسالت رغما عنها فأدارت ظهرها لهن.

وحده أبو ابراهيم كان يعرف أن عرس ابنته سيكون ليلة فريدة يظل يذكرها كل من شارك فيها من أهل غرناطة والبيازين. حين أخبره حسن برأى أبى منصور علق قائلا : " إنه على حق وياليت ماقاله قلته أنت أو أنا قبل أن يقوله هو " ولحظتها عقد عزمه وقرر أن يذهب القشتاليون الى الجحيم بقوانينهم وأوامرهم، سينشد فى عرس ابنته، ومع قراره أتاه ذلك اليقين انه حين ينشد سيأتى سحرا.

وفى يوم العرس جلس الرجال فى فناء الدار وانهمك سعد ونعيم وأخوة مريمة فى نقل الطعام وقنان ملأتها أم

جعفر بعصير اللوز. وبعد أن أكل المدعوون ورفع الشباب بقايا الطعام قال أبو ابراهيم : " تعال يا حسن أريدك أن تجلس هنا بجوارى " ثم رفع صوته أكثر وقال موجها حديثه للمدعوين : " انتبهوا لحظة فأنا أريد أن أقدم هذه الهدية الى زوج ابنتى. " صمت الرجال وتطلعوا الى أبى ابراهيم الذى لم يروا بين يديه شيئا .. فأين هى الهدية يا ترى ؟! ابتسم أبو ابراهيم ابتسامة عريضة قال : " أول ما نبدأ نصلى على النبى " .

خيم صمت مطبق واشرأبت الأعناق مستطلعة أمر هذه البداية غير المتوقعة لتقديم هدية.

ثم ارتفع الصوت منشدا :

لله در عصابة سارت بهم
نجب اللقاء بحضرة الرحمن
قطعوا زمانهم بذكر حبيبهم
وتحققوا بسرائر القرآن
ورثواالنبى الهاشمى المصطفى
من أشرف الأعراب من عدنان
ركبوا براق الحب فى حرم المنى
وسروا لقدس النور والبرهان
قرعوا سماء جسومهم فتفتحت
أبوابها فبدت لها عينان
عين تبسم ثغرها لما رأت
أبناءها فى جنة الرضوان
وشمالها عين تحدر دمعها
لما رأتهم فى لظى النيران*

ما الذى حدث ؟ ولماذا جفل الناس كأنهم حرّاثون فاجأهم انهمار السيل بعد انقطاعه سنين طوال ... ومن أين أتتهم تلك الرعشة التى سرت فى أبدانهم فراحوا يغالبونها فتزداد وجوههم امتقاعا ؟

واصل أبو أبراهيم انشاده عن " النبى الزين " ، " نور العيون " و " صفوة الرحمن "، " المصطفى الغالى "، " طه المكمّل من بنى عدنان " وهم واجمون لا يدرون إن كانوا قد وقعوا فى شرك الحنين أم أن إبليس من أعوان القشتاليين قد جاءهم متنكرا فى هيئة ملك من ملائكة السماء ... ولكن هذا بيت أبى جعفر فمن أين لابليس أن يطأه !

ثم بدأ أبو ابراهيم ينشد حكاية الملك المهلهل بن الفياض مع خالد بن الوليد. حكى عن الرسول وهو يصلى بالناس ثم يبكى وهو يعلمهم بأن عدوا قادما لقتالهم ومعه مائة ألف فارس وخمسون ألف راجل وأربعون ألفا من العبيد ... " ماذا تقولون ؟ "

قال أبو ابراهيم : " قال الصحابة :
" يا محمد نحن سيفك القاطع ورمحك الطائل وحجارتك الكاسرة وسهامك الجارحة وأفراسك الجارية، وسنضرب ونضرب حتى نموت بين يديك "*

وأرسل النبى صلوات الله عليه فى طلب خالد .
" - يا خالد ما منعك عنا؟ يا أخى خالد، ألم تسمع بلالا ينادى للصلاة الجامعة مع نبيكم يرحمكم الله ؟

فبكى خالد وبكى النبى لبكائه ثم قال :

- يا رسول الله، منذ ثلاثة أيام ولم توقد نار فى دارى ... ولدى ثلاثة أبناء وثلاث بنات ألعب معهم حتى يأخذهم النوم على شدة الجوع .

النساء اللائى أطللن برءوسهن من الأبواب على استحياء لم ينتبهن الى أقدامهن وهي تتقدم بهن خلسة، خطوة، خطوتين، ثلاثة، ثم تركز. وقفت النساء في رواق المشرقية المحيطة بالفناء، الجذوع ثابتة، الفروع تميل من حين لحين فيميل معها ظلها المديد، وفى ظلها المديد كان الرجال جالسين متربعين.

" من بين كل صحابته اصطفى الرسول خالد بن الوليد ليحمل رسالته الى المهلهل. قال النبى صلوات الله عليه :

- يا أخى خالد، اذا طلعت جبلا فاذكر الله، واذا مررت بواد فكبر الله واذا فطر الحزن قلبك فاتل من القرآن فإن القرآن شفاء للصدور المحزونة. و اذا بلغت هؤلاء القوم فلا يدخل قلبك الفزع ولا الخوف منهم.

ثم خرج خالد من باب المدينة، ولم يكف عن المسير الحثيث ليلا ولا نهارا حتى دخل فى أرض موحشة داخلها مفقود، والخارج منها مولود ... لا ماء فيها ولا زرع فوقع الجواد من شدة العطش والجوع ... قال خالد:

- يا جوادى يا صاحبى أتتركنى وحدى وتذهب ؟

تطلع اليه الجواد بعينين كسيرتين فربت خالد على رأسه وقلبه ثم وضع ثيابه فى حزامه، وحمل السرج على عاتقه وودع حصانه ومشى. سار مسافة فرسخين ثم لم تطاوعه نفسه وعاد فوجد الحصان مسبل العينين وطائر

الموت على رأسه، فقال :

– يا طائر الموت ألا تعلم أن معى كتابا من رسول الله ... ياطائر الموت دع حصانى واذهب ... ويا حصانى يا حصانى قم ...

فلم يتم كلمته حتى حلق طائر الموت مبتعدا ونهض الحصان على قوائمه وضرب الأرض بحوافره وتحرك فتبعه خالد على قدميه وظلا يسيران معا حتى وصلا جبلا شاهقا فصعدا بطيئا وبرفق حتى وصلا إلى قمته فشهدا فى أسفل الجبل واديا تظلله الأشجار وتجرى من تحته الأنهار فهبطا إليه رويدا رويدا وقال خالد :

– يا حصان كل من هذا فان الله من رزق.

فطعم الحصان وشرب فصح وصهل معافيا .

قال خالد :

– يا صاحبى يا حصان، احرسنى قليلا حتى أنام .

وخلع درعه وضم سيفه الى صدره وغشيه النعاس فنام. فوجد حصانه يضرب فى الأرض بحذافيره، فشعر به خالد فاستيقظ من نومه مذعورا فوضع رجليه فى الركاب وامتطى صهوة جواده حتى استوى على سرجه ... فرأى ألف فارس يتقدمون نحوه ... أطلقوا لخيولهم العنان، وأشرعوا فى أيديهم الرماح."

أنشد أبو ابراهيم عن لقاء الفارس بالفرسان، وسيوف بتارة تلتمع وثياب تخضبت بالأرجوان وحمحمة الخيول فى حومة الوغى .

قال أبو ابراهيم :
- ولكنهم اجتمعوا على خالد وأخذوه وأوثقوه بالحبال.

وقال الملك :
- خذو حصانه واذبحوه واسلخوه وضعوه فى جلده وأوثقوه الى هذه النخلة وأعدوا الحطب. غدا نحرقه فنحرق معه قلب أبى القاسم وركنا من أركان الحجاز.

وظل خالد على هذه الحال حتى إذا جن الليل رفع رأسه الى السماء ونظر إلى النجوم. ولما نامت العيون ولم يبق فى الثقلين سوى الحى الذى لاينام، هبت عليه نسمة من الغرب " راح يغنى ويقول :

ارتفع صوت أبو ابراهيم بالأغنية الحزينة وهم ينصتون اليه ويتطلعون لا يعرضون عنه طرفة عين. ما هذا الصوت ومن أين جاء ؟! كان الذى أمامهم رجلا مثلهم يمشى فى الأسواق ويسعى لإطعام عياله فما الذى فى صوته لكى تسرى روحهم هكذا إليه ؟!

العيون المستديرة ارتسمت صورة الصوت فيها، فهل للصوت رسم وهل فى الصوت ضوء ؟! كانت الوجوه كماء النهر تترجرج، مرايا متقابلة صقيلة تعكس ضوء الشمس وصورتها المعكوسة على صفحة بعضها البعض.

" علىّ هو الذى سمع الصوت وأتى لنجدة خالد. الفتى علىّ حمل سيفه ذا الفقار وركب حصانه السرحان وركض لنجدة خالد. تابع صوته حتى وصل اليه وهز النخلة.

فقال خالد :

– من ذا يهز مشنقتى ؟

قال علىّ :

– يا خالد إن الله مع المحزونين .

" وانتزع على النخلة من جذورها وتلقف خالد بين ذراعيه بزفق شديد حتى لا تؤذيه الأرض وأخرج سكينا كان معه وقطع حباله من أسره، وحمله الى النهر، ونظفه مما علق به من جلد الحصان ودمه، وتناول على ثوبا من ثيابه، وأخذ العصابة التى كان يعقدها على رأسه وشطرها نصفين وأعطى خالد نصفها وألبسه الثوب. وعندما أذن الله للصبح الطيب بأن يطلع صعد على وخالد الى ذروة الجبل وتجلى النهار وأشرقت الشمس وتحرك القوم وركب العدو اللعين والشيطان الرجيم فى خيله وقواده وجيشه، يتقدمهم ملكهم المهلهل. فأخذ على يضرب الجواد بالمهماز، وقفز عليهم كما يهبط العقاب من السماء وكشف عن علامته الهاشمية فقال له المهلهل :

– يا على ليس كل أبيض بردا ، ولا كل أسوْد فحما، ولا كل مايبدو أخضر ريحانا ولا كل حصان يدور فى الميدان .

يا على أنا الملك المهلهل بن الفياض، لم تلد النساء مثلى فإن أردت أن تنجو من الذعر أعطيك ما تنجو به .

قال على :

– ماتريد يا لعين الله ؟

قال المهلهل :

– ترجل عن حصانك وقبل ركابى وقدم لى التشريف العظيم بين أصحابى.

فقفز على الى حصانه وهو يصيح :

- يا حصانى يا سرحان استحلفك بالله أن تنطلق بخفة.

واستقر علىّ على صهوة الحصان ونقل السيف من اليمنى الى اليسرى ومد ذراعيه تحت إبط عدو الله ونزعه من السرج كما لو كان طائرا فى مخالب عقاب وقذفه على الأرض وضربه بسيفه ذى الفقار فقتله .

ثم عطف علىّ على خالد وهو يصيح " الله أكبر " فهجم كلاهما كأسدين ضاريين، علىّ من جانب وخالد من جانب آخر، وتساقط العلوج أكواما، ولم تزل الشمس من قبة السماء حتى لم يبق أحد منهم . "

انطلقت زغرودة مجلجلة ترددت فى أرجاء الدار، تطلعت عيون الرجال ودارت رءوس النساء، كانت أم جعفر بطولها المديد منزرعة فى قلب الفناء تزغرد .

-١٠-

يوما بعد يوم كان نعيم يزداد يقينا أن عين حسود أصابته إصابة من ذلك النوع قوى المفعول الذى يمتد أثره لسنوات طويلة وإلا فكيف يفسر أن تسرق قلبه صبية لا يعرف لها اسما ولا أصلا ولا دارا يدق بابها ويقول زوجونى ابنتكم ويمر عام وعامان وثلاثة وهو لا يرى فى وجوه البنات الا وجهها يقيم معه فى صحوه ومنامه ويعذبه بالغياب حتى يملأه الغيظ منها والحنق على نفسه ويقسم أيمانا مغلظة أن يتزوج ويقع اختياره على أول صبية صبوحة الوجه تمر بالحارة وفى اليوم نفسه يسأل عنها ويحسم أمره ويذهب مع سعد الى أبيها فيوافق فيقرأون الفاتحة ويهنىء نعيم نفسه قبل أن يهنئه الآخرو ن على العروس وزوال النحس معا ثم يأتيه أبو البنت ويقول :

- يا نعيم ، القشتاليون يضيقون علينا ويحملوننا مالا طاقة لنا به وأخى فى فاس قال لى تعال العمل متوافر والخير كثير .

- لاتحمل هما يا والدى، سأصون ابنتك وأكرمها، سافر بالسلامة وحين يفرجها الله تعود .

- سافر أنت معنا وليتمم الله بخير !

لا يقبل نعيم السفر فيحمل الرجل ابنته ويرحل ..

يحكى نعيم همه لأم جعفر فتقول له :

- سأجد لك عروسا أحلى منها.

- يا أم جعفر لا أريد لا أحلى منها ولا أقبح، أريد بنتا طيبة أتزوجها لأننى صرت كالبضاعة الراكدة والسنوات تمر وقد أجد نفسى كهلا بلا زوجة ولا أولاد.

تضحك أم جعفر لكلامه .

- اترك لى الأمر وسأزوجك صبية كالبدر التمام.

تبحث أم جعفر عن العروس المناسبة وتجدها وتحدثه عنها .. طولها وعرضها ووجهها وشعرها وخفة روحها فيذهب نعيم برفقة سعد وحسن لمقابلة والد العروس، وقبل كتابة العقد بيوم واحد تأتى أم العروس الى أم جعفر وتقول لها والدموع تملأ عينيها إن زوجها قرر أن يتنصر بعد قرار القشتاليين بمنع الاتصال بين مسلمى غرناطة وسكان المدن القشتالية الأخرى :

- انه مكارى ورزقه ورزق عياله يا أم جعفر فى تلك الحمولات التى ينقلها حماره من هنا وهناك. وعلينا الآن أن نتنصر جميعا، أقصد الأسرة كلها وإن أراد نعيم أن يتزوج ابنتنا فعليه هو أيضا أن يفعل ذلك.

حكت أم جعفر لنعيم :

- الحق أنها كانت تبكى ورغم أننى وبختها على قرار زوجها الا أن قلبى كان مشفقا عليها ذهبت المرأة بعد أن قلت لها إن نعيما لايفعل ذلك ولو وضعوا السكين على عنقه ، أليس كذلك يا نعيم ؟!

- طبعا يا ام جعفر .

ساعتها عرف نعيم أن حظه تعس وأن سوء الطالع قد يرافقه حتى ينحنى ظهره وتسقط أسنانه. تهون أم جعفر الأمر عليه :

- تأخرت صحيح ولكنك مازلت فى العشرين من عمرك!

- الثانية والعشرين يا أم جعفر !

لا يقول لها إن عينا أصابته وأنه فى الثالثة عشرة كان يحب كل أسبوع صبية جديدة. يتنهد متحسرا على حاله وهو يفكر: ترى عين من تلك التى أصابتنى؟! لو عرفت لطلبت من صاحبها ان يوجه مفعولها الى القشتاليين فمفعولها شديد ، شديد جداً !

كان سعد قد تزوج واختزلت لقاءاتهما اليومية الى لقاء واحد يتم كل أسبوع. سعد منشغل بعروسه وهى الآن حبلى وغدا تأتيه بالأطفال فينشغل أكثر، وحسن أيضا تزوج وصار له زوجة تشغله، وهو ؟ تشغله النعال التى ينحنى عليها طوال النهار وفى المساء يدور وحيدا فى الطرقات أو يجلس بباب الحانوت يفكر فى العين التى أصابته .

كان نعيم يجلس ضجرا بباب الحانوت حين رأى سعدا مقبلا عليه. لم يكن يوم لقائهما الأسبوعى. قفز نعيم متهللا وحيا صاحبه بصخب ثم ركض الى داخل الحانوت وجاء بعنقود من العنب وخمس حبات من التين وحفنة لوز وضعها أمام سعد مبتسما.

- اشتريتها اليوم كأن قلبى حدثنى أنك ستأتى

لزيارتى، تفضل كل يا سعد.

انتبه الى وجه سعد، كان هناك مايكدره .
- ما بك يا سعد ؟
- سليمة تضع مولودها بعد شهرين .
- أعرف .
- ربما أخطأت فى الزواج منها .

فتح نعيم عينيه فى استغراب ثم قال وعلى شفتيه شىء من بسمة:
- هل شربت من خمر أبى منصور ؟
- لم أشرب .
- تشاجرت مع سليمة ؟
- لم أتشاجر .
- ما الذى حدث إذن ؟
- ما الحكمة فى الزواج إن لم يكن المرء قادرا على إعالة أهل بيته؟
- هل قالت لك أم حسن ما ساءك ؟
- لقد جاءوا اليوم الى حمام أبى منصور وأغلقوه، وأغلقوا كل حمامات البيازين.

كان نعيم فاغرا فاهه ، لم يفهم كلام سعد .
- هل أنت متأكد ؟!
- قلت لك أغلقوا الحمام. جاء جنود وأخرجونا منه وأغلقوه وقالوا إن فتح أى حمام بعد اليوم تعرض صاحبه والعاملون فيه لأشد العقوبات !
- لماذا ؟

علت وجه سعد ابتسامة ساخرة مرة .

- يقولون إن الحمامات ضارة بالصحة وإنها عادة عربية سيئة وبلا معنى .

- وأين يتحمم الناس ؟

- ولماذا يتحممون، هل يتحمم أسيادهم القشتاليون ؟!

- ومادخل سليمة، هل تشاجرت معك بسبب إغلاق الحمام؟

- يا نعيم الله يرضى عليك ... لم أتشاجر مع سليمة ولا تشاجرت هى معى. أنا الآن بلا عمل، ألا يكفى أننى أقيم فى دار حسن؟ هل أقول له يا حسن أنفق على وعلى زوجتى وعلى طفلنا حين يأتى ؟!

- حسن أخوك ونعيم أخوك وستجد عملا .

مرت لحظات صمت قطعها نعيم وهو يقول كأنما لنفسه:

- أولاد الكلب ... يغلقون الحمام، أين نتحمم إذن ؟!

عادا للسكوت بدا كل منشغلا بما فى رأسه حتى قال نعيم وهو يلتقط حبة عنب ويضعها فى فمه .

- غدا تعال عندى، ما إن يطلع الفجر تعال، سأعلمك بعض الأشياء التى أقوم بها، ثلاثة أيام أو أربعة وتتقن كل ما أقوم به ثم نسأل معلمى أن يشغلك معه. سيغضبه خبر إغلاق الحمامات وقد يرق قلبه ويعطيك عملا. طبعا سيسألك " هل عملت اسكافيا من قبل ؟ " قل له عملت عدة سنوات قبل أن أنتقل للعمل فى حمام أبى منصور سيقول لك أين ومع من ؟ قل له فى مالقة سيقول لك أرنى كيف تعمل فتريه ما علمته لك، ما رأيك ؟

ذهب سعد وراح نعيم يتأمل ذلك الأمر العجيب بإغلاق الحمامات. أن يقاتلك عدوك أمر مفهوم ولكن ما الحكمة فى إغلاق حمام أو إجبار الأهالى على التنصر ؟ القشتاليون قوم غريبون مختلو العقول على ما يبدو ولكن ما السبب فى اختلال عقولهم ؟ ألم تلدهم أمهاتهم أطفالا أصحاء عاديين مثل باقى الخلق ؟ كيف تفسد عقولهم فيأتون بهذه الأفعال الغريبة؟ فكر نعيم فى ذلك ولم يجد إجابة شافية . لعله البرد القارس فى الشمال يجمد جزءا من رءوسهم فلا يسرى الدم فيه فيموت أو يفسد أوربما هو لحم الخنزير الذى يسرفون فى أكله يصيب بالخبل ؟

ورغم قلق نعيم من أمر إغلاق الحمامات وفقد سعد لعمله إلا أن شيئا بداخله كان يتعجل الغد يكاد ، لولا الحياء، يعلن السرور لامكانية أن يعمل سعد معه فى الحانوت فيعودان كما كانا يلتقيان كل يوم ويتحدثان بلا انقطاع كعهدهما القديم .

ما إن استقر نعيم على فراشه حتى استغرق فى نوم هادىء ولم يستيقظ إلا حين سمع دقا على الباب فإذا بالفجر طالع وسعد أمامه وقد جاءه حسب اتفاقهما فى الليلة السابقة .

- معلمى لا يأتى قبل الضحى. أمامنا متسع من الوقت. احك لى أخبارك أولا ثم نبدأ فى العمل ...

ابتسم سعد وهو يتطلع إلى نعيم الذى انتبه أن صاحبه تركه فى ساعة متأخرة من الليل فمن أين الأخبار الجديدة

ولكنه قال مبررا كلامه:

– قصدت أن أسالك هل التقيت أحدا وأنت عائد من عندى؟ هل لقيتك أم حسن بتعليق سخيف من تعليقاتها؟ هل حلمت بشىء هذه الليلة أم كان نومك عميقا بلا أحلام؟ طبعا هناك دائما جديد !

ضحك سعد فضحك نعيم ثم قاما للعمل .

* * *

أم حسن لاتكف عن إعلان تبرمها من كنتها وتقول لأم جعفر :

– النساء يزوجن أبناءهن فتأتى الكنّات ويحملن العبء كله .. وهذه مريمة بلهاء لاتتقن شيئاً !

فتقول لها أم جعفر :

– إنها صغيرة يا زينب علميها فتتعلم !

– وكيف لى أن أعلمها وهى لا تأتى لتقف معى وأنا أطبخ ولا تسرع لأخذ المكنسة من يدى وهى ترانى منحنية أقش الدار .

فتضحك أم جعفر وهى تشير الى أن سليمة لا تفعل ذلك وأن مريمة، رغم أنها أصغر، تسمع على الأقل الكلام وتجيب إن طلب شىء منها. أما سليمة فتتبرم أو تختلق لنفسها عملا آخر وتقول : ليس بإمكانى أن أقوم بعملين فى وقت واحد !

– انهما صغيرتان والحمل يثقلهما، ستعلمهما الأيام والأطفال أيضا.

ولكن أم حسن تواصل شكواها من مريمة دون سليمة فتضحك أم جعفر وتكرر أن الحماة هى الحماة لا تقبل كنتها وإن كانت كعكة بالسكر... " هكذا كل الحماوات الا أنا ! "

تدافع أم حسن عن نفسها وتعزز دفاعها بانها لم تر أبدا امرأة يقوم زوجها من نومه ويذهب الى عمله وهى بعد نائمة فى فراشها وتقضى النهار بعد ذلك وهى تثرثر، فتكرر أم جعفر فى عناد :
– ابنتك مثلها تماما، كأنما ولدتا من نفس البطن، فلماذا تلومين الواحدة دون الأخرى ؟!

لم تكن أم حسن تقارن مريمة بسليمة بل بنفسها فتتيقن ان ابنها خانه الحظ فى الزواج من صبية ماهرة نشيطة فى تدبير أمور بيته . أم جعفر تدافع عنها تقول صغيرة ولكن الصغير يتعلم، يتبع الكبير ويقلده ويستفيد من معرفته وهذه المريمة خرقاء بلداء لاتريد أن تتعلم شيئا. كانت فى سنها حين تزوجت ولكنها كانت حريصة على كسب ثقة حماتها وإعجابها. كانت تتبعها كظلها وتراقبها وتحاكيها وتبذل كل جهدها فى قش الدار ومسحها، فى غسل الملابس وفى دعك القدور النحاسية المقصدرة حتى تصير لامعة كالمرايا.

وفى المطبخ تقف بالقرب من أم جعفر أوتجلس بجوارها لاتغفل عيناها لحظة عن متابعة الطريقة التى تعد بها حماتها الكسكس والمرقة الحلوة والثريد والفطائر. حتى عندما كانت تعرف طرقا أخرى لإعداد الطعام تعلمتها

من أمها وعماتها كانت تنتبه للطرق الجديدة لكى تتعلمها ولم تمض شهور معدودة حتى صارت أم جعفر تعتمد عليها فى إعداد الكثير من الأطعمة. كانت فى سن مريمة عندما أصبحت تتقن حفظ اللحم بتقديده وأمعاء الخراف بحشوها والسمك بتمليحه والزيتون و الليمون والباذنجان بتخليلها وتتقن صنع أنواع الفطائر و الجبن و المعجون والشراب وغيرها مما لا تخلو منه دار عامرة بالآكلين من أهلها ومن الضيوف .

قبل أيام انتبهت إلى أن الغسول الذى يفركون به أيديهم بعد الأكل كاد ينفد فنادت مريمة وطلبت منها أن تعد قدرا جديدا منه. لم تطلب منها أن تحشو خروفا ولا أن توقد نارا ولا أن تعجن وتخبز. طلبت منها أن تعد غسولا لا أكثر ولا أقل. قالت لها مريمة " صفيه لى فأعده " فاستعجبت من جهل الصبية ولكنها تحلت بطول البال وقالت " تخلطين ثمار النبق بالزعتر الجاف وأوراق الورد وأوراق الليمون الجافة وتضيفين لها بعض مسحوق خشب الصندل وقدرا من مسحوق جوزة الطيب، هذا هو كل المطلوب " ذهبت مريمة الى المطبخ. وجاءت إليها اكثر من عشر مرات ؛ مرة تسأل عن مكان الزعتر الجاف ومرة عن مكان المهراس لكى تطحن ما يجب طحنه ومرة تسأل عن المقادير. وعندما قامت الى المطبخ لترى الغسول الذى أعدته كنتها قلبت شفتها امتعاضا وقرفا وكادت تلقى به لولا أم جعفر التى رجتها ألاتكسر بخاطر البنت. ماذا لو كانت طلبت منها ان تعد وجبة من الكسكس ؟! لوفعلت لجاءتها البنت بعجين مخبوص فى لحم نيىء ... لا تدرى ما الذى أعجب حسن فى تلك البنت، لا هى جميلة ولا ماهرة

ولا تتقن سوى الثرثرة مع سليمة !

كانت العلاقة بين سليمة ومريمة سلسة تتعمق يوما بعد يوم يعززها أن سليمة التى كانت تكبر زوجة أخيها بثلاث سنوات تقوم بدور الأكبر. وكانت مريمة عذبة لطيفة تتقبل ذلك ولا ترى فيه غضاضة وكانت تشعر باحترام بل هيبة أمام قدرة سليمة أن تفتح كتابا وتحدق فيه وتفك طلاسمه وتتفضل عليها بالحديث عمافيه. وزاد شعور مريمة بالمحبة لسليمة حين اقترحت عليها يوما أن تعلمها القرءاة والكتابة .

- وهل أصلح ؟
- ولماذا لا تصلحين ؟!
وعلقت أم حسن :
- لم يكن ينقصنا الا هذا !

زاد على خديث البنتين معا وثرثرتهما التى لا تنتهى تلك الجلسات اليومية التى تمسك فيها مريمة باللوح وتجلس سليمة أمامها وتملى عليها الحروف والكلمات ثم تصححها لها.

وأم جعفر وأم حسن تعدان الطعام وتنظفان الدار وتغسلان ما اتسخ من الثياب والبنتان جالستان فى مكانهما بلا حراك حتى عندما لا تتحدثان أو تدرسان تجلسان متجاورتين ، سليمة تقرأ فى كتاب من كتبها ومريمة تطرز أقمطة لوليدها ووليد سليمة القادمين.

* * *

تحدث نعيم مع معلمه، قال :

– صديقى إسكافى ممتاز. تعلم الصنعة فى مالقة ثم جاء إلى غرناطة وعمل مع اسكافى كبير ثم وجد أن معلمه يجارى القشتاليين ويصاحبهم فأفضى بهمّه الى أبى منصور وانت تعرف أبا منصور لا يقبل الحال المائل. قال له تعال أعمل معى فى الحمام واترك هذا الوغد.

– مسكين أبو منصور أغلقوا حمامه !

– أقول يا معلمى، أخشى أن يذهب صديقى للعمل فى محل الاسكافى الذى فى الحارة المجاورة فتنافس بضاعته بضاعتنا .

ظل معلمه صامتا فلم يجد نعيم بدا من الحديث مباشرة فى الموضوع.

– أقول يا معلمى، لِمَ لا تطلب من سعد أن يعمل معنا ؟

– ليس بمقدورى أن أدفع أجرا لعاملين ثم أن العمل ليس كثيرا الى هذا الحد .

الثعلب الماكر. كل أهل الحارة يعرفون أنه من شدة تقتيره ادخر ذهبا كثيرا ويقولون إنه أخفاه فى داره فى ثلاث جرار. هل يقول له إن العمل كثير وإنه لم يعد قادرا على القيام به وحده ؟

– والله يا معلمى إن العمل والحمد لله كثير لوكنا اثنين نتقنه أكثر.

- ليس فى مقدورى دفع أجر لاثنين !

لا فائدة ... ليطرق بابا جديدا :

- دعنى أقل لك الحقيقة يا معلمى ... لم اللف والدوران وأنت معلمى الذى أكرمنى ولم يضن على بشىء ؟!

- الحقيقة ؟

- الحقيقة أننى مقدم على الزواج .

- هل وجدت عروسا ؟

- لم أجدها بعد لكننى مقدم على الزواج، ولقد وجدت عملا مجزيا أكثر يسمح لى بتوفير المال اللازم للقيام بأعباء أسرتى ... ولكنى قلت لنفسى يا ولد ليس هذا سلوك رجال ... تترك عملك هكذا فجأة وتقطع بمعلمك. ذهبت الى صاحبى وسألته ان كان يرغب فى العودة الى حرفته القديمة.

- إذن تريد أن تترك العمل معى ؟

- حاشا لله يامعلمى كل مافى الأمر أننى مضطر لقبول عمل آخر قد لا أحبه ولكنى أحتاج الى أجره .

- وهل صديقك هذا أمين ... هل يمكننى الاعتماد عليه ؟

- انه أفضل منى .

- إذن دعنى أره.

هب نعيم واقفا ..

- أذهب لاحضاره ؟

- لا ليس الآن، أكمل مابين يديك من عمل وعندما تنتهى اذهب إليه .

ما إن انتهى نعيم من عمله حتى انطلق قاصدا بيت أبى جعفر قطع الشوارع ركضا حتى إذا وصل الحارة التى يقع فيها بيت أبى جعفر انتبه إلى أنه لم يفكر فيما سيقوله لسعد حين يسأله عن العمل الذى سيترك من أجله حانوت الاسكافى، عليه أن يختلق كلاما مقنعا لايثير فى صاحبه أى شك. تراجع نعيم عن طريقه وراح يتمشى ببطء وهو يفكر فى حل هذه المعضلة الجديدة.

-١١-

فى ستر الليل خرج أبو منصور إلى حمامه حتى اذا وصله توقف لحظات أمام بابه الخشبى العتيق قبل أن يخرج المفتاح من جيبه ويديره دورتين فيه بحرص. دفع الباب ودخل ثم أغلقه وراءه بالحرص نفسه. ورغم ذلك أحدث الباب صريرا عاليا بدا لأبى منصور أنه لابد تردد فى البيازين كلها.

ورغم الظلام الدامس لم يتحسس أبو منصور طريقه بل تقدم خمس خطوات ثم مال يسارا وصعد ثلاث درجات ومد يده وأنزل السراج من مكانه وأشعله وأعاده، ثم انتقل الى قنديلين آخرين وأشعلهما. نزل واتجه الى الجهة المقابلة وفعل الشىء نفسه.

عاد الى مصطبته وجلس ثم مال برأسه قليلا الى الوراء وأغمض عينيه كأنه يسلم نفسه للنعاس. لم يكن بحاجة لكى يفتح عينيه ويضىء القناديل لكى يتملى تفاصيل المكان ومع ذلك فقد عاد وفتح عينيه واسعتين وراح يتطلع: الصحن المربع وأرضيته المغطاة بالأبسطة، والأقواس الأربعة العالية تلتقى فى قبة دائرية مزينة

برسوم توريقات وتعريقات أخضرها عميق وغائر كأخضر الزيتون. وعلى المثلثات التى تفصل بين القوس والقوس رسوم قرطبة، مسجدها الجامع وحدائقها وقصورها.

حدق أبو منصور فى الصور ثم رفع رأسه وعاد يتطلع إلى القبة ثم انحدرت عيناه إلى الرقبة التى تحملها تحصى النوافذ التى فيها والتى يعرف انها اثنتا عشرة، عدها ثم راحت عيناه تنتقل بين المقصورتين المتقابلتين تصعد إليها ثلاث درجات فتجد المصاطب الثلاث مغطاة بالسجاجيد والزرابى وفى الحائط من وراء المصاطب الحنايا المتقابلة يحمل بعضها القناديل والبعض الآخر خُصِّص للمناشف المطوية تفوح منها رائحة الخزامى مصرورة فى أكياس قماشية صغيرة مدسوسة بين الطيات.

فرد أبو منصور ذراعيه وأسندهما إلى ظهر المصطبة وأغلق عينيه فرأى أباه يصرخ غاضبا ويصفعه فيخرج راكضا من البيت وفى نيته ألا يعود أبدا إلى تلك العائلة التى تسجن أولادها جيلا بعد جيل فى قفص أنتجه جنون جد قديم .

كانت حكاية الجد وهو فى الحقيقة أبو جد الجد تركة عائلية تتناقلها الجدة والجد والأب والأم والعمة والعم بتفاصيل التفاصيل بلا ملل أو كلل وكأن الوجود قد اختزل فيها .

الجد الكبير الذى هاجر من قرطبة بعد سقوطها منذ أكثر من مائتى عام تاركا وراءه بيته وحمامه وصل الى غرناطة ومعه عياله وشىء من المال ورغبة تلح لايريد من الدنيا سوى تحقيقها. أحلامه فى الليل وأحاديثه فى النهار وفعله اليومى مابينهما كلها تركزت فى تلك الرغبة: أن يبنى حماما أكبر من حمامه القديم . ترك زوجته وأولاده وارتحل الى الشام ليتحقق إن كانت حمامات الشام حقا أجمل من حمامات قرطبة كما يقال. سافر وشاهد وضاهى وعاد بعد عامين. أنزلته السفينة فى مالقة ومنها عاد فى موكب من خمسة بغال ركب أحدها وأركب المهندس الدمشقى ثانيها وحمّل الثلاثة الأخرى ما اشتراه من دمشق والقاهرة والاسكندرية لأجل الحمام. وعندما دخل على زوجته وأفرغ حمولته بكت، ليس فقط لأنه لم يتذكرها بقطعة حرير دمشقى ولكن أيضا لأنه لم يأت بشىء لابنته العروس ولا لابنه الذى كان ينتظر عودة أبيه لكى يعقد على عروسه*.

شرع عفيف فى بناء الحمام . عامان كاملان قضى كل يوم من أيامهما يشرف على البناء. من مطلع النهار حتى مغيب الشمس، فى شهور الشتاء يتدثر بملفه الصوفى العتيق وفى شهور الصيف يتخفف مكتفيا بمقطع تونسى رقيق ويقف، فى البرد القارس والقيظ، مع المهندس والبنائين والنجارين. ينتهون من الباب فيصيح مخذولا : " وهل هذا باب ... إنه قطعة مصمتة من الخشب ؟! " ويدهش النجارون وهم يتأملون الباب المحفورة تفاصيله

بحرفة وأناة. ولكن عفيف يحلم بأبواب رآها فى القاهرة والشام وقرطبة التى راحت " سأوفر الخشب وأدفع ماتطلبونه، والله يعين على صنع باب جديد ! "

الباب والبركة والحوض الرخامى وتعريقات النباتات على القبة والصندوق والمصطبة والمشكاة، كلها تسرق نقود عفيف وأيامه . يستدين نقودا ولكن الأيام ... من أين؟! بعد أسبوع من انتهاء بناء الحمام مات عفيف تاركا لزوجته وأولاده السبعة دينا ثقيلا للأهل والأصحاب والجيران. عمل أولاده وأحفاده فى الحمام وفتح الله عليهم أبواب الرزق. كانوا نشطاء وكان" حمام الزين لصاحبه عفيف القرطبى" متعة للعين والبدن. سددوا ديون جدهم .

قام أبو منصور من مكانه واتجه الى الصندوق، صندوق الأمانات الذى يودع الرواد فيه بقجاتهم المصرورة على ملابسهم ونقودهم. صندوق كبير مستطيل تحمله أربعة قوائم خشبية ترتفع به عن الأرض شبرا. كان مصنوعا من خشب الجوز حفرت عليه تعريقات نباتات تتمايل لتتصل وتنفصل يتداخل بينها مثلثات ومربعات من العاج يلاطف دكنة الخشب العتيق بصفرة أبيضه المضىء .

وضع أبو منصور المفتاح فى القفل الحديدى ورفع غطاء الصندوق، لم يكن به سوى مصحف صغير ومنديل معقود على زهر الخزامى المُجفف ينشر رائحته النفاذة فى أنفه وصدره .

- لا أريد أن أعمل فى الحمام .
- وما الذى تريده ... الركض وراء المنشدين والسكر والغناء ؟!
- هذا أفضل من العمل فى الحمام !

لطم أبوه وجهه. فى الشباب قسوة، فى الشباب غباء، وفى الشباب عيون لا ترى. الآن يفهم ما أصاب أباه من فزع. لم يكن الحمام حماما بل تاريخا عائليا لم يبق من الأحفاد سواه للمحافظة عليه. ترقرقت الدموع فى عينى أبى منصور. مات أبوه وهو شارد بين المنشدين يحمل عوده ويدق عليه. علم فعاد الى أمه فأسلمته المفتاح. فتح الحمام وعمّره، كان فى الثامنة عشرة من عمره.

أربعون عاما وهو يحمل المفتاح الذى حمله أبوه وجده وجد جده، يفتح الباب الذى أعمل النجارون حرفتهم فى خشبه المصمت فتحاورت على سطحه المستطيلات والمربعات والمثلثات، أخاديد غائرة تعرفها وتألفها وكأنما هى وجهك فى المرآة تراه .

قام أبو منصور ودلف الى " الوسطانى " كانت تتوسطه بركة من الحجر الوردى ثمانية الاضلاع فى قلبها كأس من المرمر على شكل زهرة يتدفق الماء منها. هو الذى أضاف هذه البركة وجدد بيوت الراحة على الجانبين واشترى القنديل المصنوع من الزجاج المعشق .

مر أبو منصور من " الوسطانى " الى " الجوانى " . هنا ظل كل شىء كما كان . مصطبة ممر بيت النار تقطع القاعة من جنوبها الى شمالها، أجران الماء على الجانبين،

المغطس الصغير والمغطس الكبير والأحواض الرخامية الخمسة والأرض المبلطة بالرخام الوردى المُكحّل بالأسود. هذا خيال الجد القديم وما أنجزه الصناع إرضاء لخياله .

تطلع أبو منصور ودار بعينيه يتفقد المكان. فى الحنايا المتقابلة كانت الأسرجة المضاءة تلقى بظلالها الراجفة على الجدران. استلقى على مصطبة ممر بيت النار. كانت باردة فلا الوقّاد أتى ولا النار أشعلت. فرد ذراعيه على امتدادهما وأغلق عينيه. أخذته سنة من النوم فرأى فيما يرى النائم نفسه فتى لايعلو شفتيه سوى زغب أخضر. كان متربعا على بيت النار مستمتعا بدفئه ويمسك بين يديه عودا يدق على أوتاره ويترنم بأغنية. دخل عليه شيخ مهيب مديد القامة يفوق البشر طولا. قال الشيخ :

- قم يا ولد .

فقام، وضع العود جانبا وخلع عن الشيخ ملابسه واغترف بالطاس المكّية ماء ساخنا من الجرن وصبه عليه. ثم كيَّس له جسده وصبن له شعر رأسه ولحيته وليفه وسكب الماء عليه وقلم له أظافر يديه وقدميه وعاد فغسلهما. وكان يفعل وقلبه وجل تسرى الرعشة فى بدنه. ولما انتهى تطلع الى الشيخ وسأله متمتما :

- هل أنت جدى عفيف ؟

تطلع الشيخ إليه فازداد خوفا، كان فى العينين ضياء ونظرة ثاقبة قال :

- نعم أنا جدك محيى الدين ... كيف لم تتعرف علىّ ؟!

فاضطرب وسقطت من يده الطاس النحاسية وتدحرجت على الأرض محدثة قرقعة .

قام الشيخ وانحنى ليلتقط عن الأرض الطاس وملأه من الجرن وأمره أن يجلس قائلا :

- هل غسلت قدمى ؟

- غسلتهما .

- اذن جاء دروك .

انحنى الشيخ على قدمى الولد وراح يغسلهما برفق وهو يبكي حتى ابتلت لحيته واختلط ماء العين بماء الطاس المكّية التى يسكب منها.

-١٢-

كانت الحياة برغم هموم تدبير شأنها اليومى فى ظل مهانة الاحتلال ميسورة فى بيت أبى جعفر المفتوح والعامر بأنفاس ساكنيه وأم جعفر عماد الدار ترفع سقفها العالي وتنشر فى أرجائها رائحة الخبز الذى تسويه، والخزامى التي تجفف زهرها، والزيت الذى تعتصره من زيتونات عين الدمع، وضحكتها الحرة العالية وهى ترى الأولاد، رغم كل شىء، هانئين: يعشق حسن مريمة التى تكور بطنها على الصغير القادم، وتنمو سليمة البريّة الشاردة فى ظل سعد الذى يحنو رغم حزن فى عينيه يتمكن منه أحيانا فيأخذه بعيدا حيث لا يطوله إنسان. " الحمد لله " تكررها أم جعفر من قلب قلبها وتتمنى أن يُتم الله نعمته فيأتى الأحفاد ويعمرون الدار بالصخب والحياة .

كانت سليمة فى شهرها السابع فى ذلك اليوم الذى أتت جدتها راكضة تلهث فوبختها على سلوكها الأخرق قبل أن تسمع ما لديها. لكن سليمة لم تعر التوبيخ بالا. كانت مضطربة إلى حد الفزع، وهى تكرر " لا أدرى ما الذى أصابها إنها ترقد على الأرض بلا حراك!" تبعت أم جعفر سليمة إلى فناء الدار حيث كانت الظبية راقدة على

جنبها، جسدها متيبس وعيناها كالزجاج.

- إنها ميتة ! منذ الأمس على الأرجح !

حدقت سليمة فى جدتها وصاحت :

- ليس صحيحا !

ولكن الظبية كانت ميتة ولم يكن هناك شىء يعمل الا التخلص منها بإلقائها بعيدا للجوارح ووحوش البر .

كيف ماتت ولماذا ؟ شغلت الأسئلة سليمة حتى عن حزنها أم أنه الحزن تخفى واستتر وراء أسئلة ضمنتها الاحتجاج والرفض ؟ هل من أماتها الله ؟ وما الذى يريده الله العلي القدير من ظبية كنسمة الهواء تداعب القلب وتطيب الروح ؟ ليس الله ظالما فهل يكون الشيطان ؟ وما الشيطان ومن خلق الشيطان وأطلقه فى العباد ؟ تقول جدتها إن الموت حق وهو مصير كل حى. وجدها أبو جعفر مات ولكنه كان شيخا، والعمر حين يطول يقصر والجسد حين يكبر يشيخ، والثمرة تستوي ناضجة ثم تفسد، وحين يقدم النسيج يهترىء. ولكن هذه الظبْية لم يطل عمرها لينقصف، ظبية جميلة تضىء عيناها بألق الحياة فتتقافز .. فمن سرق منها الحياة ؟ عقربة ؟ أم شىء ما كالعقربة في البدن ينفث سمه الأصفر فينشر الموت في النسيج المتألق الجديد ؟

- كيف مات أبى يا جدتى ؟

باغت السؤال أم جعفر بوجه الولد العفى وضحكاته العالية التي ترد الروح وهو يسكن فى المرض فيشحب الوجه، وتغور العينان، وينعقد اللسان، تتحرك الرأس

فى ضيق تطلب هواء يستعصى، والروح تخرج فى صخب متحشرج، تستبقيها نظرة العينين ولا تقدر فيسكنها مع الرجاء عتب كسير .

– مرض و مات .

– أعرف، لكن بأى مرض مات ؟

لم تطق أم جعفر التحديق فى وجه الولد فتركت سليمة وقامت .

* * *

وضعت مريمة ابنتها أولا فانتشرت فى الدار فرحة متوقدة وانهماك بالأم ووليدتها. ثم وضعت سليمة الولد فأصبحت الفرحة فرحتين والانهماك مضاعفا. ولكن الطفل الذى وضعته سليمة أسلم الروح بعد أسبوعين من ولادته فعرفت أم جعفر أن موت الظبية كان علامة وإشارة وأن الله في سمائه له حكمة تجل عن الفهم. ما العمل ؟ توزع البيت مرتبكا بين فرحة بوليد وحزن على وليد، واضطرب قلب من فية مشتتا بين إعلان الفرح وحرج من إعلانه والحزن يجاوره، وإعلان الحزن وحرج إظهاره والفرح يقيم فى البيت معه .

وحدها سليمة كانت خارج الحزن والفرح تعايش سؤالا حارقا كالجرح هل الله شرير يقصد ايذاءها أم أنه سعد يمنحها مالا يدوم فتتحول بهجة الهدية إلى ألم يسرى فى الروح يعذبها .

كانت ولادتها عسرة كادت تشطر الجسد وتهلكه والجسد

كوتر مشدود يحتمل مالا يحتمل حتى اندفع الوليد وسمعت صراخه الواهن. حملته بين ذراعيها، تأملته وتحسسته وقبلت وجهه فأحست بمذاقه على شفتيها وفاض حليبها فألقمت فمه حلمة ثديها فتحرك حشاها كانما تشق تربته نبتة طالعة. لم يكن فرحا ذلك الذى ملأ صدرها لأن الفرح يضيق. كان شيئا يسري فى الروح والبدن يدخله مع الرهبة الفرح والوجل والدهشة وألف شىء آخر كأنما تجمعت الحياة بتلالها وأنهارها وسمائها وشمس النهار ونجوم الليل والبدر فى العالى، تجمعت وتركزت هنا فى التصاق الفم الصغير بحلمة الثدى والصدر الذى يضم ويحنو ويطعم حليبا يعلم الله وحده من أين أتى وكيف وكأنه نبع معجز تدفق من باطن الأرض أو ديمة سكوب فى السماء.

أسبوعان وسليمة مع صغيرها لا ترى ولا تسمع الا وجوده الصافى يغللها ويغنيها فتستغنى عن البشر ودنيا البشر، ثم أخذه الله فلماذا ؟

وكان سعد الذى سلم متمررا بفقد الصغير يزداد اضطرابا يوما بعد يوم وهو يدق باب سليمة بلا طائل فيعود الى نفسه منفيا وعاريا خارج الأسوار. لا تتحدث اليه لا تقترب منه وتنفر من كل وصل للروح أو الجسد. يواصل الحياة ويحكى لنعيم شيئا من همه ويملؤه الخوف من الغد .

تبدو المصائب كبيرة تقبض الروح ثم يأتى ما هو أعتى وأشد فيصغر ما بدا كبيرا وينكمش متقلصا فى زاوية

من القلب والحشا .

أصدر الملكان الكاثوليكيان أمرهما بالتنصير القسرى لكافة الأهالى ونُشر المرسوم وأُذيع فى الناس. كان على أهل غرناطة والبيازين الاختيار بين التنصير أو الترحيل .

قال حسن إنه لم يعد من الرحيل بد وانه سيبيع بيت عين الدمع والبيت الذى يسكنونه فى البيازين ويرحلون الى فاس .
– أم أن لكم قولا آخرا ؟

قالت أم جعفر إنها لن ترحل فلم يبق من العمر مثل الذى فات .
– لن أترك بيتى ولا أبا جعفر وحيدا ينتظرنى بلا طائل. سأبقى لأضع غصونا خضراء على قبره حتى يأذن الله فألحق به .
– وتتنصرين يا جدتى ؟
– لن أتنصر !
– وما العمل إذن ؟ ما رأيك يا سعد ؟

ظل سعد صامتا كان يفكر فى مالقة التى تبتعد. حين تحمله السفينة الى عدوة المغرب تصير البيازين بعيدة ومالقة أبعد .
– الرحيل صعب ولكن ...
– إذن نرحل .
– نرحل .

قالت مريمة :

- لانرحل. الله أعلم بما فى القلوب، والقلب لايسكن الاجسده. أعرف نفسى مريمة وهذه ابنتى رقية فهل يغير من الأمر كثيرا أن يحملنى حكام البلد ورقة تشهد أن اسمى ماريًا وأن اسمها أنّا. لن أرحل لأن اللسان لاينكر لغته ولا الوجه ملامحه .

تطلعوا اليها فى دهشة فمن أين أتت مريمة الصغيرة بهذه الحكمة ؟ وكأنها طاقة أشرعتها فتدفق الضوء جلاء فى الحجرة المظلمة، قرروا البقاء.

الاختيار صعب ولكن الفعل أصعب. وقفت نساء الحى فى جموع غفيرة يتلقين قطرات التعميد الجماعى. يتمتم القس بكلمات لا يفهمنها وهن يحدقن فيه ساكنات صامتات. والوجه بحر صاخب متلاطم وعميق تترجرج على صفحته مراكب صغيرة تغمرها الموجة العالية بالضياع والفزع فتشهق وهى تغرق ولاتغرق، تنحسر الموجة لتأتى موجة أعتى وشهقة أعلى كأنما تسلم الروح نفسها لعزرائيل الموت وهى تصرخ: " لا أريد ".

لم يكن الأمر كما قالت مريمة اسما على الورق يستبدل باسم بل حياة كاملة صارت كل مفرداتها تهما ومعاصى: طهور الصبِية، عقد قرانهم على الشرع الواضح، زفهم على إيقاع الدفوف والأهازيج، استطلاع هلال رمضان والعيدين، الإنشاد فى ليلة القدر، الصلاة والصيام، الاحتفاء بخميس الله وجمعته، تكفين الميت وتشييع جنازته بآيات الذكر، خضاب الحناء على أكف الصبايا

ورءوس النساء، كلّها تهم وباب السجن مفتوح للخطاة وأكوام الحطب مكومة تنتظر شعلة وتلتهب. وكأنما هى عجلة للشيطان دارت والروح لاتلاحق دوراتها المرهقة.

" يحظر على المتنصرين الجدد ارتداء الملابس العربية. ويمنع أى خياط من حياكة الملابس المحظورة وعلى النساء التخلص من غطاء الرأس " .

" لايجوز لمتنصر جديد أن يبيع ممتلكاته لشخص من أصل عربى مثله ".

" يحظر على كل شخص من أصل عربى بيع ممتلكاته البتة ومن خالف الأمر صودر ماله وعوقب عقابا وخيما ".

" يتوجب على كل عربى يمتلك كتبا أو مخطوطات في غرناطة والقرى التابعة لها أن يسلم كل مايمتلكه والا عرض نفسه للمحاكمة والسجن ومن يثبت بعد التاريخ المحدد انه يمتلك كتابا تصّادر كل ممتلكاته ".

" يحظر امتلاك سلاح أو حمله ويشمل المرسوم السيوف والخناجر ".

" يحظر الإرث على الطريقة الاسلامية فالتركة لاتقسم بل تنقل بما هو دارج فى أعراف مملكة قشتالة ".

" يحظر إيواء وحماية وإجارة المخربين من المسلمين الذين يهاجمون شواطىء المملكة من السفن التى تحملهم من عدوة المغرب ، ويحظر الاتصال أو أى شكل من أشكال

التعامل مع الثوار المعتصمين فى رءوس الجبال ومن يعصى الأمر عقابه الموت المؤكد "

" من يرحل من غرناطة ويعود إليها يحرم من ممتلكاته ويقبض عليه ويباع عبدا فى المزاد العلنى " .

عجلة ترهق الروح تدور، والصغار، رغم ذلك، يكبرون.

رزقت مريمة بعد رقية بخمسة أطفال آخرهم هو الولد سموه هشاما. أما سليمة فلم يعطها الله وكيف يعطيها وهى نافرة من سعد مستغرقة فى قراءة الكتب وخلط الأعشاب وصنع الأمزجة والمعاجين والسوائل. فى أول الأمر كانت الكتب هى كل شاغلها، تسهر على قراءتها، تخطط تحت بعض سطورها، تكتب ملحوظات على هوامشها ثم انهمكت فى سؤال النساء العارفات والاستفسار منهن عن الوصفات القديمة التى يعالجن بها الأوجاع وراحت تشترى القدور والقنانى والأوعية والأحقاق، وتخلط الأعشاب، النضر منها والجاف، تمزج بعضها وتطحنه وتعجنه، وتسخن وتبرد وتستقطر فتأتيها نساء الحي يطلبن نصحها في علاج مرض أو آخر. لا تحتملها أم حسن فتتشاجر معها شجارا عاليا يسمعه الجيران ولكن صراخ أم حسن المتكرر ومحاولتها إعادة ابنتها إلى حظيرة الراجحات من النساء اللائى يسعدن أزواجهن بالبنات والبنين والعينين المكتحلتين والوجه الصبوح والبدن المعطر بمسحة مسك أو ياسمين لم تجد شيئا. بعد شهور من خوض حرب ضروس مع ابنتها سلمت أم حسن أمرها لله .

وكان سلوك أم جعفر على غير ذلك إذ قبلت بما تفعله سليمة منذ البداية، قبلته على مضض وبلا اقتناع، ولكنها قبلته، ربما لأن تقدمها فى العمر لم يكن يسمح لها بخوض الحروب. ولم تكن أم جعفر فى قرارة نفسها منزعجة بما تقوم به حفيدتها بقدر ما كان يقلقها إهمالها لسعد. كانت تراه منكمشا وحزينا فتحنو عليه وتغدق من محبتها وتصر أن يدعو نعيما إلى الدار لأنها تعرف أن نعيما يطيِّب روح سعد ويخفف من وطأة الأيام عليه .

كان سعد بائسا لنفور سليمة منه ، يشكو همّه لصاحبه فيقول له

– اضربها يا سعد ، اضربها ضربا مبرّحا حتى تفيق .

ثم يقول :

– لاطفها يا سعد فهى مسكينة فجعت بفقد وليدها، إنها تحتاج عطفا ومسايرة.

أو يقول :

– قم الآن وحطم كلّ تلك القنانى والقوارير والأحقاق والقدور التى تحفظ فيها أمزجتها الغريبة ومزق الكتب التى تفسد عقلها واطرد النساء اللائى يأتينها طلبا للنصح والعلاج.

تتعدد نصائح نعيم وتتناقض ولكن سعدا لم يكن قادرا على الأخذ بأى منها. كان متعلقا بسليمة يطلب قربها كأنها أمه وأنكرته. تجلس منهمكة فى ذلك الشاغل الذى هبط عليها كالبلاء من السماء ينتظر، يلاطفها بكلمة، يحاول جذب اهتمامها بسؤال أو ملحوظة أو خبر ولكنها تبقى

بعيدة لا يطالها قلب ولا جسد، يغشاه حزن يتيم متروك، تترقرق فى عينه دمعة يغالبها حتى يرحمه النوم.

فما الذى حدث فى ذلك اليوم حتى لا يتحمل سعد ما احتمله أياما وليالى. سمعت أم جعفر صوته يعلو محتدا وصوت سليمة يجاوبه بحدة مماثلة. ثم زاد الشجار احتداما وسمعته أم حسن فجاءت مهرولة من المطبخ. تستجلى الأمر فقالت لها أم جعفر
- اتركيهما سيتشاجران قليلا ثم يتصافيان.

لم تملك أم حسن الأخذ بنصيحة حماتها إذ تعالى صراخ سليمة وبدا واضحا أن سعدا يضربها. صاحت أم حسن فى حنق: " هذا آخر المطاف، نلمه من الطريق ونأويه فى دارنا فيتطاول على ابنتنا ويضربها ! " واندفعت إلى حجرة سليمة فتبعتها أم جعفر متعثرة من شدة الاضطراب ولا هثة تقول : ابنتك محقوقة يا زينب، وليس سعد أول ولا آخر الرجال الذين يؤدبون نساءهم بالضرب. كونى محضر خير يا زينب " ولكن أم حسن اقتحمت الغرفة على سعد وسليمة واختلط صياحها بصياحهما ولم تكن ام جعفر قد استوعبت تفاصيل ما يجرى عندما فوجئت بسعد يصرّ ملابسه ويغادر البيت. وكانت سليمة محتقنة الوجه تعض بأسنانها على شفتها ولكنها لم تكن تبكى .

وما ان عادت مريمة من السوق حتى أخبرتها أم جعفر بما حدث وطلبت منها أن تهدىء سليمة وتخفف عنها.وحين عاد حسن حكت له وطلبت منه أن يذهب

للبحث عن سعد لمراضاته. وافقها ولكنه قبل أن يذهب دخل على سليمة وسبّها وضربها فبكت مريمة وأم جعفر وأم حسن وبكى الصغار فتركهم حسن وهو يلعن النساء الناقصات عقلا والصغار الأثقل من الهم على القلب وكل رجل حمار يفكر فى الزواج أو الخلفة.

وأيقنت أم جعفر أن عينا أصابتهم وقررت أن توصى مريمة أن تشترى لها بخورا من أفضل الأنواع لكى ترد عين الحسد عن الدار وأهلها.

وجد حسن سعدا عند نعيم كما توقع وحاول إقناعه بالرجوع معه إلى البيت. رفض سعد فأقسم حسن بالطلاق ثلاثا انه لن يعود إلا إن عاد معه .

فى الأيام الثلاثة التالية لم يتبادل سعد وسليمة أى كلام ثم بادأته سليمة الحديث قالت :

– لقد أخطأت بضربى يا سعد، ضربتنى وتسببت فى ضرب حسن لى. لم يضربنى أحد أبدا منْ قبل، لا أبى ولا جدى.

صمتت لحظة ثم واصلت:

– وأنا أيضا أسأت إليك حين قلت لك " هذا بيتى ... تريدنى ابق ، لاتريدنى اذهب " كان كلاما غليظا قلته فى لحظة غضب.

كانت سليمة تتطلع اليه تلك النظرة الواضحة المباشرة فيرى فى عينيها الزرقاوين ذلك الضوء الذى أسره منذ سنوات ، ابتلع لعابه بصعوبة ثم قال :

– لم أقصد إيذاءك ولكن هذه المعاجين والأمزاج التى تصنعينها ليل نهار يا سليمة تفقدنى صوابى. لا أطيق رائحتها إنها تسبب لى كوابيس، ازدرد ريقه ثانية، كوابيس فوق الكوابيس.

– إن أردت أنقلها جميعا إلى مكان آخر ولكن ياسعد أرجوك لا تطلب منى تركها ... أحتاجها وأحتاج تلك الكتب التي تضج بها ... أحتاجها !

لمح سعد دموعا تترقرق فى عينيها ورأى عبر الدموع عنادها فعرف انه لن يملك أبدا أن يحول بينها وبين ما تريد ليس فقط لأنه لن يقدر على كسر عنادها ولكن أيضا لأنه لا يريد .

-١٣-

كانت أم جعفر وهى تتوغل فى مساحات الشيخوخة تزداد تعلقا بنعيم فتحصى الأيام مابين زيارة وزيارة وتنتظر. كانت قد عرفته منذ طفولته وتابعته وهو ينمو وتعهدته أحيانا بالتوجيه أو التوبيخ ولكن الألفة بينهما فى السنوات الأخيرة كانت قد اتخذت مسارا جديدا، هو يحكى وهى تنصت بتوقد واهتمام . يحمل لها حديثه دفئا وألوانا تبدد شيئا من وحشة أشجار تتعرى وغيوم تتكاثف وبرودة تسرى فى شتاء العمر فى الأطراف .

لم ينقطع الحديث بينهما منذ ذلك اليوم الذى أخبرها نعيم أن الملكين فرديناند وإيزابيلا كانا مصابين فى ذريتهما.

– كيف ؟

كان نعيم يعمل فى خدمة قس قشتالى عالم ، يعاونه فى تنظيف الدار وترتيب كتبه وتغليفها وتجليدها فيسمع من القس مباشرة أو ينصت لمايدور بينه وبين زواره فيعرف الأخبار وينقلها الى أم جعفر.

– سمعت من القس ميجيل أن الملكين قبل وفاتهما قد

فقدا أكبر أولادهما، الأمير دون خوان، ثم لحقته الأميرة إيزابيلا شقيقته الأصغر. وكانت الأميرة إيزابيلا قد تزوجت من امير برتغالى مات بعد زواجها بشهور قليلة.

– إذن فالله قد عاقبهما، فما قيمة أن يكسب الانسان حروبا ويوسع مملكته إن فقد فلذة كبده ؟

كان الكلام الذى نقله لها نعيم يثلج صدرها ليس لأنها تتشفى فى هذين الملكين اللذين أذاقا كل أهل غرناطة حنظل المرار ولكن لأنها كانت قد وجدت أخيرا عدالة من السماء أرقها غيابها وملأها بشك كان يداهمها أحيانا متقمصا صوت أبي جعفر بعد حرق الكتب فتدرؤها بعيدا عنها وهى تستغفر الله .

الله فى علاه حكيم وعادل وقد عاقب الملكين فى حياتهما على ما اقترفاه . ليس خسران الحرب بأقسى من فقد الولد. ظهر الحق فهدأ شيء في داخلها وراحت كلما جاء نعيم تسأله وتستزيد .

– أصابتهما اللعنة يا أم جعفر. لم يمهلهما الله حتى يوم الحساب بل أنزل عقابه عليهما في الدنيا والآن وقد رحلا فلابد أنه سيزيدهما علي العقاب عقابا.

يجلس نعيم تقدم له الموجود من الطعام وتجلس بالقرب منه تتعلق عيناها به وتتأهب أذناها لسماع المثير من الأخبار .

– اسمعى يا أم جعفر هذا الخبر الجديد الذى لا يعرفه

أحد من أهل البيازين: خوانا ابنة فرديناند وإيزابيلا مصابة بالجنون !

- لا إله إلا الله !
- سمعت أنها تزوجت أميرا من بلاد أخرى يقال له فيليب الجميل .
- ما شاء الله، وبعدين ؟
- اسمه فيليب الجميل لأنه جميل وكل من وقعت عيناها عليه من النساء اشتعل قلبها بحبه .
- وبعدين ؟
- وبعدين ياستى لايعجب ذلك الأميرة خوانا وتأكل الغيرة قلبها .
- الحق معها .
- وتعبر لفيليب الجميل عما فى نفسها من غيرة فيضربها ضربا مبرحا، ولكنها تحبه. يجذبها الحب من ناحية وتجذبها الغيرة والضرب الموجع من ناحية أخرى فتفقد الأميرة عقلها ... ثم يموت فيليب الجميل .
- لا حول ولا قوة الا بالله !
- مات ... فما الذى فعلته الأميرة خوانا ؟
- بكته طبعا حتى وإن كان قد خانها، لأنها تحبه .
- ليس هذا هو المهم .
- وما المهم ؟
- صبرا سأحكى لك كل شىء بالتفصيل. لقد كانت أم الملكة ايزابيلا أيضا معتوهة ويبدو أنها أورثت الجنون إلى حفيدتها .
- سبحان الله وهل جار علينا الزمن الى الحد الذى تحكمنا فيه أسرة من المعتوهين ؟!

– هذا ماسمعته من القساوسة وهم يتحدثون وأنا أحمل اليهم الطعام والشراب فيواصلون الكلام كأننى لم أدخل عليهم أو كأننى الخزانة الخشبية التى وراءهم . المهم مات دون فيليب الجميل وكان فى مقتبل العمر ففقدت خوانا عقلها كليا : أخرجت جثمان زوجها من القبر ووضعته كأنه مازال على قيد الحياة فى حجرة نومها، وكلما اضطرتها شئون الحكم للسفر حملت جثمانه معها. ولما لم تكن تطيق اقتراب أى إمرأة من جثمان زوجها فلقد استبدلت بالخادمات رجالا ينظفون حجرة نومها ويخدمونها فى أسفارها.

– لابد أن الجثمان تعفن وعكرت عفونته دم خوانا فماتت ...

ضحك نعيم قبل أن ينطق بالخبر الذى كان يعرف أنه سيفاجىء أم جعفر ويمسمرها فى مكانها كبرق مفاجىء فى السماء .

– لم تمت بل ورثت عرش قشتالة بعد وفاة أمها وعرش أراجون بعد وفاة أبيها وهى الآن مالكة البلاد وحاكمتها !

وكما توقع نعيم فقد فغرت أم جعفر فمها وحدقت فيه غير مصدقة ... ثم قالت :

– تقصد أن الملكة ابنة الملكين التى تحكمنا الآن هى تلك المجنونة ؟!

– هى بعينها لقد قال القس ميجيل بعظمة لسانه " خوانا لا لوكا " وهذا يعنى " خوانا المعتوهة"، تحكمنا يا أم جعفر امرأة مختلة العقل !

ضحك نعيم ملء شدقيه أما أم جعفر فقد اضطرب فكرها وصعب عليها الفهم: يعاقب الله الملوك الظالمين بموت أبنائهم وفساد عقولهم ولكنهم يحكموننا فنجنى ثمار جنونهم ! يصعب أن يفهم الانسان حكمة الله، لغزها عميق عسير ولست الا امرأة عجوزا .

ورغم ذلك فقد وجدت أم جعفر، بعد ذهاب نعيم وطول تأمل، تفسير تلك القوانين الجائرة التى يسهل فهمها إن كان من يسنها معتوها فقد عقله. فما الذى يضير إنسانا لو أن إنسانا سواه امتنع عن أكل الخنزير أو خضب يديه بالحناء أو عقد قران ابنته خارج الكنيسة وليس داخلها ؟! وما الذى يسيء حاكما لو أن بعض رعيته اقتنى كتبا مكتوبة بلغة العرب وليست بلغة الأعاجم ؟! وما الذى يغضبه حين تلبس امرأة مثلها ثوبا مقطوعا على طريقة العرب وليس علي طريقة القشتاليين أو تضع غصنا أخضر على قبر زوجها الراحل ؟!

لم تفهم حكمة الله فى تولية معتوهة على عباده ولكنها فهمت أن تلك القوانين العجيبة الجائرة أنتجها عقل مختل. ولولا نعيم، وفقه الله، مافهمت، ولولا أحاديثه الشيقة لوجدت نفسها تقضى الأيام والليالى وحيدة لا أحد يحدثها ولا تحدث أحدا فسليمة غارقة فى قدورها وقواريرها و ام حسن تطبخ للعيال ومريمة تقوم بشئونهم؛ والصغار مكتفون بأنفسهم يلعبون ويثرثرون معا وحين ينهكهم اللعب والكلام يتحلقون حول أمهم تحكى لهم الحكايات وعندما تناديهم لتحكى لهم تلمح فى عيونهم السخرية المكتومة لأن الحروف لم تعد هى الحروف وقد

سقطت الأسنان وتعثرت فى الفم الكلمات؛ وحسن يعمل طوال النهار وحين يعود مكدودا يشغله الصغار وزوجته. لم يعد لها سوى سعد تحنو عليه وزيارات نعيم على تباعدها تعيد لها الروح فتتقد بحكاياته المثيرة.

* * *

ماإن رأت أم جعفر نعيما حتى عرفت انه يحمل لها خبرا مثيرا إذ أقبل عليها مشرقا بابتسامة يجتهد فى ضبطها والتحكم فيها فتغالبه وتسرى فى ضوء عينيه وانفراجة أساريره. قال بصوت مجلجل:

– يا صباح الخيرات يا أم جعفر.

– صباح النور يا نعيم ... جئت بحكاية عجيبة غريبة أليس كذلك ؟!

انفلتت الابتسامة وصارت ضحكة صافية. مد لها يده بخيط وإبرة

– هل يمكن أن تلضمى لى هذه الإبرةٌ ؟

أخذت أم جعفر فلم يكن من عادة نعيم أن يسخر منها. تطلعت إليه بنظرة تساؤل لا تخلو من عتب . ولكنه واصل ..

– حاولى يا أم جعفر ... حاولى !

أجابته بضيق:

– ماذا دهاك يانعيم، تعرف انني لم أعد قادرة على ذلك ؟!

أصرّ:

- ولكنك ستلضمين هذه الإبرة !

أعطاها الإبرة فى يدها اليسرى والخيط فى يدها اليمنى. أضاعت أم جعفر طريق الفهم تماما فاسلمت نفسها لانتظار مضطرب.

أخرج نعيم من جيبه لفافة صغيرة فتحها بحرص وأخرج منها شيئا غريبا ، دائرتين من زجاج مسطح موصولتين ومؤطرتين بسلك ذهبى دقيق وتنتهى إحداهما بحامل دقيق صغير .

- ما هذا ؟

أمسك نعيم الحامل ورفع دائرتى الزجاج وقربهما من وجهها حتى صارتا ملتصقتين بعينيها. أغلقت عينيها:

- ما الذى تفعله يا نعيم ؟!

- لا تخافى يا أم جعفر، افتحى عينيك والضمى الإبرة.

فتحت أم جعفر عينيها ببطء وهى تتمتم "بسم الله الرحمن الرحيم» ثم كررتها بصوت أحدّ حين نظرت عبر الزجاجتين فرأت ثقب الإبرة الذى لم تعد تراه منذ سنوات واضحا أمام عينيها. حاولت لضم الإبرة مرة ومرتين ولكنها لم تفلح لأن يديها كانتا ترتعشان.

- اهدئى يا أم جعفر والضمى الإبرة.

- هل صرت تشتغل بالسحر يانعيم ؟!

حاولت حتى مرّ الخيط من الثقب فناولته الإبرة وهى تسمع دقات قلبها عالية ومتسارعة .

رفع نعيم الزجاج عن عينيها وهو يقول بغبطة وزهو:

– هذه الآلة يا أم جعفر يستخدمها الإنسان حين يضعف بصره فلا يتمكن من رؤية الأشياء الدقيقة، إنها للقس ميجيل.

– وهل يحتاج القس للضم الإبرة ؟!

ضحك نعيم

– بل يحتاج لها ليقرأ تلك الكتب ذات الخطوط الدقيقة

– ومن أين اشتراها ؟

– أوصى عليها أحد التجار الجنوبيين .

– إذن تباع فى جنوا ؟

– لا أدرى.

– هل هى غالية الثمن ؟

– لا أعرف .

– إن لم تكن غالية الثمن أطلب من حسن أن يوصى لى على واحدة. لا اكثر من تجار جنوا الذين يأتون ويذهبون من غرناطة. هات أجربها مرة أخرى يا نعيم .

مدّت أم جعفر يدها وأمسكت بالقضيب الذهبى الصغير ورفعت الزجاج إلى مستوى عينيها وراحت تتطلع عبره إلى أنحاء الحجرة.

– غريب !

– ما الغريب يا أم جعفر؟

– أرى الأشياء البعيدة أفضل بدونها !

– يبدو أنها لرؤية الأشياء القريبة ، أرى القس يستخدمها حين يقرأ فقط .

نادت أم جعفر على بنت من بنات حسن وطلبت منها

أن تنادى عمتها سليمة
- لنر كيف تستخدمها سليمة فى قراءة الكتاب.

قبل أن تصل البنت الى حجرة عمتها أخبرت أمها وجدّتها وأخواتها بأمر الآلة العجيبة التى رأتها مع نعيم فأتين جميعا وتحلقن حول نعيم يتطلعن بشغف ويستفسرن دون أن يسمح لهن نعيم بالإقتراب أوااللمس.
قالت إحدى الصغيرات:
- هل تسمح هذه الآلة لمكفوف أن يرى ؟
- لا .
سكتت لحظة ثم قالت فى ثقة:
- لابد أن هناك نوعا أقوى يسمح للكفوف أن يرى !
قالت أم حسن وهى تهز رأسها فى ارتياح.
- هذه بشرى سارة أحملها لجارتنا التى كفّ بصرها ، بإمكانها أن توصى على آلة كهذه فيعود إلى عينيها ضوء الإبصار !

وقامت فى الحال لتخبر جارتها بالأمر دون ان تلتفت لنعيم الذى كان يكرر أن هذه الآلة تكبّر الأشياء الصغيرة فقط ولا تسمح لمن كفّ بصره بأن يرى .

ثم دخلت سليمة واستفسرت عن الأمر وأمسكت بالآلة بين يديها ورفعتها إلى عينيها ثم أنزلتها وهمت بالذهاب الى حجرتها ومعها الآلة لكى تجربها على كتاب من كتبها ولكن نعيم لم يسمح لها .
- احضرى الكتاب هنا.

استرد منها النظارة فذهبت وأحضرت كتابا دقيق الخط واستعادت الزجاجتين من نعيم وتطلعت عبرهما إلى المكتوب فيه. كانت الكلمات صغيرة الحروف التى تنهكها قراءتها فتظل تبحث عن وضع يسهل لها ذلك فتبعد الكتاب عن عينيها وتضيّق جفنيها وتحدق تحديقا فيها واضحة تماما تقرؤها بيسر مدهش .

– نعيم من أين أتيت بهذه الآلة ؟
– إنها للقس .
– هل تتركها لى الليلة ؟

قفز نعيم من مكانه ومدّ يده وأخذ النظارة من سليمة قائلا :

– مستحيل. سيسألنى القس عنها فماذا أقول ؟!
– مادمت أتيت بها فلا بد أن القس مسافر .
– إنه مسافر ولكنه يعود غدا .
– اتركها لى فأعيدها لك صباح الغد .

اجتمعت أم جعفر وأم حسن ومريمة والصغيرات لإقناع نعيم بترك الآلة لليلة مع سليمة " ليلة واحدة فقط ! " وبعد أخذ ورد وطول مناقشة سلم نعيم أمره لله وأعطى الآلة لسليمة وهو يكرر أن عليها أن تكون حريصة فى مسكها واستخدامها لأنها قد تنكسر.

– وغدا، غدا صباحا، سأعود لأخذها .

ولكن نعيما حين أتى صباح اليوم التالى لاستعادة النظارة كانت سليمة قد حسمت أمرها وقررت، قالت له:

– حدث ما كنت تخشاه ، انكسرت النظارة .

- انكسرت !

أطلق نعيم هذه الصيحة الواحدة ثم صمت ومرّت لحظات لايدرى ما الذى يقوله أو يفعله. ثم قال :

- كيف انكسرت ، دعينى أرها؟!

- سقطت وتحطمت تماما فخشيت أن ينجرح الصغار فألقيت بها .

ملأه الشك ثم اليقين .

- سليمة أنت كاذبة، لقد قررت سرقة النظارة !

- احفظ لسانك يا نعيم .

ولكنه كان مشتعلا بالغضب فصاح فى سليمة فصاحت فيه واشتبكا فى مشادة كلامية حادة وفشلت محاولات أم جعفر ومريمة فى تهدئتهما أما أم حسن فقد ساءها أن يتهم نعيم ابنتها بالسرقة فانحازت إلى ابنتها وصارت تصيح فيه وهو يصيح فى ابنتها. ثم غادر نعيم الدار وهو يكرر:

- سأشكوك لزوجك ولأخيك وإن شاء الله يضربانك حتى يسيل دمك فتفصحين عن مكان النظارة التى سرقتها !

-١٤-

الهموم تؤلّف القلوب وتقرب ، والسنوات التى عاشها سعد وحسن تحت سقف واحد عززت صحبتهما، يتواصلان ويسهبان فى الحديث ويتفقان فى الغالب فى حكمهما على الأمور. كان حسن لطيفا وودودا مع سعد ليس فقط لأنه صاحبه وزوج أخته ولكن أيضا لأنه كان قد نزل عليه ضيفا فى بيت جده فظل يراعيه حتى بعد أن مرت سنوات طويلة لم يعد فيها ضيفا ولاعاد أحد يتذكر انه نزل فى الأصل فى بيت ليس له. حتى المشاكل مع سليمة كانت سببا مضافا لتعزيز مابين الرجلين من الصداقة اذ كان حسن، فى قرارة نفسه، يدين أخته ويشعر بالامتنان لسعد لأنه لايسىء معاملتها أو يطلقها أو يتزوج عليها .

فما الذى جرى فى ذلك اليوم لكى يتحول الحديث الهامس بين الرجلين إلى خلاف موتور فيعلو صوت حسن ويعلو صوت سعد وتهرول أم جعفر بقدر مايمكنها سنها لتستفسر عما جرى فيصيح حسن فيها :

- أرجوك يا جدتى ابقى بعيدا، بيننا حديث رجال، خذى مريمة وأمى والصغار إلى القاعة الداخلية واتركينا وشأننا !

وحتى فى القاعة الداخلية البعيدة كان حديث حسن وسعد غير المسموع تماما حديث شجار وغضب. وقالت أم حسن ان عينا أصابتهما " ذات العين التى أصابت سليمة ! " وتمتمت أم جعفر جزعة " ربنا يستر ! ".

نام الصغار وأوت أم جعفر وأم حسن ومريمة كل الى فرشتها وإن لم يغمض لأى منهن جفن. ترى ما الذى حدث، ما الذى يوتر النفس هكذا ويطلق الصوت عاليا ؟

فى الفجر دخل سعد على أم جعفر وجلس بجوارها . قال :

– يا أم جعفر، سأرحل .

هذا مالم يدر بخلدها أبدا .

– ترحل ؟! الي أين ياسعد ولماذا ؟

تلعثم .

– ترحل من غرناطة وتتركنا نحمل الهم وحدنا ؟

ترقرقت عيناه بالدموع ومال على يدها وقبلها.

– أرحل الى الجبل ... لى رفاق يحتاجون لى ... لا أترك غرناطة يا أم جعفر ولا أترككم فليس لى أهل سواكم ... نلتقى على خير يا أمى .

قام فتبعته كظله وهو يودع أم حسن ومريمة والصغار ثم يودع سليمة. هى التى قالت :

– سعد ينوى الرحيل ياسليمة .

– أعرف .

بدا لها أن سليمة مضطربة وأنها لمحت اختلاجة فى وجهها، تشجعت :

- ابق مع زوجتك يا سعد ... ابق معنا وان كان حسن قد أساء إليك فإنه محقوق وهارأسك ... قبلت رأسه قبل أن يفلح فى الابتعاد .

- قولى شيئا يا سليمة.

- قلت .

- ماذا قلت ؟

- قلت له ابق يا سعد وافعل ما تريده وهذا البيت بيتى كما هو بيت حسن، هو إذن بيتك . ابق وافعل ماتريد .

إذن فالمشكلة مع حسن. هرولت أم جعفر وأيقظت حسن من نومه ووبخته كأنه طفل صغير.

- ماذا فعلت بزوج أختك ... ما الذى قلته ... لماذا أغضبته ؟!

قام حسن وأطلق زفرة عميقة وكان شاحب الوجه. قالت:

- سعد ينوى الرحيل .

- - أعرف .

- ماذا فعلت ؟

- لم أفعل شيئا .

- لماذا يرحل اذن ؟

- اتركيه يا جدتى فقد قرر ذلك ولن يرجع عن قراره .

بكت أم جعفر، وبكت أم حسن، ومريمة أيضا بكت وبكى الصغار لبكائهن . ووقفت سليمة لا تحرك ساكنا كأن الراحل ليس زوجها وحسن لم يحرك ساكنا " لا ليس صحيحا أنهما لايكترثان " قالت أم جعفر لنفسها وهى

تحدق فى حسن تكاد تلمس رجفة بدنه من تحت ثوبه الصيفى وترى وجه سليمة شاحبا كأنها لاقدر الله مريضة.

لاحسن ولاسليمة اللذان كانا يعرفان سبب المشاجرة ورحيل سعد أعلما أهل الدار بما يعرفان. قال حسن ان سعدا لن يترك البلاد وإنه سيعود من حين لآخر لزيارتهم " و ربما .. " لم يكمل عبارته وخرج من البيت .

بعد أسبوعين جاء نعيم وعرف بالأمر فأصابته نوبة من الغضب أخافت الصغار وجعلتهم يركضون ليختبئوا بعيدا .

– رحل ؟ !! كيف رحل لماذا رحل وهل يرحل دون أن يقول لى، دون أن يأخذنى معه ؟! وما الذى أفعله أنا الآن ؟! تشاجر مع حسن ... لا حسن من طبعه الشجار ولا سعد. انتما تكذبان على ... ما الذى حدث لصاحبى ... هل مات ؟

كان صوته عاليا وملتاعا وموزعا بين السخط والفزع .

– أين حسن ؟

– ليس فى الدار .

– أين سليمة ؟

اندفع الى حجرتها وكأنه من أهل الدار أو طفل لم تحرم عليه بعد خدور النساء .

وقف فى مواجهتها ساخطا لايدرى ما الذى يقوله ثم

صاح بأعلى صوته :
- هل استرحت الآن ... لقد رحل ... هل هذا ما كنت تريدينه ؟
رفعت عينيها وحدقت فيه كما يحدق فيها .
- لا دخل لى برحيله !

كانت العفاريت تتقافز فى عينيه تراوده رغبة جامحة فى تحطيم القوارير والقدور والأحقاق وإلقاء كل تلك المساحيق والسوائل والعجائن على الأرض ثم إطعام سليمة ضربا مبرحا يفرج به عن غيظه المتراكم منها منذ شهور ... اكتفى بأن بصق على الأرض وخرج .

نادته أم جعفر ولكنه لم يلق بالا الى ندائها وغادر البيت مشعث المشاعر والأفكار غاضبا وخائفا ولايفهم. هل أخذ سعد بنصيحته وهجر سليمة عقابا لها ؟ عقاب متأخر ثم ماذنبه هو ليعاقبه معها ؟! وما ذنب أم جعفر وحسن ؟! تشاجر مع حسن ؟ كيف ولماذا ؟ هل أصاب صاحبه مكروه ويخفون الأمر عليه ؟

عاد أدراجه راكضا الى بيت أبى جعفر، سأل :
- هل عاد حسن ؟
- لم يعد بعد .
خرج مرة أخرى وقرفص أمام الدار ينتظر عودته .

حين لمح حسن يقترب من أعلى الحارة قفز واقفا وركض فى اتجاهه:
- ما الذى حدث يا حسن ؟

– هل بامكانك أن تقضى الليلة معى ؟
– بإمكانى .
– إذن تعال .

طلع عليهم الفجر دون أن يغمض لهما جفن. حكى حسن وأنصت نعيم، ولم يقاطعه سوى مرة واحدة. قال :
– لم يقل لى سعد أى شىء عن ذلك، هل هو الذى قال لك ؟
– فى البداية لم يقل ولكننى عرفت لأننى أقيم معه فى نفس الدار فأعرف متى يحضر ومتى يغيب ومتى يزوره أغراب لانعرفهم. ثم استوضحته الأمر فحكى لى ... اختلفنا ثم تشاجرنا ... هل أخطأت يا نعيم ؟

لم يحر نعيم جوابا وكان عليه أن يعود الى بيت مخدومه قبل أن ينتبه إلى غيابه . " لو وجدت القس ميجيل مستيقظا سأقول له إننى بكرت فى الصحو وخرجت لأتنسم شيئا من هواء الصبح النقى " .

كان يسير بخطى مسرعة هو يفكر كيف ولماذا أخفى عنه سعد ما أخفى وكيف ولماذا رحل دون أن يمر عليه ويودعه . أبطأت خطواته ثم توقف ووجد نفسه ينتحى جانبا من الطريق ويجلس وينخرط فى البكاء .

قضى حسن الأسابيع التالية مضطربا ولم يكن ذلك ليخفى على أحد من أهل الدار، لايعيه الصغار وإن جنوا ثماره من حدة أبيهم فى التعامل معهم، يزجر ويصرخ ويضرب أحيانا على غير المعتاد ولا المألوف. وأم جعفر وأم

حسن ترجعان سلوكه لضيقه من مشاجرة عابرة كان أثرها هكذا وخيما. تحصيان الأيام وتنتظران أن يعود سعد فيهدأ قلب حسن. ولكن ما هو موضوع المشاجرة التى تدفع سعدا الى ترك داره وتدفع حسنا الى ترك صاحبه وزوج أخته يرحل ؟

وحدهما سليمة ومريمة كانتا تعرفان تفاصيل الموضوع، لا تقول سليمة شيئا لأنها متباعدة منهمكة فى أعشابها ولاتكثر الكلام. ولا تملك مريمة أن تحكى لأن حسن حين ألحت عليه بالسؤال جعلها تقسم على المصحف أن يظل الأمر سرا في قلبها لا يذاع .

أما حسن فكان مستغربا حاله وهو يرى نفسه مؤرقا يلح عليه السؤال :

هل أصاب فى تصرفه أم أخطأ ؟ لحظتها بدا واثقا وكأنه قد حسم أمره وانتهى قال:

– ياسّعد لا أملك أن أمنعك عن طريق اخترته لنفسك ولكنى مسئول عن سلامة أهل هذا البيت احرص عليهم .

قال سعد :

– ليس حرصا ما تفعله يا حسن، ولو أغلق كل منا باب داره وقال سلامة أهلى هلكنا جميعا، أقصد بشكل عام، نهائيا والى الأبد.

احتد صوت حسن .

– هل تتهمنى بالتخاذل ؟

لم يجبه سعد ولكنه تطلع إليه فزادت نظرته توترا. كانت النظرة تتهم. علا صوت حسن :

– لن أدافع عن نفسى ليست خطيئة أن تحمى أهل بيتك ولو بالتحايل، تواصل الحياة لكى تضمن لهم لقمة العيش والستر بين جدران بيت يضمهم. القشتاليون لا يرحمون وأنت تعرف وترى بأم عينيك كل يوم اذ تساورهم الشكوك في شخص، مجرد الشكوك، يأخذونه ويحققون معه ويعذبونه حتى ينتزعوا منه اعترافات قد لاتكون الا اختلاقا يختلقه عقله للخلاص من العذاب، وقد يحكمون عليه بالموت أو يموت من عذابهم قبل أن يحكموا فيصبح عياله بلا عائل وتخرج زوجته الى الشارع لتعول صغارها، والحرة لاتأكل من حليب ثدييها، ولكنها تأكل حين يجوع الصغار !

– كلام كله صحيح ولكن ما الذى تقترحه لمواجهة هذا البلاء ؟ ولو قال كل واحد منا أخشى على امرأتي وعيالى فما الذي يصير إليه حالنا ؟

زفر حسن :

– الله المعين !

– هذا تواكل وتقاعس يا حسن !

علا صوت حسن :

– كفى تجريحا يا سعد .

كرر سعد فى عناد :

– بل تقاعس وتواكل وأهلنا فى عدوة الغرب يركبون البحر والمصاعب ليهاجموا الشواطىء ويحملوا القشتاليين ما يقدرون عليه من مخاسر، وأهلنا فى رءوس الجبال يقاومون فهل إن لجأوا إلينا طلبا للعون أو الحماية نقول : "نساؤنا وعيالنا ... اذهبوا وحدكم والله معكم .. وإن شاء الله حين تحرزون النصر الذى نرتجيه

نحملكم على أكتافنا ونعلن الشكر والامتنان !"

قال حسن بمرارة لاتخلو من سخرية :

- أنا لست مجاهدا يا سعد .

- وأنا أيضا لاأملك هذا الشرف ولكنى أتعاون مع المجاهدين. إن طلب منى أحدهم شيئا، أى شىء أقدمه مادمت قادرا .

- ولكنك تستقبلهم هنا فى بيتى وتذهب للقائهم من هذا البيت فتهدد كل من فيه، أمى وجدتى وأختى وزوجتى وصغارى !

- ما الذى تريده يا حسن ؟ !

- أريدك أن تكف عن التعامل مع المجاهدين .

- وإن لم أوافق ؟

- عليك أن توافق لأنك لاتعيش بمفردك.

- اذن سأرحل وأعيش بمفردى ... هل يريحك هذا ياحسن ؟

احتقن وجه حسن وصاح :

- لماذا تحرجنى ياسعد، لماذا ؟ هل تظن أننى لا أبالى ؟ هل تظن أن الأمر لم يشغلنى ولم يحيرنى، لم يسرق السكينة من نفسى والنوم من عينى ؟! لقد فكرت طويلا واستشرت بدلا من فقيه عارف ثلاثة، انتظر.

قام حسن وعاد بعد دقائق وهو يحمل ثلاث ورقات نشرها أمام سعد وقال:

- أنظر نسخت هذه الرسالة رغم مافى الاحتفاظ بها من خطورة، نسختها لكى تراها بعينيك وتسمع

مـافـيـهـا بـأذنيـك فـتـعـرف أنـنـى لا أجـبن ولا أتـقـاعـس ولا أخـرج عـن ديـنـنـا الحـنيـف الذى هـو يـسـر ولـيس عـسـرا. إسـمـع هـذه فـتـوى من أحد كـبار فـقـهـاء المغـرب يـحل لـنا التستر والتـورية على أنفسنا وصغارنا .

يقول :

" الحمد لله، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليماً . إخواننا القابضين على دينهم، كالقابضين على الجمر، من أجزل الله ثوابهم، فيما لقوا فى ذاته، وصبروا النفوس والأولاد فى مرضاته، الغرباء القرباء إن شاء الله، من مقابلة نبيه فى الفردوس الأعلى من جناته، وارثوا سبيل السلف الصالح فى تحمل المشاق، وإن بلغت النفوس الى التراق، نسأل الله أن يلطف بنا وأن يعيننا وإياكم على مراعاة حقه، بحسن إيمان وصدق، وأن يجعل لنا ولكم من الأمور فرجا، ومن كل ضيق مخرجا. بعد السلام عليكم، من كاتبه إليكم، من عبيد الله أصغر عبيده، وأحوجهم إلى عفوه، ومزيده عبيد الله تعالى أحمد بن بوجمعه المغراوى ثم الوهرانى كان الله للجميع بلطفه وستره، سائلا من إخلاصكم وغربتكم حسن الدعاء، بحسن الخاتمة والنجاة من أهوال هذه الدار، والحشر مع الذين أنعم عليهم من الأبرار، مؤكدا عليكم فى ملازمة دين الإسلام أمرين به من بلغ من أولادكم، وان لم تخافوا دخول شر عليكم من إعلام عدوكم بطويتكم، فطوبى للغرباء الذين يصلحون اذا فسد الناس، وان ذكر الله بين الغافلين كالحى بين الموتى ... "

قاطعه سعد :

- لايقول الشيخ فى فتواه : أما الذين أخرجوا من ديارهم مجاهدين فى سبيل الله وحقوقهم فاقطعوا بهم وأديروا لهم ظهوركم !

ازداد وجه حسن احتقانا وانفجر فى سعد :

- اسمع الكلام الى النهاية ولا تقاطعنى !

- " ... الصلاة ولو بالايماء، والهدية كأنها هدية لفقيركم أو رياء، لأن الله لا ينظر إلى صوركم ولكن إلى قلوبكم، والغسل من الجنابة ولو عوما فى البحور، وإن منعتم فالصلاة قضاء بالليل لحق النهار، وتسقط فى الحكم طهارة الماء، وعليكم بالتيمم ولو مسحا بالأيدى للحيطان، فإن لم يمكن فالمشهود سقوط الصلاة وقضاؤها لعدم الماء والصعيد إلا أن تمكنكم الاشارة بالأيدى والوجه الى تراب طاهر أو حجر أو شجر مما يتيمم به، فاقصدوا الايماء ..."

وكان حسن يواصل القراءة بصوت خافت به بعض رجفة وفى وجهه شحوب حتى اذا وصل إلى " فإن أكرهوكم على كلمة الكفر، فإن أمكنكم التورية والإلغاز فا فعلوا، والا فكونوا مطمئنى القلوب بالإيمان إن نطقتم بها ناكرين لذلك، وإن قالوا اشتموا محمدا فإنهم يقولون ممدا، فاشتموا ممدا ناوين أنه الشيطان " انسالت من عينيه الدموع وارتجف صوته بغصة فى الحلق يغالبها بمواصلة القراءة ولا يغلبها حتى وصل الى خاتمة الرسالة :

- " وما يعسر عليكم فابعثوا فيه إلينا نرشدكم إن شاء الله على حسب ماتكتبون به وإن أسأل الله أن يزيل الكره

للاسلام حتى تعبدوا الله بحول الله من غير محنة ولا وجلة بل بصدمة الترك الكرام ونحن نشهد لكم بين يدى الله أنكم صدقتكم الله ورضيتم به. ولابد من جوابكم والسلام عليكم جميعا ... ويصل الغرباء إن شاء الله " *

تطلع سعد إلى حسن بعينين واهنتين ولكن سعدا أجاب بحسم :

– هذه فتوى فى موضوع آخر ... هذا الفجر أرحل يا سعد !

-١٥-

ماتت أم جعفر وهى تنتظر عودة سعد. رحلت دون أن تنذر أهل الدار بمرض طويل أو قصير. أوت الى فراشها، واهنة صحيح، ولكن بلا علة تشكو منها. فى الصباح وجدوها على فراشها وقد أسلمت الروح .

- ما العمل؟

سألت أم حسن وهى تكفكف دمعها .

أجابها حسن .

- تدخلين الآن أنت ومريمة وسليمة وتغسلنها على طريقتنا، ثم تلبسنها ثوبها المطرز فأذهب لاستدعاء القس ليقرأ عليها مايريد قراءته ويمضى. ثم أعلم أبا منصور والخلصاء من الجيران ونصلى عليها هنا فى البيت ثم نحملها ونخرج من الدار لنشيعها وندفنها على طريقتهم.

- ندفنها على طريقتهم ؟!

- نعم ندفنها على طريقتهم !

كان وجهه مكتوم اللون يميل إلى زرقة والنظرة فى عينيه جامدة وبدا وهو يكر الكلمات كرا وكأنه حفظها حفظا وأرهقه استظهارها ثم قذفها بسرعة حتى لايخطىء فيها أو يتعثر.

حدقت أمه فيه فغض الطرف وقال :

- سأتوضأ وآتى بالمصحف .

قامت النساء بما أوصى به حسن وكن يبكين بصوت واهن يسكبن الماء الدافىء على الجسد المسجى بلا حراك وعندما أحضرت مريمة الثوب المطرز واقتربت من الجثمان مالت أم حسن على رأس أم جعفر المبلل بالماء وهمست :

- لا نضن عليك بالكفن ... والله لانضن !

وعلا نشيجها وانتحبت مريمة ثم صار النشيج عويلا ولم ينقطع حتى عندما جاء القس وتمتم بصلواته ووضع صليبا خشبيا صغيرا بين يدى المتوفاة ولاحين جاء الرجال بعد ذهابه وصلوا صلاة الميت عليها وخرجوا من الدار لتشييعها إلى مثواها الأخير بجوار زوجها.

وفى انتظار عودة الرجال كانت أم حسن ومريمة ونساء الحى يقمن بإعداد الطعام للمعزين وهن يبكين على أم جعفر وعلى الزمن الذى راح حاملا معه حق العباد فى الكفن وصلاة الجنازة.

لم تشاركهم سليمة الطهى ولا البكاء بل انسحبت الى حجرتها. كانت تفكر فى الموت الذى يقهر ويذل، وفى الانسان أمام الموت لاحول له ولاقوة، وفى الله فى السماء العالية. هل يشاهد كل شىء فى صمت ولامبالاة ؟ أليس هو الذى يقبض الروح فلماذا يقبضها ولماذا يطلقها أصلا لتحط فى القلب حينا ثم يناديها فترحل تاركة عشها

الدافيء قفرا ؟ بدا الله لها مبهما وغير مفهوم وجبارا اذ يُحمل عباده مالا طاقة لهم به . حدقت فى صورة جدتها الساكنة فى الموت فسرت فى بدنها رجفة واختنقت بغصة فى الحلق واحتبست فى عينيها الدموع . ميتة جدتها كالظبية والصغير الذى أرضعته فكيف ولماذا ؟ لم تكن تملك أن تفعل مافعله فى القصة حيّ بالظبية، أمه التى أرضعته، عندما شق صدرها باحثا عن الشيء المُصرّف للجسد بعد أن ناداها بالصوت فلم تجبه، ونظر الى عينيها وأذنيها وجميع أعضائها فلم ير علّة ولا آفة ووجدها رغم ذلك عاطلة من كل حركة.

أتت سليمة بالكتاب وفتحته على صفحة بغينها كادت تهترىء من كثرة ما عاودت قراءتها. قرأت :

" جرد القلب، فرآه مصمتا من كل جهة، فنظر هل يرى فيه آفة ظاهرة، فلم ير فيه شيئا. فشد عليه بيده، فتبين له أن فيه تجويفا. فقال " لعل مطلوبى الأقصى إنما هو فى داخل هذا العضو، وأنا حتى الآن لم أصل اليه ؟ "

فشق عليه. فألفى فيه تجويفين اثنين: أحدهما فى الجهة اليمنى، والآخر فى الجهة اليسرى. والذى فى الجهة اليمنى مملوء بعلق منعقد والذى من الجهة اليسرى خال لاشيء فيه فقال : " أما هذا البيت الأيمن فلا أرى فيه غير هذا الدم المنعقد، ولاشك أنه لم ينعقد حتى صار الجسد كله فى هذه الحال ". اذ كان قد شاهد أن الدماء كلها متى سالت وخرجت انعقدت وجمدت ، ولم يكن هذا الا دماء كسائر الدماء. وأن هذا الدم موجود فى سائر الأعضاء. لايختص به عضو دون آخر . وأنا ليس مطلوبى شيئا بهذه

الصفة. إنما مطلوبى الشيء الذى يختص به هذا الوضع الذى أجدنى لا أستغنى عنه طرفة عين، وإليه كان انبعاثى من الأول .

وأما هذا الدم، فكم مرة جرحتنى الوحوش والحجارة، فسال منى كثير منه، فماضرنى ذلك، ولا أفقدنى شيئا من أفعالى، فهذا بيت ليس فيه مطلوبى. وأما هذا البيت الأيسر فأراه خاليا، لاشىء فيه. وما أرى ذلك لباطل. فإنى رأيت كل عضو إنما هو لفعل يختص به، فكيف يكون هذا البيت على ماشاهدت من شرفه باطلا ؟ ما أرى الا أن مطلوبى كان فيه، فارتحل عنه وأخلاه. وعند ذلك طرأ على ذلك الجسد من العطلة ماطرأ، ففقد الادراك وعدم الحراك .

فلما رأى أن الساكن فى ذلك البيت قد ارتحل قبل انهدامه، وتركه وهو بحاله، تحقق انه أحرى ألا يعود اليه بعد أن حدث فيه من الخراب والتخريق ماحدث. فصار عنده الجسم كله خسيسا، ولا قدر له بالإضافة الى ذلك الشيء الذى اعتقد فى نفسه أنه يسكنه مدة ويرحل عنه بعد ذلك. فاقتصر على الفكرة فى ذلك الشيء، ماهو ؟ وكيف هو ؟ وما الذى ربطه بذلك الجسد ؟ والى أين صار ؟ ومن أى الأبواب خرج عند خروجه من الجسد ؟ وما السبب الذى أزعجه إن كان خرج كارها ؟ وما السبب الذى كره اليه الجسد حتى فارقه، إن كان خرج مختارا ؟

وتشتت فكره فى ذلك كله، وسلا عن ذلك الجسد، وطرحه، وعلم أن أمه التى عطفت عليه وأرضعته، إنما

كانت ذلك الشيء المرتحل وعنه كانت تصدر تلك الأفعال كلها، لا هذا الجسد العاطل. وأن هذا الجسد بجملته انما هو كالآلة لذلك، وبمنزلة العصا التى اتخذها هو لقتال الوحوش، فانتقلت علاقته عن الجسد إلى صاحب الجسد ومحركه، ولم يبق منه شوق إلا إليه ".

كانت " رسالة حى بن يقظان" كتابا من خمسة كتب أخذتها سليمة من عين الدمع بعد وفاة جدها ثم أتى لها نعيم خلسة بكتاب مرة ثم بكتاب ثان مرة غيرها. وكان فى كل مرة يؤكد عليها ضرورة الانتهاء منه فى أيام معدودة هى التى يتغيبها مخدومه القس فى سفرته القصيرة. يعطيها نعيم الكتاب فتظل تنتظر الليل، يأتى فتقرأ وتجتهد فى الفهم وتدوّن ويرهقها العمل فتغفو وفى نومها تتراكم فى رأسها الأفكار والخوف من أخذ الكتب فتجفل مستيقظة وتواصل القراءة. ثم يأتى نعيم ويعيد الكتاب حيث كان فى مكتبة القس .

أى طالب هذا الذى حصيلته ودرسه كتب معدودة ؟ تكرر سليمة فى مرارة وضيق، تهوّن على نفسها بأن بين الكتب كتابا بمائة كتاب خطه مولانا الأكمل والمتبحر الأفضل رئيس الحكماء الحسين بن عبدالله بن سينا درست على يديه عبر " القانون " كتابه. تهوّن على نفسها ولكن الأمر لايهون، وتختنق فى سجن الزمان الوضيع حيث اقتناء الكتب جرم له عقوبة، وحيث الدراسة تتوجب الحرص والكتمان والتخفى، ليس فقط تمويها على عين الغريب الذى يترصد بل أيضا على عين القريب. لاتملك أن تقرأ نهارا فيراها حسن أو أمها أو الصغار وهى تضع

على عينيها النظارة التى أخذتها من نعيم. تنتظر حتى يهبط الليل ويأوى أهل الدار الى فراشهم فتسرج القنديل وتقرأ فيتسع السجن، رويدا رويدا يتسع، ثم تتبدد قضبانه فى ضوء شمس تسطع من الكتاب وعقلها. أى طالب هذا الذى حصيلته عشرة كتب ؟ تكرر سليمة فى مرارة وهى تحدّق فى زمن قديم يأخذ بأيدى أبنائه الى المكتبات الكبيرة ورعاية أمير حكيم وترحال يجاوب شوق القلب الى علماء مصر والشام .. تقيم أو ترحل وفى الحالتين تغمرك شمس ألف كتاب هم درسك ومعلمك. فكيف لها من سجنها القشتالى الضيق أن تكشف سر ذلك العصفور الذى يرحل بقانون رب مبهم ؟! تيأس ثم لا تيأس، تكتفى بقانون ابن سينا ولا تكتفى فتضيف الى هوامشه أسئلتها وملاحظاتها وخلاصة قادتها إليها التجارب، تراعى الزمن الوضيع وقرارات حسن الصارمة بحماية الأسرة ثم لا تراعيها وتهمس فى أذن نعيم تطلب كتابا وتُسِر لامرأة تعرف شخصا يعرف شخصا يأتى لها بكتاب بعينه تدفع فيه كل ماكسبته من مال فى سنة كاملة .

لو أمها أوجدتها أو حتى مريمة التى لاتخفى عنها أمر اقتنائها للكتب عرفن كيف حصلت على كتاب ابن البيطار " الجامع " وما دفعته فيه لاتهمنها بالجنون وربما سقطت أمها مغشيا عليها من وطأة الخبر. ولكنها يوم حملت الكتاب بأجزائه كاملة ضمته الى صدرها الذي تسارعت دقات قلبها فيه وكأنما يضيق بقفص الصدر وهو يرقص منفلتا بلا حياء. وما الذى تساويه الدنانير أمام تلك الموسوعة التى تُفَصّلُ مفعول كل عشبة ونبات.

الحكيم من اشترى والذى باع أحمق تماما كأولئك الذين يبددون الأيام والليالى وجهد العقل الراجح فى محاولة تحويل المعادن الرخيصة إلى ذهب، نجحوا فرضا وحولوها فما الذى أنجزوه والموت يترصد، يرسل مبشريه يخترقون الأسوار بالأمراض التى تفتك ثم يأتى هو ويُسقط الجسد تحت سنابك خيله المنتصرة؟! ولم ينجحوا فبددوا العمر وبددوا ثمار العقل !

كانت سليمة عنيدة فى يقينها الآن أن العلة فى البدن، والشىء المُصَرِّف للجسد فيه. ماذا يكون ومن أين يأتى ولماذا يذهب ؟ أسئلة أرقتها وأعجزتها وإن لم تحولها عن يقينها. أغرقت السؤال فى تفاصيل بحثها اليومى عن الآفات الكثيرة التى تصيب البدن، تترصدها، وتنتج لها الماضى من الأسلحة، تستلهم الكتب وتنهمك فى تجاربها. كانت قدورها وقواريرها وأحقاقها وصناديقها عامرة بالأعشاب الخضراء والجافة والأمزجة والعجائن والمُركَّبات، تعالج فتخيب مرة وتصيب مرات، تبتسم راضية ولكنها لاتنسى تماما تلك المرارة التى زجت بهَا فى زاوية من القلب، مرارة المعرفة أن انتصاراتها جميعا جزئية لأن الموت الذى يطول قادر فى كل لحظة أن ينزل سيفه المسلط ويطلق ضحكاته الظافرة.

-١٦-

اشتهرت مريمة بين الجيران ونساء الحى بمفاجآتها المدهشة، يسعفها عقلها بحسن التصرف السريع الذى يحول مرارة حكم القوى على الضعيف إلى ضحكات عفية ساعة تنقلب الآية فيصبح القوى ضعيفا والضعيف قادرا ومزهوا.

كانت نساء الحى يتداولن ماقالته مريمة ومافعلته مريمة بلا ملل ولا كلل، ولم لا وكل حكاية منها تملؤهن بهجة وحبورا وتضىء الساعات الموحشة بالفكاهة والضحك .

وكان آخر ماتناقلته النساء هو واقعة ذهابها إلى معلم المدرسة التبشيرية لتقنعه أن أبناء العرب يولدون" هكذا" وإن لم تصدقنى ياسيدى المعلم فاطلب من أى واحد من أولئك الصغار أن يخلع سرواله فترى بنفسك. هكذا أولادنا نحن العرب يخلقون بشعر أسود كثيف ، ولاتؤاخذنى ، محرومين من تلك الزائدة التى يولد بها أطفالكم " .

وكانت مريمة قد قامت بتلك الزيارة بعد أن جاءتها إحدى جاراتها تبكى وتطلب النصح والمشورة لأن ابنها

البالغ من العمر ست سنوات كان يلعب فى فناء المدرسة حين زلت قدمه وسقط فانكشفت عورته. وكان المعلم يقف بالقرب منه فلما رأى ما رأى استشاط غضبا وأقسم أن يبلغ المسئولين فى ديوان التحقيق لكى يؤاخذوا أهل الولد على خرقهم للقوانين . طمأنت مريمة جارتها وقالت لها " لا تحملى هما وسأتصرف" وفى اليوم التالى ذهبت مريمة إلى المدرسة وطلبت مقابلة المعلم وقالت له ماقالت فابتسم ابتسامة مستخفة وقال بنظرة لاتخلو من الصرامة :

- هل تسخرين منى ؟ !

أجابته مريمة بقوة وحزم :

- ولماذا أسخر منك ياسيدى المعلم ؟! إننى أعلمك بحقيقة لاتعرفها لأنك قشتالى ولاتعرف الكثير عن أبناء العرب ... ولأنك معلم فإنه يعز على كثيرا أن يسخر منك أبناء العرب ويتهموك بالجهل . ولوتكرمت وتفضلت وزرتنا فى بيتنا يطلعك زوجى على عورة ابنى تجدها تماما كأولئك الصغار، رغم انه فى الثالثة من عمره. وبإمكانى أيضا أن أدلك على جارة لى وضعت ولدا من يومين اثنين، لوتكشف عليه تجد الشىء نفسه. وبإمكانك الآن فورا أن تدخل الى الصف وتطلب من الصغار أن يكشفوا لك عن عوراتهم فتتأكد من صحة كلامى .

وارتبك المعلم لأن السيدة التى كانت تجلس أمامه كانت تتكلم بثقة وقوة وحسم قدر أن مصدرها الصدق. ولكى يقطع الشك باليقين قام ودخل الصف وأمر الصغار أن يرفعوا أثوابهم ويخلعوا سراويلهم. دار بعينيه محدقاً فى

طفل بعد طفل فماوجد الا شيئا يتكرر، يختلف فى طوله أو امتلائه ويكاد يتطابق فى تجعيداته المحددة واستدارة طرفه، كان الأولاد جميعا وبلا استثناء متماثلين فى غياب ما أسمته السيدة بتلك الزائدة... طلب المعلم من الصغار التستر وخرج من الصف وعاد الى السيدة التى كانت تنتظر نتيجة الفحص وقبل أن يعلمها به قالت له بوجه مطمئن :

- ألم أقل لك ولم تصدقنى ... لم تجد ولدا واحدا يختلف عن الآخرين، أليس كذلك ؟! عليك أن تصدقنى الآن ياسيدى المعلم كما أن بشرتكم تميل الى البياض وبشرتنا تميل الى السمرة يولد أطفالكم الذكور بتلك الزيادة أما أولادنا فلا يولدون بها ... للأسف !

تمتم المعلم على استحياء :

- ولكنى سمعت أن العرب يختّنون صغارهم .

- صحيح ... كنا زمان نختن البنات كان هذا خطأ وتبنا عنه ... أما الأولاد فكيف نختنهم ؟!

وقامت مريمة وحياها المعلم وهو يشكرها ويعتذر عن سوء الفهم .

وضحكت البيازين وقهقهت أسبوعين بطولهما ولكن حسن لم يضحك بل وبخها قائلا إنها تورد نفسها مورد التهلكة وقد تتسبب فى أذى للعائلة كلها. " ولن تسلم الجرة فى كل مرة يا مريمة ! "

ولكنها كانت تسلم، بشكل أو بآخر تتمكن مريمة من مواجهة هذا الموقف أو ذاك بسرعة بديهة وذكاء فيتناقل

الجيران مافعلته ويضحكون ضحكا لايخلو أحيانا من توتر مصدره السؤال : ماذا لو أن التوفيق لم يكن قد حالف مريمة ؟ تسرى قشعريرة فى القلب الذى يواصل، رغم ذلك، الضحك .

كان أهل الحى يحبونها لأنها مريمة، ولأنها كانت تمنحهم بأفعالها تلك لحظات من الابتهاج العفى. وكان منهم من يدينون لها بمساعدتهم ومساعدة أولادهم فى الخروج من مأزق يعلم الله وحده كيف كانوا يخرجون منه بدونها. ولم يكن ذلك الشعور بالامتنان محصورا فى المعارف والجيران بل يتعداه الى غيرهم ممن لاتعرفهم مريمة. تولد الواقعة العرفان وزيارة تعارف تنزرع المودة فيها وتنمو.

لم تكن مريمة تعرف الصبى ولا أهله. ولكنها رأته قرب السوق فى غرناطة. كان فى الثامنة على الأرجح. وكان يمشى متقافزا مشرق الوجه يردد صلاة العيد التى لابد انه كان قد سمعها من الكبار أوشارك أهله فيها فى تلك الصلوات الجماعية التى تقام سرا فى العيدين. كان الولد يردد طربا: "الله أكبر، الله أكبر، الله أكبر، لا اله إلا الله وحده، صدق وعده، ونصر جنده وهزم الأحزاب وحده " دارت مريمة بعينيها فى المكان كصقر مهدد فلمحت حارسين قشتاليين وبعض المارة. ركضت على الولد ولطمته على وجهه فأخذته المفاجأة وانعقد لسانه واتسعت عيناه ذهولا. ولكنه لم يبدأ فى البكاء الا عندما أمسكت يده بقوة وراحت تصرخ فيه بالقشتالية :

– ألم أقل لك ألف مرة ألا تعاشر أولاد العرب، ها أنت لاتتعلم منهم إلا الموبقات !

وراحت مريمة تصيح وتنعى حظها العاثر وتجمع المارة حولها والحارسان بينهم فوجهت لهم الكلام :

– قولوا لى ما الذى نفعله، أليس من سبيل لحماية أولادنا من زمرة السوء تلك ... وها هو ابنى، ابن بطنى، أنا القشتالية الأصيلة صاحبة الدم النقى، يغنى أغانى عربية ويقول الله أكبر !

عادت تصيح فى الولد وتتوعده وأخذ البعض يهدئها مكررا أنه صغير ولايعرف ما الذى يقوله. ولمحت مريمة بين الواقفين رجلا من البيازين تعرفه، رأت فى عينيه ألقا متواطئا يشجعها على المضى فى اللعبة التى كانت قد انطلت تماما على القشتاليين فوبخ أحدهم الولد بشدة وأخذ أحد الحارسين يربت على رأس الولد وقال لمريمة :

– لاتقسى على ابنك هكذا، إنه صغير ولايدرى من أمره شيئا.

وكان الصبى مذعورا لايفهم ما الذى يحدث. أخذته مريمة من يده وابتعدت وفى الطريق سألته :

– أين بيتك يا ولد ؟

تلعثم ثم أجاب. أعادته الى أمه وقالت لها :

– عليك أن تعلمى الصغار أن يكونوا أكثر حرصا خارج البيت.

كانت مريمة قد نفذت ما أراده حسن فى تربيتها لصغارها. فى البيت يتحدثون العربية ويعيشون يومهم كما عاش آباؤهم وأجدادهم، وفى الشارع والمدرسة

يتحدثون القشتالية ويسلكون بمايرضى السلطة الحاكمة وديوان التحقيق. هذا ماأراده حسن.وهذا مانفذته ولكن بطريقتها .

– من يتحدث القشتالية فى الدار أو يفعل مايفعله القشتاليون يُسخط قردا فى الحال .

– وهل سبق أن انسخط طفل قردا من قبل يا أمى ؟

– كثيرون ... غدا آخذكم الى السوق وأريكم القرود التى يتكسب أصحابها من ورائها .. مساكين. لقد كانوا أطفالا لكل واحد منهم وجه كالقمر ثم انسخطوا قرودا !

– ومن يتحدث بالعربية خارج الدار ؟

– من يتحدث العربية خارج الدار، أو ينقل كلمة واحدة ممايدور فيه يضيع فى الطرقات وعبثا يحاول أن يعود الى البيت فلايعرف كيف، يدخل حارة ويخرج من حارة ولا يجد البيت كأنه فص ملح وذاب .

كانت مريمة تغالب زمانها فتبدو الأيام على ما فيها من منغّصات محتملة بل وأحيانا مبهجة لأن القلب يقوىْ وهو عامر بحب الصغار وحسن الذى تتجنب التفكير فى سلوكه وتميل إلى ما تختلقه له من أعذار وتبريرات. تقول لنفسها إنه يتقنّع بالصرامة تقنّعا وان حرصه الزائد الذى قد يرى البعض فيه تخاذلا ونقص شجاعة ليس سوى جهد مكلف للحفاظ على الأسرة وتجنيب أفرادها المشاكل. أحيانا تشعر به بعيدا وشرودا وحين يقترب تراه يضيق بالصغار ومنها كأنهم صاروا عبئا ينوء به ويضيق فتقول إنه لايريدها ولايريد صغارها وتراودها الظنون إن كانت امرأة أخرى قد شغلت قلبه من

بعيد أو قريب فعاد يضج بحياته معها. تكاد الشكوك تتملكها ثم تنفضها بعيدا وهى تكذبها مستعينة بذاكرة لحظات تختلف ترى فيها بجلاء قرب حسن وحنانه الحيى يشّف عن عذوبة روحه. تلوم نفسها قائلة هل أزيده ظلما على ظلم الزمان ؟!

* * *

لم تكن زيارة تحمل خيرا. دق أخواها الباب قبل طلوع الشمس. غيرت ملابسها وتبعتهما ومعها حسن. كان أبوها قد توفى فى الليل. كشفت مريمة الغطاء عن وجهه وتطلعت ثم أعادت الغطاء ثانية وظلت واقفة بلا حراك وطالت وقفتها كأنما انسحبت روحها فتعطل البدن لحظات طالت ثم انهمرت الدموع .

قال أخواها: " سنقوم بما يليق به وبنا. وليذهب القشتاليون إلى الجحيم ! " نصحهما حسن بعدم الاندفاع فى ذلك تجنبا للمشاكل. أصر الاخوان أما مريمة ففاضت دموعها ولم تقل شيئا .

غسلوا أبا ابراهيم وكفنوه وشيعوا جثمانه من بيته مرورا بالأزقة الضيقة التى تقود الى ذلك البيت العتيق المهجور الذى يفضى رواق من أروقته الى المسجد السرى. صلوا عليه ثم خرجوا به الى المقابر حيث دفنوه. وفى المساء اجتمع المعزون وتناوب أخواها تلاوة القرآن وتردد الصوت فى فضاء الحى ملحّا كالحنين .

فى مساء اليوم الثالث عادت مريمة الى بيتها. وقبل أن ينقضى الأسبوع كان القشتاليون قد اقتحموا بيت أبيها وألقوا القبض على أمها وشقيقيها. أين أخذوهم ؟ ما الذى يفعلونه بهم ؟ وهل يكتفى ديوان التحقيق بالتجريس والتغريم أو عام أوعامين من الحبس أم لايكتفى؟ هل تراهم بعد ذلك أم ينقضى العمر، عمرهم وعمرها، دون أن تلتقى العيون بالعيون ؟

لم يكن أمام مريمة سوى المواظبة على حضور مواكب " الأتودافى " لعلها تلمح فى واحد منها أمها أو واحدا من شقيقيها أو كلهم مجتمعين. تمنى نفسها بأن تراهم وأن يأتى الحكم بالبراءة أو بالغرامة، أو حتى بلبس عباءة المذنبين والطواف بحمار ولافتة عليها تفاصيل التهمة .

تبكر مريمة فى الخروج من دارها فى اليوم المعلوم وتنتظر خارج الكنيسة مع حشد يختلط فيه الأهالى مخلوعو القلب مثلها بجموع قشتالية أتت للفرجة والاستمتاع. ثم يشرئب عنقها وتعلو دقات قلبها وهى تلمح الموكب يقترب، صف من المتهمين يرتدى كل منهم الثوب المقدس ويمشى حافى القدمين حول عنقه حبل وفى يده شمعة، يدخلون الكنيسة ليؤدوا شعائر التوبة. لعله الزحام حال بينها وبين رؤيتهم . تهرول مريمة الى الساحة وتحتل موقعا يمكنها من رؤية كل شىء وتنتظر فى شمس الصيف الحارقة أو زمهرير الشتاء، تنتظر حتى تسمع دق الطبول ونفخ الأبواق وترى الأحبار ورجال ديوان التحقيق وكبراء البلد يقتربون ومن ورائهم موكب المذنبين. الكبار يجلسون فى أماكن

مخصصة لهم والمذنبون يصطفون متجاورين، وهى تبحث بعينيها، تحدق وتتملى، تعى ولا تعى الزحام المتزايد والجلبة والصخب. ثم تصيخ السمع وتستنفر حواسها جميعا فى الأذنين تتابع بهما ما يقرؤه المسئول من عريضة التهم والأحكام ينتقل من اسم لاسم ومن حكم الى حكم حتى ينتهى دون أن يرد ذكر أى من أهلها فتعود تجر قدميها خائبة الى الدار. لا تنتظر لتشاهد جلد رجل بالسياط أو حرق امرأة تنفيذا للأحكام. تذهب والساحة من ورائها صاخبة بحشود قشتالية جاءت للمشاركة فى الاحتفال بالفرجة على تفاصيله المثيرة، وبينهم بعض أفراد لهم من المذنبين حصة : أخ أو ابنة أو جار .

تعود مريمة إلى بيتها شاحبة الوجه زائغة العينين وتمرض يوما أو أيام تلازم فرشتها مهزومة الجسم واهنة تقول لنفسها ولحسن : " لن أذهب أبدا بعد ذلك ". ولكنها ما إن تعرف أن السلطات ستعقد احتفالها الرسمى ذاك حتى تتأهب وتحصى الأيام، وفى اليوم المحدد المعلوم تبكر فى الخروج .

صباح الأحد قال حسن لمريمة :

- أراك لم تستعدى للذهاب الى القداس ؟

قالت وكانت قد أمضت نهار اليوم السابق تتابع موكب المذنبين واعلان التهم والأحكام :

- إننى متعبة يا حسن ولا طاقة لى على ذلك .

ولكنه أصرّ :

- إنهم يترصدوننا يا مريمة. أخذوا أمك وأخويك وعيونهم عليك . هذا مؤكد. تحاملى على

نفسك والله المعين .

طاوعته وذهبوا الى الكنيسة جميعا باستثناء سليمة التى كانت قد حسمت الأمر قبل سنوات حين أعلنت بشكل قاطع ونهائى أنها لن تذهب إلا لو قيدوها بالحبال وجرّوها كالدواب. لم يعاود حسن مفاتحتها فى الموضوع وإن واظب على أخذ أمه وزوجته وصغاره تمويها وذرا للرماد فى العيون .

فى الكنيسة احتلت الأسرة مقعدا خشبيا بكامله. جلس حسن فى طرفه المشرف على الممر الأوسط وبجواره جلست أمه فالصغار وعلى الطرف الأيمن المشرف على الممر الجانبى جلست مريمة .

كان الضوء الخافت وقدم المكان وصوت القس الرخيم يضفى على قلب مريمة حزنا على حزن. جلست مطرقة الرأس ساهمة وقد مال جذعها قليلا الى الأمام وبدا أنها تحدق فى كفيها المسندتين المفتوحتين على حجرها. لم تكن ترى كفيها بل وجوه من رأتهم بالأمس فى موكب الخطاة، وجوها ممتقعة شاحبة، وعيونا زائغة غائرة يزيدهما هزال الوجه والاضطراب والخوف اتساعا. رغم الثوب المقدس الفضفاض الذى يستر الجسد كان الهزال باديا على أبدانهم وآثار تعذيب وعذاب الليالى الموحشة فى الأقبية المظلمة التى تسكنها الجرذان وأشباح من سكنوها وقتلتهم الوحشة أو نيران المحرقة . كان بين المحكومين صبية فى عمر ابنتها رقية كلما حولت عنها عينيها عادت عيناها إليها تتطلعان . وعندما ذهبت مريمة بقى وجه البنت يلازمها لايغيب.

وعندما راحت فى النوم جاءها فى المنام .

جفلت مريمة عندما صدح صوت الأرغن فجأة وسرت فى بدنها رجفة ثم فاضت من عينيها الدموع. رفعت رأسها قليلا وعبر الدموع رأته. كان قريبا تكاد تلمسه لو أنها مدت يديها.

كان يمينها مباشرة. حدقت فيه وارتفعت عيناها من قدميه الحافيتين الى ساقيه المتهدلتين إلى الجذع النحيل العارى إلى الكتفين الصغيرين إلى الرأس المائل فتاج الشوك يكلله. حدقت فى الضلوع نافرة من قفص الصدر وفى العيون مسبلة فى ألم مستكين، فى الذراعين ممدودتين على خشبة الصليب، توقفت عيناها عند الكف ثم الكف والمسمار فى كل منهما يثقب ويثبت لحم الانسان إلى صليب محنته. عادت تتطلع إلى الوجه. كان حزينا وبائسا يرهقه العذاب ولايفصح إلا برأس يميل قليلا كأنه لا يميل .

قامت مريمة وخطت إليه خطوتين وجثت على ركبتيها ومدت يديها تلامس القدمين الحافيتين. بدا لها أنها ستطلب شفاعته ولكنها عندما اقتربت منه ولمسته فاض قلبها وتمتمت " والسلام علىّ يوم ولدت ويوم أموت ويوم أبعث حيا. ذلك عيسى ابن مريم قول الحق الذى فيه يمترون " كانت ذراعاه الممدودتان على الصليب جناحين ينشرهما عليها محبة ورحمة . لم تطلب مريمة شيئا بل فتحت ذراعيها وأحاطت ساقيه ومالت برأسها قليلا وقبلتهما .

-١٧-

عرض القس ميجيل على نعيم أن يرافقه فى رحلته الى العالم الجديد. وجاء العرض مفاجئا لنعيم حتى أنه لم يعرف بماذا يجيب وطلب من مخدومه أن يمهله عدة أيام للتفكير فى الأمر. لو أن سعدا لم يتركه بهذا الشكل القاسى لما فكر لحظة فى الرحيل ولكنه صار مقطوعا من شجرة فلماذا لايرحل الى عالم جديد أو قديم أو حتى جهنم حمرا ؟! وما الفرق بين مكان وآخر فلا زوجة ولا أولاد ولا صديق. حتى أم جعفر ذهبت وثوى جسدها التراب. ثم أن القس رجل طيب سهل المعشر لا يهينه أبداولا يسىء إليه بل على العكس من ذلك يلحظ أحيانا تكدره لسماع أخبار ديوان التحقيق وجورها على العرب وغير العرب. والقس يتحدث عن عالم جديد كأنه الفردوس فى جماله وثرائه، لم لا يسافر؟ ولوعاد سعد ؟ ولِمَ لم يعد حتى الآن وقد مر على سفره ثلاثة أعوام ولاحس ولاخبر ؟!

كان نعيم يعيش موزعا بين جرحه من سفر سعد المفاجىء وقلق متوجس يتجسد أسئلة لاتنتهى : هل رحل سعد الى المغرب أم الى رءوس الجبال ؟ وهل يعمل مع المجاهدين على السفن المغيرة أم يجلس فى ستر كهف من الكهوف يتهامس مع رفاقه فى شأن الغد ؟ هل أصابه

مكروه أم تزوج بغير سليمة وأكرمه الله بصبى أو صبية؟ ترى أين أنت ياسعد وما الذى تفعله فى هذه اللحظة وهل يمر بخاطرك صاحبك نعيم أم انك نسيته كما نسيته يوم تركت غرناطة دون أن تأتى لتودعه ؟

قبل نعيم عرض القس وقبل يومين من سفره ذهب الى دار حسن ليودع أهل الدار. بكت أم حسن لسفره ولكن الصغار كانوا متوقدين يمطرونه بالأسئلة عن ذلك العالم الجديد الذى يقصده فيضحك ويقول لهم انه لم يره بعد لكى يحكى لهم عنه. " عندما أعود بإذن الله سأحمل لكم معى حكايات كثيرة وذهبا كثيرا أيضا لأنهم يقولون انها بلاد حصاها من الجواهر وتربتها من التبر الخالص " وكان يضحك لأنه لم يكن يصدق هذا الكلام على شيوعه وكثرة تردده .

وكان حسن يجلس صامتا يتطلع إلى نعيم، تثقله فكرة رحيله. يستحضر رحيل سعد ويتوجس من وحشة المواصلة وحيدا بلا سند .

– ومتى تعود يا نعيم ؟

– بعد عام، أوعامين لأن القس يقول إن الغرض من ذهابه هو أن يكتب كتابا. إنه يريد أن يرى كل شيء بنفسه ويسجله فى كتاب .

مد نعيم يده الى جيبه وأخرج منه ورقة مطوية وقال لحسن وهو يعطيها له :

– لو عاد سعد فى غيابى اعطه هذه الرسالة. قل له إننى أشتاق له وإن رحيله عذبنى . قل له إننى لن أطيل

السفر. قل له ... لاتقل له شيئا لقد كتبت ذلك كله فى الرسالة ... هل بإمكانى أن أودع سليمة ؟

سبقته إحدى الصغيرات الى حجرة سليمة وأعلمتها بقدومه . دخل ووقف متلعثما ثم قال :
- سأسافر الى العالم الجديد مع القس ميجيل .

تطلعت سليمة إليه فخال أنه رأى التماعة فى عينيها أو ربما اختلاجة فى وجهها. لم تقل شيئا بل مدت له يدها تصافحه . وحين استدار قاصدا الذهاب سمعها تقول :
- لا تغضب من سعد يا نعيم، انه يحبك كثيرا .

استدار اليها فرأى دمعة على خدها فهرول خارجا حتى لايراه أهل الدار وهو ينتحب .

هل نادى نعيم سعدا فى تلك الليلة الى الحد الذى سمعه سعد وهو فى القرية النائية ؟! وهل يسري صوت الصاحب إلى صاحبه عبر السهول والجبال ؟ فى تلك الليلة رأى سعد صاحبه فى المنام. كانا معا ومعهما سليمة وحسن يحيطون بأبى جعفر الذي كان منزرعا بطوله المديد فى المكان، وضاء الوجه يبتسم، يوجههم فيما يقومون به من عمل. يرتب حسن أوراق المخطوط، وهو يقص الجلد اللازم لتغليفه، ونعيم ينحنى على غلاف يعتنى بكتابة العنوان سلاسل حروف تتمايل كالأغصان عفية ومرهفة. " من أين لنعيم بهذا الخط الجميل ؟! " يتطلع اليه سعد، وسليمة تقف بباب الحانوت مع ظبيتها تقول إن الكتاب لها فيبتسم أبو جعفر قائلا : " صبرا

يا سليمة ... ننتهى أولا من الكتاب ثم نعطيه لك، سنعطيه لك ".

هل يفتقدهم إلى حد استحضارهم فى المنام أم أن حلمه رؤيا وبشارة بلم الشمل ؟ تساءل سعد وهو يستعيد تفاصيل حلمه، لابد أنهم ينادونه وها هو ذا قلبه قد سمع النداء. سينزل غرناطة للقائهم .

كان قد مضى عليه ثلاثة أعوام وهو يعيش بين شباب المجاهدين فى قرية جبلية مستورة عن العيون الغريبة. كان يقطع الطرقات الوعرة التى يجهلها القشتاليون حاملا مع رفاقه المؤن والرسائل إلى فدائيى البحر الذين يهاجمون الشواطىء ويوجعون جند قشتالة وحكومتها بغاراتهم. وكان يساعد فى تنظيم وصول أهالى القرى الذين قرروا الهجرة الى شاطىء الرحيل. تأتيهم رسالة من قرية بعينها فيدخلونها تحت جنح الليل سرا ويلتقون بشيوخها ويعدون كل شىء بالجملة والتفصيل. وفى اليوم المعلوم يجتمع من انتوى الرحيل من الأهالى فيقودهم سعد ورفاقه فى المسالك الجبلية غير المطروقة. أطياف بلا صوت تسرى فى جوف الليل يسترها وقلوب السارين التى تفيض تحجز فيضها فى الصدور، لاحدو، لاغناء، لا إنشاد. فاذا مالاح لهم الشاطىء توقد الأطفال وتقافزوا مستثارين وتحرك الكبار فى همة ينقلون عيالهم وأمتعتهم الى المراكب. تتعاقب على عيونهم شموس وليل، تضىء العيون برجاء الخلاص وتعتم بحزن الرحيل عن زيتونة الدار وغصن ريحان لن يضعه أحد على قبر الآباء . يصعدون فتتحرك بهم المراكب الصغيرة الى

السفن الكبيرة الراسية فى عرض البحر تحملهم وتبتعد .

كانت سليمة كعادتها تنحنى على كتاب من كتبها تدرس تفاصيله فى ضوء سراج حين سمعت الصوت فتلفتت ثم عادت الى الكتاب قائلة لنفسها : " هيىء إلى " ولما سمعت الصوت مرة ثانية تيقنت أنه سعد ينادى. ركضت إلى خارج الدار وفى عتمة الفناء لقيته. فتح ذراعيه واسعتين وضمها فضمته، وقبلها فقبلته، ثم أمسكت بيده فتبعها الى داخل البيت وكان أهله نياما .

فى حجرتها جلس سعد أمامها حييا لايعرف ما الذى يقوله، وجلست هى أيضا تتطلع مضطربة. طالت غيبته تسعة وثلاثين شهرا بدت كعشر سنين ... هل لأنها افتقدته أم لذلك الشيب المتكاثف على فوديه وخطوط استجدت على الجبين وتحت العينين فى بشرة لوحتها رياح ثلجية أو قيظ شمس حارقة ؟ قالت سليمة :

- طال غيابك يا سعد .

أقبل عليها فالتقيا لقاءً صاخبا محمولا على شوق الجسد وحرمان الروح تطلب الوصل وتلح فيه. أنالها وأنالته فرفعتهما موجة الوصل عالية فيشهقان بين موت وحياة وموجة تغمر وأخرى ترفع وقاع مظلمة عميقة وزرقاء عالية تتوهج بحرارة شمس لاهبة تتقد، يشهقان، يجمع البدن والروح فيه تحتشد فاذا مالاح شاطىء الوصول انطلقت نوارس البحر تطرز الفضاء بأبيضها وتهلل .

وعلى شاطىء الوصول سكنا وتحدثا، تحدثا طويلا وبصوت هامس، وعندما غردت عصافير الصباح راحا فى نوم عميق.

أضفى حضور سعد المفاجىء على الدار بهجة كبهجة الأعياد. كان الكل فرحا مستثارا. وكان حسن أكثرهم جذلا يضحك كما لم يضحك منذ سنين، يمازح سعدا ويحدثه ويسأله ويسمع منه حتى احتج الصغار وأم حسن لأنه لايتيح لهم فرصة الحديث مع سعد .

وكان سعد يكاد لايصدق أن ثلاث سنين فرقت هكذا فرُقية وأختها الأصغر منها مباشرة اللتان تركهما طفلتين صارتا صبيتين لن يستغرب لودق باب حسن من يطلب الزواج منهما. وهشام الذى كان يتعثر فى المشى ولا يعرف من كلمات اللغة سوى كلمتين أو ثلاث أصبح يتحدث بطلاقة ويفهم ما يقال له ويجيب ويقول إنه بعد عام واحد سيذهب الى المدرسة ليتعلم القراءة والكتابة .

- تتعلم العربية أم القشتالية يا هشام ؟
- فى المدرسة أتعلم القشتالية وفى البيت يعلمنى أبى العربية كما علمها لأخواتى.

فيضحك سعد مسرورا بفطنة الولد ويقول لأم حسن :
- أوقدى البخور وارقيه من عينى .
فيضحك حسن ولكن أمه لاتضحك بل تتلو " قل أعوذ برب الفلق " تبدؤها مسموعة ثم تكملها فى سرها تكشفها حركة شفتيها المتمتمتين .

لم تشاركهم سليمة ولا مريمة الجلسة اذ كانتا قد بكرتا في الخروج إلى السوق لشراء بعض لوازم الطعام. كانت مريمة قد قالت لسليمة :

– ليس يوما كباقى الأيام، إذن تعالى معى الى السوق .

طاوعتها سليمة وما ان ابتعدتا عن الدار حتى قالت مريمة وهى ترمقها بنظرة ماكرة :

– كانت ليلة بألف ليلة، أليس كذلك ؟

تضرج وجه سليمة بحمرة الخجل، قالت :

– ما الذى نشتريه للطعام ؟

– سأذبح خروفا !

قبل المغرب كان الخروف مطهيا ينتظر الآكلين. لم تكن الضحكات العالية التى ميزت الوليمة ترجع فقط لعودة سعد والتئام شمل العائلة ولحم الخروف الشهى ولكن أيضا بسبب حكاية الخروف التى أضيفت إلى سجل مريمة الحافل بالحكايات .

" حين قلت لسليمة إننى أنتوى ذبح خروف احتفاء بسعد ظنتنى أمزح، أليس كذلك يا سليمة ؟ ولكنى طبعا لم أكن أمزح. صحيح أن الذبح فى البيوت محظور وقد تكون عاقبته السجن ولكنى كنت قد قررت وتوكلت. دخلت على البائع فى سوق الدواب عابسة الوجه وكأننى أحمل هم الدنيا والآخرة قلت له :

– لى ولد، ولد وحيد، أكرمنى الله به بعد خمس بنات. ولقد عاهدت نفسى ألا أرد له طلبا وأوفيت. ولكن منذ أسبوع جاءنى الولد وقال «أريد خروفا " قلت " وما الذى تفعله بالخروف ؟ " قال " ألعب به " قلت : إن شاء الله "

ولكنى طبعا ما كنت أنوى شراء الخروف فهل هذا زمن يشترى فيه الإنسان خروفا للصغار يتسلون به ؟! ولكن الولد ياحسرة قلبى مرض بالأمس ".

قاطعها هشام محتجا :
- ولكنى لم أمرض، ولم أطلب خروفا !
أشارت عليه أخواته بالسكوت فسكت. كن يتابعن الحكاية باهتمام مستثار. قالت مريمة :
- " الولد ياحسرة قلبى مرض بالأمس وصار جبينه كالنار الحارقة وبات طول الليل يهذى ويطلب الخروف ... ألا ترى أن من واجبى أن أشترى له خروفا ؟
قال البائع وقد بدا عليه التأثر :
- طبعا تشتريه. ويا اختى إن نقص عليك ثمنه فلا تحملى هما . ادفعى ما معك الآن وبعد أيام أو شهور تدفعين الباقى .

قالت سليمة :
- لو رأيتم مريمة وهى تكاد تبكى وتُبكى البائع لقلتم إن هشاما مريض فعلا.
قالت مريمة مستعيدة خيط الحكاية :
المهم شكرت الرجل وقلت له:
- انت رجل طيب وأصيل، هل عندك أولاد ؟
قال : "
- سبعة .
قلت :
- باركهم الرب وحفظهم لك . شكرا يا أخى على عرضك لقد مررت على الصائغ وبعت له خاتمى

الذهبى. كم ثمن الخروف ؟"

أكملت سليمة وهى تضحك :

– قبل أن نترك البائع كان قد بدأ يحكى حكاية" هذه المرأة المسكينة التى باعت خاتمها لتدخل السرور إلى قلب ابنها المريض " وفى الطريق الى الدار حكت مريمة حكاية الخروف ثلاث مرات، مرتين بالقشتالية ومرة بالعربية. والله أعلم أن واحدا ممن حكت لهم الحكاية كان من موظفى ديوان التحقيق !

قال حسن :

– وإن سأل أحدهم عن الخروف غدا أو بعد غد ؟

قالت مريمة وهى تبتسم :

– سأقول مات الخروف، أتنهد وأقول سامح الرب البائع أعطانى خروفا به علة ولولا أن له سبعة أولاد وأن لى قلبا طيبا لاستنزلت عليه غضب الرب. ولكن من يدرى لعلها إرادة الرب الحكيم ورحمته التي أماتت الخروف وأعادت الصحة الى ابنى !

بعد العشاء اختلى حسن بسعد ليسمع منه وحكى سعد عن القرية الجبلية التى يقطنها :

– كأنها غرناطة القديمة يا حسن، تألف صوت المؤذن فيها والأهازيج والأغانى فى الأعراس وفى الحقول. نتحدث العربية بلا حرج وفى كل وقت ونرتدى ملابسنا المعتادة ونستطلع هلال رمضان ونحتفل بالعيدين.

– وليس فى القرية أى قشتالى ؟

– ولاقشتالى واحد !

– عجيب .

- إنها قرية نائية منسية فى الجبال ربما لايعرفون أصلا أنها موجودة.

- وهل تنوى البقاء هناك طويلا ... هذا بيتك يا سعد وبإمكانك العودة متى أردت.

- يصعب ذلك الآن يا حسن. عندما كنت مقيما هنا كنت أساعدهم بالقدر الذي أستطيعه، الآن أعمل معهم .

- وتبقى هناك ... نهائيا ؟

- ادع معى أن ينزاح الكابوس فتنتفى ضرورة عملنا. لعل الله يهدى بني عثمان أو المغاربة فيجردون الحملة الكبيرة المنتظرة .

- هل تعتقد أن ذلك ممكن أم أننا نمنى أنفسنا بالمستحيل ؟

زفر سعد ولم يقل شيئا .

- كيف ماتت أم جعفر يا حسن ؟

حكى حسن دون استفاضة ولكن سعدا استفسر منه عن التفاصيل فنقلها له . فقال سعد :

- فى الصباح أذهب لزيارة قبرها ثم أذهب الى نعيم لأعلمه بوجودى .

تطلع حسن اليه وكاد يخبره برحيل صاحبه ثم أجل الأمر الى اليوم التالى .

- قم ياسعد الى امرأتك، لقد امتد بنا الحديث وتأخر الوقت .

فى الصباح اصطحب حسن سعدا الى قبر أم جعفر

وقرأ الفاتحة على روحها . وفى طريق عودتهما حكى حسن عن سفر نعيم وأعطى سعدا الرسالة فقرأها واجما ولم يقل شيئا . فقال حسن :

– تعال معى سأريك ذلك الخان .

فى الطريق الى رصيف حدرّه حيث يقع الخان حكى حسن لزوج أخته:

– اشترى هذا الخان اثنان من آل طاهر من بالينسية وهم عائلة كثيرة العدد ثرية ومتنفذة حتى يقال إنهم استطاعوا قبل عدة سنوات أن يحصلوا على براءة ثلاثة من شبابهم اتهمهم ديوان التحقيق بالاتصال بالفرنسيين والإعداد لتمرد بين العرب والأهالى يربك سلطات أراجون فى حالة غزو فرنسى. يقال إن والد الشباب وأعمامهم سافروا الى مدريد وبرشلونة واتصلوا بالبلاط وبالمجلس الأعلى لديوان التحقيق ودفعوا مبالغ طائلة ونجحوا فى الإفراج عن أولادهم .

المهم الرجلان اللذان اشتريا هذا الخان من نفس العائلة، لا علاقة لهما طبعا بموضوع الشباب الثلاثة، ولكنهم من نفس العائلة. ويبدو أن لهما نفوذا كبيرا لأنهما تمكنا من شراء هذا الخان وتسجيله رغم قرار حظر شراء الأراضى والبيوت على العرب داخل نطاق مملكة غرناطة .

ولقد أرسل لى هذان الأخوان بمن يعرض على إدارة الخان وتولى شئونه . وقال لى المرسال إنه فى حالة موافقتى فسيأتى الرجلان للاتفاق معى على التفاصيل . ما رأيك ؟

كان سعد ينقل عينيه فى أرجاء المكان يتأمله . وكانا قد دلفا من بوابة خشبية عبر ممر إلى فناء مربع مكشوف يتوسطه بناء حجرى من طابقين. ويحيط بالفناء من جهات ثلاث مشرفيات تحمل أعمدة عقودها وسقف رواقها شرفة خشبية ممتدة بامتداد أضلاع ثلاثة من الأضلاع الأربعة للطابق الثانى .

إلى يمين الداخل مباشرة حظيرة واسعة للدواب عال سقفها وتقطعها المزاود والمساقى، والى يساره درج حجرى يقود الى الشرفة الخشبية التى تفتح عليها أبواب غرف النزلاء .

فتح حسن بابا. كان يفضى إلى غرفة مستطيلة تتسع لفراش وخزانة خشبية وتضيئها نافذة كبيرة ترتفع مستطيلة لتنتهى مقوسة. قال حسن:

– فى هذا الطابق خمس عشرة غرفة خمس فى كل ضلع. وفى الطابق السفلى عشر غرف ومخزن لبضائع النزلاء والحظيرة من ناحية وقاعة واسعة لطهى الطعام وتناوله وللاستدفاء بالنار فى الشتاء أما فى ليالى الصيف فهناك الفناء والرواق المحيط به نفرشهما بالأبسطة والأرائك الخشبية، مارأيك ؟

– إنه جميل وواسع وكثير المنافع. قدرك الله على إدارته فهو يحتاج الى جهد عدة رجال.

– لو جاءنى هذا العرض قبل سفر نعيم لاستبقيته ليعمل معى . لقد طلبت من أبى منصور أن يعاوننى .

– وهل يقدر ؟

– يقدر ولكنه يسرف فى شرب الخمر. طلبت منه أن

يعمل معى على أمل أن يجد فى هذا الشاغل الجديد مايصرفه عن الشراب .

خرجا من الخان إلى بيت أبى منصور ولكنهما لم يجداه.

قضى سعد فى دار حسن ثلاثة أيام ثم أسرى فى ستر الليل عائدا الى قريته الجبلية. ودعه الصغار والكبار، بكت أم حسن وبدا وجه سليمة شاحبا وقال وهو يغادر الدار : " سأعود قبل نهاية الصيف وإن لم أوفق فى ذلك أحضر فى الخريف لكى أقضى معكم عيد الفطر. "

كان سعد وهو يودع غرناطة عائدا إلى رفاقه يسترجع لحظات الوصل مع سليمة فتثقل عليه أكثر أحزان الرحيل. ولم يكن يدرى أنه أودع امرأته فى لحظات الوصل تلك بذرته ولا علم بعد شهور من ذلك أن النطفة في أحشائها كانت تتخلق وتنمو حتى خرجت طفلة كحلاء العينين مثله تحتضنها سليمة بلهفة مضاعفة وهى تنتظر عودة أبيها لتعلمه ان اسمه قد أصبح "أبو عائشة" .

ورغم قلق لايتبدد لغياب سعد الذي لم يعد فى نهاية الصيف ولا فى نهاية الشتاء الذى تلاه إلا أن ولادة عائشة أضفت على البيت فرحا مستجدا وقد عاد يملؤه صراخ وليد وانهماك الأهل فى مشاغله الكثيرة. ووجدت القادمة الجديدة بدلا من صدر أم واحدة صدور أمهات كلهن يدللن ويحنون. ولم تكن سليمة ومريمة وأم حسن وحدهن المنهمكات فى رعاية الصغيرة بل أيضا بنات حسن، الأكبر

منهن وجدن فيها بنتا يمارسن عليها أمومتهن المبكرة والأصغر أقبلن عليها كأنها لعبة مثيرة ومدهشة .

وحده هشام لم يجد له دورا فى ذلك كله. كان يكبرها بخمس سنوات ولايرى فيها سوى ضيف ثقيل خلعه عن عرش أهميته. يتحمل الولد همه فى صمت ثم تبدر منه إشارة أو فعل يفصح عن ضيقه وكدره. ولم يكن أبوه ليتحمل ذلك منه بل يوبخه بعنف فيزداد الولد حنقا على حنق.

وكان حسن موقنا أن فى قدوم هذه البنت وعد خير وحسن طالع. فبعد ولادتها بأيام معدودة توالت على البيازين أخبار نبض قلب الحى لسماعها ورفرف وتألقت العيون فقدائيو البحر الآتون من الثغور المغربية قاموا بغارة قسمت ظهر الأسبان ومرغت أنوفهم فى الوحل. رست سفنهم فى ستر الليل على الشواطىء كالمعتاد ونجحت فى حمل ستمائة مهاجر أخذتهم فى أمان الله وأبحرت ولكن السفن الأسبانية فاجأتها فى عرض البحر واشتبكت معها. لم تكتف سفن المجاهدين بالدفاع عن نفسها بل انقضت مهاجمة وأغرقت بعض سفن العدو وحاصرت البعض الآخر وأسرت من عليها ومن بينهم القادة والنبلاء وعادت بالسلامة الى الشواطىء المغربية .

استقبلت النساء الخبر بالزغاريد، نساء البيازين زغردن فى قلوبهن أما نساء العرب أنصارا ومهاجرين فأطلقن الصوت من شاطىء الوصول الى أهلهم المجاهدين على متن السفن وهى تتهادى وتقترب .

" عائشة ابنة سعد وسليمة قدم خير وبشارة " يكرر حسن ويضم الصغيرة إلى صدره. لايبدأ يومه الا بالاصطباح بوجهها ولايخلد إلى النوم الا بعد أن يطبع قبلة على جبينها وإن كانت مستغرقة فى النوم أو تبكى بحرقة على طريقة المواليد .

ولما كان على حسن أن يسجل البنت فى الأوراق باسم أعجمى فقد سماها " إسبيرانزا " يناديها عائشة مرة وإسبيرانزا مرة وأمل ألف مرة .

-١٨-

جلس نعيم في ركن من الحجرة يراقب يد الأب ميجيل وهى تغمس الريشة فى المحبرة وتكتب ببطء من اليسار إلى اليمين ثم تعود تغمس الريشة وتواصل. كان نعيم يتمنى أن يترك القس عمله ولو لحظات ويبادله الحديث. ولكن الأب ميجيل كان منهمكا تماما فيما يكتبه.

فى ضوء القنديل بدا له القس شيخا واهنا أنهكته السنون . وكان ثوبه الرهبانى الداكن وقامته المنتصبة وخطوته الواثقة تضفى عليه فتوة لا أثر لها الآن وهو جالس فى منامته البيضاء يميل رأسه قليلا فتميل معه خصلات شعره الفضية الناعمة تجلل وجهه الممتلىء المستدير شاحبا ومتغضنا.

هو أيضا متعب، ولعله مثله تداهمه الكوابيس ... ولكنه لا يصحو صارخا فى الليل، لم يسمعه يفعل ذلك ... لم يره يبكى الا مرة واحدة. سمع الصوت فهرول إليه ورآه عبر الباب المشرع جاثيا على ركبتيه، رافعا ساعديه، مسندا ذقنه الى يديه المضمومتين. كان يصلى وينتحب بصوت عال مهزوم.

فى ذلك اليوم كانا قد شاهدا أجساد عشر من نساء البلاد تتأرجح فى حبال مشنقة ثبتت في هيكل خشبى مستطيل، هيكل عال ترك بين أقدام النساء والأرض من تحتها مسافة تكفى لتعليق صغارهن فى حبال تتدلى من أقدام الأمهات .

فى المساء بكى القس ولم يبك نعيم بل فكر فى أن الله لطف بالأمهات اذ جاء شنقهن أولا ثم شنق أطفالهن بعد ذلك. وكان قد رأى قبل ذلك بأيام معدودة هول أن يقتل الصغير أمام عينى أمه. كانت امرأة جميلة بها امتلاء وعذوبة تحمل رضيعا، ابن سبعة شهور أو ثمانية، ورث عنها الامتلاء واستدارة الوجه والغمازتين فى الوجنتين. أى حظ تعس حملها إلى ذلك المكان فى تلك اللحظة ؟ ولكنها أقبلت تتهادى، رائقة البال، تحمل طفلها آمنة مطمئنة. ولما باغتها الرجل القشتالى بوغتت وانطلقت منها صرخة حادة مفاجئة لم تحل دون انتزاع الطفل منها. فى لمحة كان القشتالى قد انقضّ عليها واختطف الصغير من بين يديها وألقى به علّى امتداد ساعده فى اتجاه كلبه الجائع. كلب أسود قنّاص له خطم طويل وقوائم عالية وأذنان كالماعز كبيرتان متهدلتان. قفز الكلب قفزة واحدة أنزلته على الطفل فراح ينهش. واختلط صراخ الأم وصراخ الصغير بضحكات القشتاليين الذين التفوا للفرجة. كانوا جميعا يضحكون بصخب سوى اثنين أحدهما يحدق فى المشهد ويهز رأسه فى اتصال آلى، وثانيهما يستخدم قوة ذراعيه فى تطويق المرأة لمنعها من محاولة الوصول الى صغيرها. واصل الكلب وجبته، والرجال الضحك، والمرأة الصراخ حتى أسكتتها طلقة

نارية فسقطت على الأرض غارقة فى دمها ثم ساد الصمت.

عندما رست به السفينة ونزل مع مخدومه الى هذا العالم الجديد أسرته النساء أكثر من خضرة الأشجار ودكنة جذوعها السامقة. نساء عرايا كالحوريات يتطلع إليهن فتتسارع دقات قلبه وتلتهب روحه وتتوقد بالرغبة الملحة. يوم، يومان، ثلاثة ثم رأى لهاث الرجال وسعارهم وهم يطاردون الفرائس حتى يظفروا بها، يمزقون اللحم ويلجون. ركض الى القس مذعورا وحكى له فقال: " غدا أقابل الحاكم وأخبره. إن ذلك إثم يا ولدى، إثم كبير يغضب الرب وإن تكرر فإن الرب ينزل بنا عقابا مهلكا يشملنا جميعا من اقترف الخطيئة ومن تبرأ منها ! " .

لم يعد نعيم يركض مرتاعا ليحكي ما شاهدته عيناه فالقس يعرف ولايملك سوى لقاءات لاجدوى منها مع الحاكم ونائب الحاكم وكتابة رسائل لاتنتهى الى الامبراطور ورجالات البلاط فى أسبانيا والبابا فى روما .

أثداء النساء العرايا، قدودهن السمهرية، عيونهن الآسرة يمر بها نعيم دون أن يتطلع ، يمر ويغض الطرف كأنما هاتيك النساء من أهله لايملك أن يقتحم حرمتهن بالتحديق، ويخشى أن تلتقى العينان بالعينين فيقتله الخزى من عريهن وعجزه .

لو أن القس يتوقف عن الكتابة ويبادله الحديث. لو أن بإمكانه أن يتحدث لغة أهل البلاد لكان قد تعرف على

العديد منهم وصادق بعضهم. كان يراهم وهم يعملون فى قطع الأشجار أو شق الطرق أو نقل الأحجار، دائما فى حراسة الرجال المسلحين. يتطلع إليهم، يخمن طبائعهم وخصالهم. يقول هذا الشخص طيب وذاك أقل طيبة وذلك معتد بنفسه، كريم فى قومه ... يود لو يقترب منهم ويبادلهم الحديث فيعرفهم بنفسه ويسمعهم حكايته ويسمع حكايتهم ولكن كيف وهو يجهل لغتهم، وهم لابد يظنونه من أولئك الذين ألقى بهم البحر عليهم لكى يسوموهم العذاب ؟!

أغمض نعيم عينيه واستحضر صورة ذلك الكهل الذى رآه مرارا حتى ألف كل منهما وجه الآخر. كان نعيم حين يمر به يبتسم ويرفع يده بالتحية. فى المرة الأولى حدّق الرجل فيه كأنما يتساءل ثم صار يبتسم هو أيضا ويحييه بنفس الطريقة فيرفع يده حتى تلامس جبهته . لو كان يفهم لغتى، لو كنت أفهم لغته لقلت له : " لست منهم ... هل ظننتنى منهم ؟ ! انا من غرناطة ... " ويحكى له طويلا فيألفه الرجل ويحبّه ويدعوه الى بيته ومن يدرى لعل له ابنة طيبة مثله فيطلب منه يدها "صحيح اننى غريب واننى على مشارف الأربعين ولم أعد وسيما كما كنت ولكنى طيب القلب أصون امرأتى وأمنحها محبة وأطفالا، ما قولك يا عم؟ " .

بين الصحو والنعاس رأى نعيما الصبية التى سيتزوجها، ابنة الرجل، كانت تشبه تلك التى رآها ذات يوم بعيدا بالقرب من غرناطة فأسرته. كانت تشبهها بشكل مدهش. ولم تكن عارية بل كانت مثلها ترتدى ثوبا

أبيض .

- يبدو أن النعاس بدأ يثقل جفنيك يانعيم، قم الى فراشك يا ولدى.

ولكن نعيم فتح عينيه واسعتين وقال :
- أبدا يا سيدى القس لا أشعر بالرغبة فى النوم بعد .
فابتسم الأب ميجيل وقال وهو يهز رأسه :
- بل كنت نائما وربما كنت تحلم وأيقظك صوتى .
- سيدى القس هل تسمح لى بسؤالك عن شىء ؟
- اسأل يا ولدى .
- ما الذى تكتبه، ما الذى تكتبه بالضبط ؟
- أكتب، أقصد كتبت فعلا الحكاية من أولها. كتبت عن رحلات كريستوبال كولون الأربع، والصعوبات التى واجهته، والنجاح الذى حققه، والآن، فى هذا الشهر الأخير، أكتب عن الجزيرة وأهلها، أصف الأحوال المناخية على مدار العام، وأرصد أنواع النباتات والطيور والحيوانات وبعد ذلك سوف أكتب عن الأهالى، أصف أشكالهم وطريقة حياتهم وأفكارهم ومعتقداتهم .
- ولكن ..
تلعثم نعيم .
- كيف تعرف أفكارهم ومعتقداتهم ولم تتحدث مباشرة إليهم ؟
- ألاحظ سلوكهم وأجمع ملاحظاتى إلى ملاحظات الآخرين ومنها أستنتج أفكارهم ومعتقداتهم .
- وهل تكتب يا سيدى القس عن تلك الأشياء الآخرى أيضا ؟

- نعم يا ولدى كتبت وسأكتب المزيد عن كل الأشياءالموجعة التى رأيتها وسمعت عنها وسوف أضيف أنه من العار حقا أن نحول حلم الرجل العظيم الذى اكتشف هذه الأرض إلى هذه الشراسة غير المفهومة. هل تعلم يا نعيم ما هى الدوافع التى حركت كولون ودفعته للإبحار والمخاطرة ؟
- اكتشاف أرض جديدة يا سيدى .
- لم يكن ذلك الا وسيلة ياولدى، وسيلة لتحقيق حلم سام نبيل يتلخص فى هدفين جليلين لا ثالث لهما : أن ينشر كلمة الرب بين من لم تصلهم من قبل فيضمهم الى أحضان الكنيسة وأن يحصل على الذهب ليجرد حملة صليبية الى الأراضى المقدسة تفتح القدس وتستعيد قبر السيد المسيح من أيدى من يكفرون به .
- ولكن المسلمين لا يكفرون بالمسيح ياسيدى القس !

كانت العبارة قد أفلتت منه بلا تفكير ولم يكن بالامكان سحبها . حدجه الأب ميجيل بنظرة صارمة وقال بحسم :
- بل يكفرون به !

قام القس ميجيل وكان ذلك إيذانا بانتهائه من الكتابةواستعداده للنوم فقفز نعيم واقفا وقال :
- شكرا يا سيدى على سماحك لى بالجلوس هنا . آمل ألا أكون قد أزعجتك بأسئلتى ... طابت ليلتك .

لم يكن هناك بد من أن يعود نعيم إلى حجرته ويستلقى وحيدا على فراشه فيغلبه النوم وتداهمه ، كما فى كل ليلة . الكوابيس .

-١٩-

وصل الأخوان عمر وعبد الكريم قادمين من بالينسية للاتفاق على تفاصيل إدارة الخان واستضافهما حسن فى بيته وأكرم وفادتهما لأنهما غريبان قادمان من خارج غرناطة ولأنهما راقا له. أعجبه سلوكهما الواثق وحديثهما العارف وشىء ما التقطه وإن لم يع كنهه تماما، شىء لم يتح له رؤيته فى رجال غرناطة من أبناء العرب. هل هو الثراء يضفى على صاحبه ثباتا أم هى القوة والنفوذ يمنحان الانسان ذلك الذى رآه فيهما وأعجبه ؟

كان الأخوان يقاربان حسن العمر. وكان عمر وهو الأصغر أكثر انطلاقا يتحدث بقوة وسلاسة ووضوح يدعو إلى الدهشة مادام الحديث فى تفاصيل سياسية يفترض أن الحرص فى الخوض فيها متوقع ومطلوب. ولكنه يتحدث بشجاعة كأن الهموم مقدور عليها أو كأن الهموم ليست هموما. كان له وجه مستدير ممتلىء تميزه عينان واسعتان تنظران مباشرة إلى من يواجهه أويتحدث معه وشارب ولحية صغيرة معتنى بهما. كان طويلا به امتلاء وإن لم يكن بدينا. يضفى عليه ثوبه الأنيق مهابة. أما أخوه فكان رغم تشابه ملامح الوجه يعطى انطباعا مغايرا. إذ كان هدوؤه وحديثه المحكوم وجمله القصيرة الواضحة

تكمل ماتوحى به هيئته ونظرة عينيه وملامحه من اعتداد وأهمية وتباعد. وكان برغم ذلك مهذبا ودودا .

أنصت الأخوان باهتمام إلى حسن وهو يحكى عن الأحوال فى غرناطة ثم قال عمر :

- فى بالينسية الأحوال أفضل فالنبلاء معنا والبلاط يمكن أن يكون معنا لو تصرفنا بحكمة. نبلاء أراجون هم الذين يقاومون التنصير والتهجير، وكان الملك فرديناند قد وعدهم مرارا بأنه لاتنصير إجباريا للعرب ولاترحيل لهم ولا قيود على تعاملاتهم مع نصارى المملكة، واضطر الامبراطور كارلوس الخامس حين تولى عرش أراجون بعد وفاة جده فرديناند إلى تجديد هذا العهد. والصراع قائم بين النبلاء من ناحية وديوان التحقيق من ناحية أخرى والبلاط يميل إلى النبلاء ولكنه يخشى سطوة ديوان التحقيق .

قال حسن وقد صعب عليه فهم ذلك الاختلاف بين النبلاء والكنيسة :

- لا أفهم كيف يدافع النبلاء عن مصالح العرب وقد مولوا الحروب ضدهم وقدموا لفرديناند وإيزابيلا أنفسهم ورجالهم لغزو غرناطة ؟!

- إنهم لا يدافعون عن العرب يا أبا هشام بل عن مصالحهم ومصالح مملكة أراجون. أثرياء العرب قوة مالية تحتاج إليها المملكة. والأهم من ذلك أن غالبية أهلنا فى أراجون يعملون فى فلاحة إقطاعيات النبلاء ويفرض علينا جميعا أغنياء وفقراء ضرائب أكثر مما يفرض على

باقى أهل المملكة. فى هجرة العرب خراب الاقطاعيات وفى تنصيرهم تقليص لما يحصل عليه النبلاء والدولة من مال.

قال عبد الكريم :

- المثل عندنا فى بالينسية يقول : " مينتراس ماس موروس ماس جاننسيا ": " كلما كثر العرب كثر المكسب"!

قال حسن :

- ولكنهم لا يريدون لنا أن نبقى عربا ولا مسلمين !

أجابه عبد الكريم بحسم :

- هذا صحيح .. المصلحة تحكم كل شىء !

- ولكن السيد عمر قد أشار بالأمس إلى جماعة "الاخوان" وثورة المدن والعصابات التى تحمل الصليب وصيحة " الموت للعرب " وتخلف، أينما مرت بيارقها، الجثث والبيوت المحروقة والأهالى المذعورين يطلبون التعميد طلبا للحياة .

قال عبد الكريم :

- هؤلاء رعاع وسيقضى على حركتهم !

قال عمر :

- حتى أولئك الرعاع، الذين اتفق مع أخى أن حركتهم لن تطول، لايقصدوننا بالذات بل يقصدون النبلاء، يضربون العرب لكى يوجعوا النبلاء الذين يحمون العرب

ويعتمدون عليهم فى زراعة إقطاعياتهم. ليس ذلك هو المهم على أى حال، المهم هو كيف نستميل البلاط ونقنع رجالاته والامبراطور على رأسه أنه من صالح الدولة مراعاة العرب والابقاء عليهم.

سأل حسن وقد بدا له الأمر أقرب الى التمنى :

- وهل هذا ممكن ؟!

- ممكن جدا والمشكلة الوحيدة فى أولئك الذين يسمون أنفسهم بالمجاهدين .

- المجاهدين ؟

قال عبد الكريم :

- إنهم يفسدون كل شىء !

- كيف ؟!

- بسلوكهم الأخرق الذى لانفع له سوى زيادة الأمر تعقيدا !

أوضح عمر كلام أخيه :

- الهجوم على السواحل الأسبانية وتهريب المهاجرين من ناحية، وتعاون البعض مع فرنسا بحجة إضعاف سلطة الامبراطور تقوى الاتجاه القائل بأن عرب البلاد لا ولاء لهم للمملكة وأنه لا حل سوى تنصيرهم أو ترحيلهم . وهذا يجعل مهمتنا أصعب .

وكان هذا أغرب ما سمعه حسن من كلام. كان أهل غرناطة يخشون من إعلان تعاطفهم مع المجاهدين أو يعاونونهم سرا ويموهون موقفهم بإعلان الولاء ولكنه لم

يسمع أبدا أن مايقوم به المجاهدون ضار بمصالح العرب ... أربكه رأي الأخوين وأطال التفكير فيه حين اختلى بنفسه في الليل ثم قدر بعد تقليبه وتأمله أن صديقيه قد يكونا على حق لأنهما متنفذان تتيح لهما مكانتهما الاتصال بالنبلاء ورجالات البلاط أو من على صلة بهم .

قبل رحيلهما بيوم واحد قال عمر لحسن :

- اسمع يا أبا هشام لقد جئنا إليك من بالينسية لنتفق بشأن إدارة الخان ولكن على مايبدو أن علاّم الغيوب كان قد قدّر غير ذلك. عرفناك وألفناك ورأينا أهل بيتك فقلنا لا أفضل من مصاهرة هذا الرجل الكريم، ما رأيك ؟

بوغت حسن الى حد السكوت فواصل عمر :

- بناتك يا أبا هشام تبارك الخلاق ولي ولد ولأخي عبد الكريم ولدان ... ماذا تقول ؟

- أقول على بركة الله !

امتدت الأيدي وقرأوا الفاتحة. وكان حسن بعد لحظة المباغتة الأولى قد ملأه شعور بالرضا العظيم والحبور فمن أين له بنسب هكذا كريم ... خلق وثراء وعلم ونفوذ؟!

سارع بالخبر السعيد الى مريمة ولكنها فاجأته إذ لم تفرح بل على العكس من ذلك صرخت في احتجاج غاضب :

- ما الذي جرى لك يا رجل تُغَرب ثلاثا من بناتك في بلاد غير البلاد!

- اخفضي صوتك فالضيفان معنا في البيت ولا يصح أن يسمعا هذا الكلام !

– كيف أعطي بناتي لعائلة لانعرف عنها شيئا ؟!

– إنها عائلة كبيرة، أصل وثروة ونفوذ، ماالذي تريدينه أكثرمن ذلك؟!

– أريد أن أطمئن على بناتي، وأريد أن يزرنني من حين لآخر وأريد أن أذهب إليهن إذا اقتضت الحاجة. حرام عليك يا رجل، والله حرام !

– اهدئي يا مريمة قليلا واسمعيني هذه الزيجة ستحمي بناتك شر الحاجة ثم أن أهل بالينسية لم يفرض عليهم التنصير . لن تضطر بناتك أن يسمين أبناءهن بغير أسمائهم ويعشن موزعات بين دين في العلن وآخر في السر .

أجابته بابتسامة ساخرة :

– لماذا لاتزوجهن من المغرب أو مصر أو الحجاز ؟!

– لو جاءني مغربي كريم يطلب ابنتي لأعطيته بلا تردد!

– وأموت كمدا من بعد بناتي عني !

– ليست بالينسية بعيدة إلى هذا الحد والبلدان يحكمهما إمبراطور واحد. والقانون الذي يحظر على عرب غرناطة السفر إلى غيرها من الممالك قد يتغير بعد عام أو عامين .

– يكفي أن تعطيهم واحدة ... لمَ تعطيهم ثلاثا ؟!

– لقد قرأت الفاتحة وانتهى الأمر !

أدار لها ظهره وأغمض عينيه وراح في النوم فزادها ذلك غضبا على غضب فقامت إلى سليمة تشكو إليها همها :

– سليمة ...

– ما بك يا مريمة ؟

- أخوك فقد عقله ... أقسم بالله العظيم أنه فقد عقله واختل ميزانه.
- اهدئى وقولى لى ماذا حدث ؟
- هذان الرجلان اللذان نزلا علينا كالقضاء .
- تقصدين الضيفين ؟
- هما بعينهما ليتهما لم ينزلا بدارنا ولا رأيناهما .
- هل أساءا إلى حسن ؟
- طلبا ثلاثا من البنات لتزويجهن لأبنائهم .
- ويذهبن إلى بالينسية ؟
- نعم ويذهبن الى بالينسية !
- ولماذا وافق حسن قد يكون استملح الرجلين ولكن من أدراه أن أولادهم مليحون كأهلهم ؟
- فعلا من أدرانا، سأذهب الى حسن وأقول له ذلك !

هرولت مريمة إلى حسن، كان يغط فى نوم عميق، أيقظته :
- ما الذى أدراك أن الأولاد على خلق كأبويهما ؟ ألا يمكن أن يكونوا سيئين، بينهم السكير أو المعتوه أو شرس الطبع ؟ كيف أعطى ثلاثا من بناتى لأغراب لا أعرف عنهم شيئا يأخذونهم إلى بلاد بعيدة يشقون فيها ؟!

وكان حسن يفرك عينيه وهو يسمع كلام مريمة ولايحسن استيعابه وهو بعد بين اليقظة والنوم ولما كررت مريمة كلامها للمرة الثالثة فهم فقال بنبرة حازمة:
- أهدئى يا امرأة واتركينى أنام !

ورغم غضب مريمة واضطرابها فقد أثار الخبر فى

البنات الثلاث فرحا متوقدا : سيتزوجن ويسافرون الى بالنيتسية ويقام لهن عرس هناك كتلك الأعراس البهيجة التى لم تكن أم جعفر تمل من وصفها لهن : الحمام والحناء والزغاريد والأهازيج ودق الدفوف. وبدا ذلك كله مدهشا مثيرا كالأحلام التى تتحقق قبل أن يحلم بها الانسان. وزاد فرح البنات من حزن مريمة الذى امتزج بالسخط والاشفاق على حالها. كانت تبكى عندما قبلتها رقية كبرى بناتها وقالت :

– لماذا تبكين يا أمى ... سنكون معا، ثلاثتنا، نرعى بعضنا البعض. ونأتنس بالحياة في بيت واحد، هذا أفضل من أن تتزوج كل واحدة منا زوجا غريبا عن زوج الأخرى، وتسكن بعيدا عنها، ولاترى أختها الا فى الأعياد والمواسم؟

تطلعت إليها مريمة بعينين دامعتين ولم تقل شيئا ولكن الفكرة دارت فى رأسها فهدأت بعض الشىء .

بعد شهر عاد عبد الكريم وعمر بصحبة أمهما وزوجتيهما والشباب الثلاثة . وقال حسن حين اختلى بزوجته فى الليل :

– هل هدأ بالك الآن يا أم هشام ؟

وكان يشير إلى ماتركه الشباب من انطباع طيب لدى أفراد العائلة. الشكل الوسيم والسلوك الرزين، لايتحدث الواحد منهم إلا إذا دعى وحين يفعل ينم حديثه عن علمه وتهذيبه .

ولم يكن حسن يعرف أن البنات الثلاث قد وقعن فى حب الشباب بمجرد رؤيتهم وقد راقت لهن قدودهم المشوقة ووجوههم السمراء المنحوتة وعيونهم الكحلاء

واعتناؤهم الكبير بحسن مظهرهم، ولكنه كان يعرف أن أمه وأخته وحتى مريمة لم يجدن فى الشباب مايعيب. وكانت مريمة قد بدأت تتراجع عن حدة رفضها وإن لم تتبدد مخاوفها .

وكانت نساء دار طاهر قد أتين محملات بالهدايا ومشاعر المحبة والود والتدليل لكنائنهن المقبلات. وبدا كل ذلك مدهشا حتى أن مريمة سمعت بنتيها الأصغر اللتين لايزيد عمر أكبرهما عن العاشرة، تقول إحداهما للأخرى :

- ليت للعرسان أخين أصغر يطلبانا للزواج !

فأمسكت مريمة بيد مكنسة وضربت البنتين من كانت تقول ومن كانت تستمع، وقبل أن يعلو صوتهما بالبكاء رفعت مريمة العصا مرة أخرى مهددة بصوت خافت وصارم:

- ولا صوت ... فى البيت ضيوف !

وفى هدوء وكتمان احتفل أهل البيت بتحنية العرائس وعقد قرانهن. ودعى الخلصاء من الجيران والأصحاب إلى عرس ميزه طعام وفير وأهازيج خافتة لاتتجاوز أصداؤها مدخل الحارة .

وكانت أم عبد الكريم، جدة الشباب، غير قادرة على فهم أو تقبل ذلك العرس العجيب الذى لاتذهب فيه النساء إلى الحمام يصاحبهن نقر الدفوف والأغانى المجلجلة، ولا يعلو فيه التكبير ساعة ذبح الخراف وتزيين واجهة الدار بطبع الأكُف المغموسة فى دم الذبائح .

ورغم اضطراب مريمة وامتعاض أم عبد الكريم كانت دار حسن تتوهج بالفرح وألفة الضيوف وتوقد الصغار الى أن بدأ التفكير والاعداد للسفر إلى باالينسية.

قبل السفر بيومين اثنين مرضت أم عبد الكريم. أصبحت بوجه ممتقع وعينين ذابلتين تلازمها القشعريرة والحمى. وكانت المسكينة لاتعود إلى فرشتها من بيت الخلاء حتى ترجع إليه ثانية تستفرغ مافى جوفها بالقىء والإسهال معا .

همست أم حسن فى أذن مريمة :

– أخشى أن تموت المرأة فى دارنا فيقولون بنات حسن لم يحملن إلينا خيرا ... هل كان ينقصنا ذلك ؟! منذ رأيت هذه المرأة ووجهها العابس وقلبى متطير ... وجهها نحس !

كشفت سليمة على أم عبد الكريم وفحصت صدرها وبطنها وعينيها وحلقها ونبضها ولون أظافرها ثم قالت إن الأمر بسيط، قالت ذلك بحسم وثقة. وكان وجه أم عبد الكريم قد زاد شحوبا وكأنها على حافة قبرها. وكاد الدم يتجمد فى عروقها من شدة الفزع كلما لمست سليمة جزءا من بدنها. والحقيقة أنها منذ رأت سليمة توجست من هيئتها الغريبة وشعرها المشعث ونظرتها الشاردة وتأكدت مخاوفها بعد يومين من وصولها عندما مرت بحجرة سليمة وكان بابها مفتوحا فرأت القدور والقوارير والقفف والكتب وشمت روائح غريبة فابتعدت عن المكان على عجل وهى تتمتم بآيات قرآنية

تحفظها من كل سوء. يقول المثل : " البنت لعمتها " ولم نبتل ببنت واحدة بل بثلاث ، فما الداعى لهذا النسب ؟ هذا مالم يستطع عقلها الإحاطة به. وهل خلت بالينسية من البنات وألف واحدة وواحدة فيها تفوقهن جمالا وحسبا وجاها ؟!

لم يكن باليد حيلة. سلمت أم عبد الكريم أمرها لله وراحت تنتظر قضاءه. حتى مقاومتها لما تعطيه لها سليمة من دواء لم تقدر على مواصلته لأن عمر وعبد الكريم وزوجتيهما اجتمعوا عليها ولاموها على سلوكها :

" هل يصح يا أم عبد الكريم بعد هذا العمر أن تتصرفى كالأطفال ؟! " أسلمت أمرها لله وأخذت الدواء. فى الأول اعطتها سليمة مغلى قشر الرمان المخلوط بحصى البان. وكانت تعرف تلك الوصفة فأخذتها وتوقف القىء والإسهال ولكن شكوكها لم تتوقف. وعندما أتت سليمة بمزيج جديد سألتها :

- ما هذا ؟
- دواء .
- أعرف أنه دواء ولكنى أسأل مما صنعته ؟

لم تنتبه سليمة لشكوكها وظنت السؤال اهتماما فجلست بجوارها وراحت تشرح لها :

- هذا مزيج يشفى أوجاع المعدة وهو غاية فى الجودة صنعته بنفسى. أخذت من خبث الحديد النقى مقدارا وغمرته بالخل الجيد ثم بدّلت السائل سبع مرات ثم سحقته وأخذت منه قدرا أضفت إليه مسحوق القرنفل والزنجبيل المعجون بالعسل ثم نقعته فى المسك والعنبر وإن شاء الله بالشفاء .

ولم يلتقط عقل أم عبد الكريم سوى عبارة " خبث الحديد " التى استقرت فى رأسها فرفضت أخذ الدواء رغم إلحاح سليمة ومريمة وكنتيها إلى أن جاء عبد الكريم وأرغمها إرغاما على شربه ففعلت كأنما تجرع كأسا من السم .

ورغم أنها قامت معافاة بعد خمسة أيام وبدت لكل أهل الدار أحسن حالا مما كانت عندما وصلت البيازين فقد كانت موقنة أنها شفيت لأن الله نصرها على تلك المرأة التى يسكنها عفريت أو جان ، واستمع الى دعائها المتصل ليل نهار بألا يتركها وحدها فى محنتها.

وبشفاء أم عبد الكريم أمكن لدار طاهر أن يأخذوا البنات ويسافروا الى بالينسية مصحوبين بدعوات الأهل ودموع مريمة .

-٢٠-

ترى ما الذى كان يشعر به سعد لو أن هاتفا أبلغه أن سليمة حملت من صلبه نطفة نمت فى أحشائها وخرجت الى النور طفلة تحمل اسم عائشة ؟ هل كان يرقص جذلا للخبر أم يزيد الخبر من وطأة السجن عليه ويطبق من حوله الحصار أكثر ؟

حين قال لأهل دار حسن إنه ينوى العودة فى آخر الصيف أو مطلع الخريف بدا له ذلك ممكنا بل ميسورا. ولكن الأيام تخفى للمرء ما تخفى فإذا بالممكن مستحيل .

كان سعد موكلا بتسلم حمولة من البارود من بقعة مهجورة على شاطىء البحر، تسلمها فى ستر الليل وحملها على بغلته وسار بها فى الطرق المهجورة ما أمكن وعبر القرى حين لم يكن من ذلك بد. وكلما دخل قرية ادّعى أنه يحمل حمولة قمح إلى أهل بلدته وليس سوى مكارى مهمته التوصيل. ثم دخل القرية المنحوسة التى كان مقدرا له فيها أن يلقى مالاقاه. قال بعض أهل القرية: " نشترى القمح " .قال: "ليت بإمكانى البيع ... لا أملك الحمولة بل أوصلها من باعة إلى شارين دفعوا ثمنها". لم يرتح سعد للنظرة فى عيون من سألوه فأسرع الخطو

راغبا فى مغادرة القرية على عجل. وازداد توجسا وقد عرف أن الزاد فى القرية شحيح وأن أهلها ينقصهم الطحين. وكان عليه أن يكرر كلامه لآخرين عديدين يسألونه الشراء فيرد طلبهم. وكان يجر البغلة متعجلا يكاد يهرول حين انقض عليه عدد من الرجال طرحوه أرضا يقصدون أخذ ما يظنونه قمحا. انتفض سعد واقفا وحاول إبعادهم ولكن الأيدى كانت قد فتحت الأجولة. وحين سمع صوتا يصيح " ولكنه ليس قمحا .. إنه بارود ! " أطلق سعد ساقيه للريح .

كان يركض فى طرق مكشوفة يعى عريها فيزداد وعيا بعريه فيها وقد تنشق الأرض فى أية لحظة عن كلاب قشتالية تعدو لا هثة وتنبح فى إثره فيندفع مروعا ويضطرم ركضه يطلب نجاة فى أرض تستر ولكنه عندما وصل إلى ستر الأشجار والسكك الغابية ظل يواصل عدوه كالممسوس حتى لم يعد يقوى على الاستمرار فتكوم على الأرض مقطع الأنفاس يصيخ السمع تشوش دقات قلبه وشهيقه وزفيره الصمت الذى يترجاه. ولما طالت جلسته واطمأن بعض الشىء راح يفكر فى حمولة البارود التى ضاعت وضاع معها المال المدفوع فيها والأمل المعقود عليها فصار يدق رأسه فى جذع الشجرة التى جلس تحتها ويكرر بلا انقطاع " ما العمل الآن ؟ " فلا يجاوب سؤاله سوى اضطرام شعوره بالقهر والخيبة .

جلس بلا حراك فترة طالت أو قصرت لايدرى ولكنه أيقن بعد حين أنه لم يعد أمامه سوى البحث عن طريق للرجوع إلى زملائه .

ظل يمشي حتى وصل مشارف قرية لايعرفها فاستبشر خيرا وقدر أن بإمكانه سؤال أهلها عن طريقه، وربما أيضا إيجاد مأوى يمضى فيه ليلته وشربة ماء وشيئا من الطعام. ولكنه اذ دخل القرية فاجأته جلبة غير معتادة وحركة مضطربة فزعة " ما الخبر ؟ " سأل سعد فعرف أن رجال " الإخوان " الجرمانيا المتمردين يقتربون من القرية وقد انتصر قائدهم فى بلدة مجاورة. كان عليه أن يغادر المكان فى الحال ولكن إلى أين ... وفى أى اتجاه يمشى ؟ وقف حائرا يخشى أن تحمله قدماه إلى القرية التى اكتشفوا فيها البارود معه أو إلى مكان يسيطر عليه رجال الجرمانيا الأكثر شراسة مع العرب من جنود السلطة .

سأل سعد شيخا منهمكا فى تنظيم الناس الذين كانوا يتحركون فى اتجاه القلعة ليحتموا بها فبين له الشيخ الشرق من الغرب والطريق الآمنة وتلك التى يسيطر عليها رجال " الاخوان " .

مشى سعد فى سكة تنحدر به إلى الوادى وتأخذه الى خارج القرية. وكان يرفع عينيه بين حين وآخر ويتطلع إلى طريق حلزونية صاعدة اندفع أهالى القرية إليها بعيالهم وشىء من الزاد قاصدين القلعة. كانت الطريق تلتف مكتظة بحشد بشرى يموج ويصعد بحذاء سور حجرى قديم .

فى شهور لاحقة كان سعد يستحضر تلك اللحظات كثيرا، لايستحضر الركض المحموم ولا خطواته الحائرة فى

طرق جبلية يجهلها ويتوغل فيها خائفا وجائعا، ولا القبض عليه بعد ذلك بأربعة أيام بل كان يستحضر ذلك النهر البشرى المتدفق بحذاء سور القلعة الحجري يصعد ثم يهبط. بعينيه رآه يصعد ولم يره وهو يهبط مسلما بل سمع الجنود القشتاليين الذين قبضوا عليه واقتادوه للمحقق يتحدثون عن ذلك فرأى بعينى خياله الأهالى ينحدرون من ذات الطريق يحملون المزق البيضاء مستسلمين مستريعين يقصدون الكنيسة سعيا الى قطرات التعميد والحياة .

هل يعيد الماضى نفسه ؟ يتساءل سعد كلما تأمل المشهد، يستحضره فلا يأتيه إلا مصحوبا بمشهد آخر فيه الثغرى ورجاله ومن بينهم أبوه وقد تمترسوا فى قلعة مالقة يقاومون ويصمدون ثم يغلبهم عدوهم فيُغلبون. كان الثغرى ورجاله مسلحين وقاوموا، وكان أهل القرية بلا حول ولا قوة سلاح، قرويون فلاحون لم تألف أيديهم سوى محاريثهم ومناجل الحصاد فاستجاروا بأحجار قلعة عتيقة أجارتهم ثم أرهقها القصف وأرهقهم فرفعوا المزّق البيضاء وغادروا. فهل يعيد الماضي نفسه أولا يعيد ؟!

ولكن التأمل لايدوم فى حومة التعذيب وروع يُحيل الصور والأفكار إلى مزق وشذرات والبدن مُجرّح والروح كالطائر الذبيح تنتفض .

يحاصرك المحققون المتسربلون بالأسود، تنفذ نظراتهم إلى روح روحك ويطلقون عليك أسئلتهم وآلات التعذيب، يشدون وثاقك إلى ذلك السلم الخشبى ويضخون الماء فى

جوفك، الماء الذى يروى، ماء الله الزلال الذى تطلبه نفسك حلالا، يدخلك نارا موقدة، تمتلىء، تنتفخ، تختنق، تستعصى الصرخة ولكنها تلح فتطلع حشرجة كأنما هى الروح تخرج فى عناء. يحدقون فيك، العيون مصمتة، والوجوه مصمتة ، وقلوبهم مدرّعة فى الثياب السوداء. الأسياخ المحمية تحرق باطن قدميك، والحجارة الساخنة تلهب ظهرك وبطنك وعجزيك، والآلة الخشبية تختزل جهنم فى دولابها الضاغط يسحق عظامك فتخور كثور ذبيح. والقلب فى بيت القلب يعتصر كأنما تقبضه يد الموت ويموت. يحدقون فيك ولايرف لهم جفن. يلقون بك فى قبو وحدك لاتقدر حتى على البكاء، وعندما تقدر تذرف الدمع الغزير ليس لأن البدن يوجع، ولكنك تبكى على تلك المزق الآدمية التى تعرف أنها أنت، تبكى على حالك وعلى هجر حبيب فى الزرقاء العالية تركك وحدك تصطلى بنار لم يعد بها قومه الصالحين. وحدك فى سجنك المظلم تحاصرك الوحشة ولا ضوء سوى ذؤابة شمعة ذابلة يرتعش معها على الجدار طيف المحقق الذى يلازمك وإن غاب، خيال يعظم خطه الصاعد على الجدار مائلا يحدد ظل وطواط هائل ينشر سواده الملتصق بحجر الجدار. وحدك فى سجنك لايشاركك فيه سوى جرذان تألفها لأنها حياة تذكرك بالحياة. وبعد شهور ينقلونك إلى حيث يتبدد شىء من وحشة روحك. يصير لك رفاق يسكنون معك فى قبو أيامك ولياليك. تأتلف القلوب المحزونة، طاقة ضوء فى عتمة الجدار.

كانوا ثلاثة من الرجال، قس فرانسيسكانى احتفظ رغم كبر سنه بعينين متوقدتين يعزز عمق زرقتهما حيوية

كموج البحر تموج. كان يطيل الحديث عن الفتى يسوع فقيرا وجميلا ومعذبا. يحكى عنه فى المهد صبيا. يحكى عن أمه مخلوعة القلب عليه تحمله الى مصر البعيدة، يحكى عن يفاعته جليليا يحمل رسالته فى أرض تحتضنه و تُنكره، ويحكى عن صليب موته وخلوده. يحكى ويفيض ويتناوب على زرقة عينيه اضطرام البحر وصفاؤه وينفتح القبو المعتم كأنما على شاطىء، مدى مفتوح تسرح فيه النوارس وطيور البحر ونسمة الرب تطيب الروح وتدفىء القلب.

لم يكن حديثه وجده هو الذى شدهم إليه بل شىء ما يفيض فى روحه يملأ حديثه وقلوبهم، يمنحهم مساحة من طمأنينة يسكنون فيها ويهدأون.

حتى أنطونيو سوليناس الشاب اللوثرى حاد الطباع الذي زاده التعذيب عنفا وتوترا والذى كان يتعارك بسبب وبلا سبب كان يجلس فى هدوء وسكينة وهو يستمع لأحاديث الأب خوان مارتين. كان أنطونيو سوليناس نحيلا كأنما قد من عود قصب، شاحب الوجه نادرا مايبتسم، يتعارك كل يوم تقريبا مع محمد بوصديق، صبى لم يخط شاربه بعد اتهمه المحققون بممارسة السحر الأسود و إتقان تعاويذ تسببت في هلاك ماشية سيده الإقطاعى. كان للفتى عينان تتألقان بذكاء ماكر يزداد تألقهما وهو يكايد سوليناس ويسخر منه فيراه يشتعل بالغضب، اشتعالا ومحمد يضحك لأن ذلك بالضبط هو ما أراده ويعلو الشجار فيمسك كل منهما بتلابيب الآخر يحول بينهما الأب مارتين وسعد ... كان

سعد يحب محمدا وتمتعه تعليقاته الساخرة وحسه الفكه وتدهشه قوة روحه التى لم يحطمها التعذيب رغم صغر سنه. كان يوبخه فى العلن على مكايدته لسوليناس ثم يهمس له فى السر: " لاتغضب يا محمد من لومى لك ... ولكنى أردت أن أنهى المشاجرة! " فيضحك محمد بمكر "أعرف أنك لم تقصد الإساءة لى ... ولكنى أسعد بمشاكسة هذا الحمار ... إنه يظن أن دمه أزرق لانه أسبانى وقد يكون دمه أزرق فعلا كتم الغباء عليه فحوله من الأحمر الى الأزرق ... هل رأيت فى حياتك حمارا عنجهيا ! " فيضحك سعد ويحمد الله أن سوليناس يجهل العربية وإلا لدبت مشاجرة جديدة أشد من السابقة.

ورغم المناوشات اليومية بين أنطونيو سوليناس ومحمد بوصديق فقد تآلف أربعتهم وحكي كل منهم حكايته فشاركه الآخرون فى التفاصيل التى تحزن القلب والتفاصيل التى تفرحه. يحكون أحيانا ويضحكون أحيانا وأحيانا تنهزم روحهم فينكمش الواحد منهم فى قبو داخل القبو.

-- يشاركهم سعد فى كل ذلك ويحتمل أيامه ولياليه لأنهم معه ولأن ذلك الصندوق العجيب فى الرأس قادر فى ظلمة الحبس على منحه جواهره، تتألق تألقا وتضىء. تأتيه وجوه أحبته حاضرة نابضة بالحياة كأنما هى الوجوه فى تلك الصور المدهشة الملونة يعلم الله كيف بالضوء والظلال والألوان الزاهية تستحضر وجوها آدمية تبدو كأنها ستخرج من الاطار المثبت فى الحائط خلف ذلك المحقق أوذاك وتبادلك الكلام بالكلام وتبدد وحشة التحقيق

ووطأة نظرة المحقق الصارمة .

يأتيه وجه سليمة بسمرته ونحوله وعينيها الزرقاوين تحتار إن كانتا تشعان جرأة عنيدة أم رهافة تستحى فتدعى العناد. وشفتين بهما امتلاء يُشتهى والرأس يكلله شعر كثيف أجعد . فى السجن رأى سعد سليمة أوضح مما رآها فى أى وقت سابق . رأى وجهها وقدها وميلا بسيطا فى قامتها حين تمشى كأنما تريد أن تسبق بجذعها خطواتها: فى السجن سمع صوتها وهى تتحدث وهى تضحك وهى تحتد وهى صامتة لا تقول شيئا. رآها طفلة فى حياة أبى جعفر وصبية تشغل قلبه ولياليه وامرأة تقبل عليه وتمنح ثم تعرض وتنفر بلا سبب مفهوم .

ورأى أبا جعفر كأنما لم يأخذه الموت منذ زمن، رآه واضحا وكاملا بقامته المديدة وثوبه الضافى وابتسامة رقيقة تكاد ترتسم على شفتيه ولكنها لا ترتسم وتترك شيئا من روحها فى نظرة عينيه الحائرة بين رفق يفيض به الفؤاد وعتب مر يلجم فيض القلب وعذوبته .

ويأتيه وجه صاحبه نعيم مضيئا متألقا كأن أشعة الشمس تسقط عمودية عليه فتمنحه شيئا من وهجها يراه فى عينيه العسليتين وشقرة شعره وركضه فى الحركة والكلام وضحكاته الصاخبة .

فى وحشة سجنك ترى أحبابك أكثر لأن فى الوقت متسعا ولأنهم يأتونك حدبا عليك فى محنتك ويتركون لك أن تتملى وجوههم ماشئت وإن طال تأملك .

كان سعد رغم ماتعرض له من تعذيب قد صان قلبه فصانه لسانه وكان حريصا حتى وهو يحكى مع زملاء سجنه، لايشير من قريب أو بعيد لماقد يؤخذ عليه . وجاء الحكم مخففا اذ لم يثبت عليه سوى أنه غادر غرناطة واختلط على غير المسموح به مع أهل قرى بالينسية. برأته المحكمة من تهمة الهرطقة والمروق والارتداد عن الكنيسة التى كان المحققون قد وجهوها اليه .

-٢١-

تمنى حسن وهو عائد من الخان إلى بيته أن تطول به الطريق. كان يومه ثقيلا ومقبضا يسد عليه منافذ الفضاء. استنشق الهواء البارد وتابع ندف الثلج وهى تتطاير بخفة لتستقر على رصيف حدره وأغصان الشجر. فى سكون الليل الساكن فى الأبيض سكنت نفسه شيئا فشيئا.

لم يكن يوما ذلك الذى ضاق به صدره فاختنق بل يوما ويوما ويوما ، قل ألف يوم كل يوم يقول تفرج فتزداد عن اليوم السابق تأزما وتعقيدا. دربته الأيام على التعلق بقشة الأمل وطاقة الضوء وإن كانت فى حجم ثقب إبرة. يتشبث بها متطلعا، يبيع الأوهام لنفسه قبل أن يبيعها لصحبه ولأهل بيته، يقول " صبرا جميلا، والغد قادم ويختلف " ومايأتى سوى العتمة والقاع المظلم للغريق. حين صدر القرار بتنصير أهل بالينسية أو رحيلهم بعد مصادرة أملاكهم بكت مريمة وأنبته بالكلام وعينيها . قالت : "بعت بناتى ياحسن. قلت: أزوجهن فى بالينسية البعيدة فيعشن معززات بدينهن وأرضهن ومال أزواجهن الوفير فما بقى لهن دين ولا أرض ولا مال وفير ! " أجابها موبخا أنها لاتفهم شيئا وأن النبلاء يناصرون عرب

بالبنسية ومن العرب أنفسهم الأثرياء المتنفذين الذين حتما يصلون إلى البلاط ويعلقون القرار. وعندما اجتاحت القلاقل بالبنسية واشتعلت فيها نيران الغضب والفتنة تكتم الخبر وأخفاه عن مريمة وصار يتقصى المزيد من الأخبار من تجار جنوا ومن المكاريين المسافرين دوما من هنا ومن هناك . أرسل لبناته خمس رسائل مكتوبة فلم يصله سوى رسالة شفهية تقول " ليست الأحوال على مايرام ولكننا جميعا مازلنا بخير. صار لك ستة أحفاد في أفضل صحة وعافية " نقل إلى مريمة وأمه وسليمة خبر الأحفاد دون سواه. سألت مريمة " ما أسماؤهم ؟ " فقال " لا أعرف " سألته أمه " هل أنجبت كل بنت اثنين ام أنجبت اثنتان منهما ولم تنجب الثالثة بعد ؟ " قال " لا أعرف "، " ذكور أم إناث ؟ " لم يكن يعرف . لم تعلق مريمة ولكنها أمضت ذلك اليوم والأيام التالية تبكي .

ما الخطأ في أن يتعلق الغريق بلوح خشب أو عود أو قشة ؟ ما الجرم في أن يصنع لنفسه قنديلا مزججا وملونا لكي يتحمل عتمة أيامه؟ ما الخطيئة في أن يتطلع إلى يوم جديد أملا ومستبشرا ؟ استبشر خيرا يوم تزينت غرناطة وتحلت وأضاءت قصور حمرائها لاستقبال الامبراطور وراح ينتظر كغيره نتائج مقابلته لوفد من أشرف وجهائها العرب . رفعوا إليه مظالمهم وطالبوه بالتحقيق فيها . حتى الأمس كان ينتظر مؤتنسا بقنديله متشبثا بقشته ثم جاء اليوم وعلقوا المرسوم ودار المنادون يذيعون على الملأ بنوده التي تجدد المحظورات القديمة وتزيد عليها :

منع استخدام اللغة العربية والألقاب العربية والملابس العربية والحلى العربية وما بقى من حمامات عربية. وكافة الكتب تسلّم لتفحص ويعاد منها ما لاخطورة فيه. والولادة لا يشرف عليها قابلات من نساء العرب. وحمل السلاح ممنوع. وعلى الأهالى ترك أبواب الدور مفتوحة أيام الجمع والآحاد والمواسم والأعياد للتأكد من مراعاتهم لشعائر دون شعائر. وعلى الكبار الالتزام بكل طقوس دينهم الجديد أما الصغار فيُعالج جهلهم بانشاء مدارس إرسالية تربيهم على غير دين آبائهم . .

لم يكن حسن راغبا ولا قادرا على العودة إلى بيته فظل يمشى حتى شعر بأطرافه وأنفه تتجمد من شدة البرد. عرج على خان فى طريقه ودخل .

كان رواد الخان متجمعين فى قاعة مغلقة حول مندفأة تتقد النار فى أخشابها وتضفى على المكان وهجا ودفئا. كانوا يأكلون ويشربون ويثرثرون ويضحكون فى صخب . وكان فى القاعة ثلاث نساء تمسك كل منهن بدف تدق عليه وتغني وحدها حينا ومع زميلتيها حينا وحينا مع الرواد.

جلس حسن مع رجال لايعرفهم وشاركهم الشراب. تعلقت عيناه بواحدة من النساء الثلاث . كانت طويلة لاتخلو من امتلاء يكشف ثوبها عن نحرها وذراعيها وينسدل شعرها مموّجا وكثيفا على كتفيها شبه العاريين. عندما اقتربت المرأة منه لاطفها بالكلام فتطلعت إليه بعينين واسعتين مكحولتين فقال لها إن عينيها آسرتان فضحكت ضحكة مجلجلة مال لها طربا. حين انتهت من

غنائها أفسح لها مكانا بجواره فجلست وتبادلا الشراب والطعام ثم دعته الى كهفها فتبعها مخلفا وراءه همومه وتوجسه المعتاد ممن لايعرفهم .

فى الكهف أتت له المرأة بمزيد من الشراب فشرب وضحك حتى سالت دموعه. داعبته فداعبها بجرأة لم يعهدها فى نفسه. خلعت ملابسها ووقفت أمامه عارية . كان جسدها فائرا وخصيبا. شهق مأخوذا ثم مدّ كفيه ومرّ عليه ببطء من أعلى الكتفين حتى أسفل الساقين ثم ألصق وجهه به ومرّ بشفتيه مقبلا ومدغدغا. راحت المرأة تموء كقطة بريّة فزاده مواؤها شبقاً على شبق فأمالها على الفرشة وغمرها بجسده وطاشت فيه نار الفعل حارقة تعلو وتلتهب .

ولما خَبَت ناره ونارها لفهما السكون كأنهما خليقة أولى فى مبتدى الزمان حيث لاصوت بعد ولاصدى، لا قديم ولا جديد، لا ذكرى ولا ذاكرة. لا شىء سوى امتزاج البرتقالى بالأخضر والفضة السائلة ماء أوسماء تتلامس فيها الغيوم. سكبت واحدة ماءها وسواها ممتلىء ينذر بالمزيد.

فى الصباح لم يتذكر كم مرة واقعها ... استيقظ فلم يجد سوى رائحتها وبعض من ملابسها المتناثرة فى المكان. ارتدى ملابسه على عجل وخرج إلى الطريق .

تسلل إلى البيت تسللا وحين لمحته أمه هرولت إليه تسأله عن سبب غيابه. كانت شاحبة الوجه ملتهبة

العينين قالت:

- قلنا ألمّ به سوء ... وخرجت مريمة منذ مطلع الشمس تسأل عنك فى بيوت أصحابك .

صاح فيها ووبخها فأتت سليمة وقالت بصرامة:

- لم يصيبك مكروه، الحمد الله. عندما تنوى قضاء ليلتك خارج البيت اعلمنا حتى لا نقضى ليلتنا مؤرقين خائفين ثم تصبّحنا بالصياح والتأنيب !

استحى من كلامها فلم يعلق ووضع رأسه تحت مضخة الماء البارد ثم طلب من أمه أن تسخن له ماءً ليتحمم .

ما إن اطمأنت مريمة وسليمة على حسن حتى عادتا للانهماك فى ذلك الأمر الآخر الذى بدالهما أكثر إلحاحا وأهمية. أما أم حسن فقد انشغلت لأيام وليال تالية بأسباب غياب ابنها. كانت قد استفسرت منه عن أسباب تأخره فلم يقدم لها إجابة شافية . فهل يكون قد تزوج على امرأته ؟! وإن كان قد فعل ذلك فلماذا أخفى عنها وهى أمه التى سوف تفهم وتقدر أنه ضاق ذرعا بهذه المريمة الكئيبة التى تنغص عليه بحزنها الدائم على أمها وإخوتها الغائبين ولومها المستمر له على تزويج بناته لغرباء أخذوهن إلى حيث لايمكنها رؤيتهن؟

عندما كانت تشكو من مريمة وتظهر امتعاضها من نواقصها كانت أم جعفر رحمها الله تقول " اصبرى يازينب، مازالت البنت خضراء صغيرة، ستكبر وتتعلم " فليتها لم تكبر ولم تتعلم لتتدخل فى كل صغيرة وكبيرة وتعدّل عليها وتقول الصغار يفضلون هذا الصنف من

الطعام وليس ذاك ويحبونه مطهيا بهذه الطريقة وليس بتلك حتى أقسمت أم حسن وقد فاض بها الكيل أن ترفع يدها تماما ولاتقرب المطبخ. وقالت لنفسها " لنر ما الذى تفعله بنت الطبّال ! " ولكنها اكتشفت بعد أسابيع أن ذلك بالضبط هو ماتريده مريمة، تريد إبعادها عن المطبخ والانفراد بالتحكم فيه وكأنها ورثته عن أبيها. وأيقنت أم حسن أن زوجة ابنها من ذلك النوع من النساء اللائى يوصفن بأن كيدهن عظيم. تراجعت بسرعة فى قرارها وعادت إلى المطبخ. لكى لا تتمكن منها ابنة الطبّال. ينصف حسن لو تزوج غيرها لأنه لم يوفّق أصلا فى الزواج منها. ثم تنتبه أم حسن أنهم جميعا فى الأوراق متنصرون وأن حسن لايملك الزواج من اثنتين وأن عليه أن يطلق واحدة ليتزوج سواها. وليس الطلاق سهلا وقد لايكون ممكنا. مسكين حسن فلا امرأته تسعده ولا هو واجد طريقة لإسعاد نفسه .

قطعت مريمة على أم حسن خيط أفكارها إذ دخلت عليها تحمل قفة وقالت:

– أنظرى يا أم حسن هذا السمك ... اشتريته هذا الصباح من السوق إنه طازج جدا وقد أقسم لى البائع أنه حمله من الشاطىء إلى السوق مباشرة .

تطلعت أم حسن فى القفة فرأت السمك فضيا موردًا يلتمع التماعا . أمسكت بسمكة منها وفحصت عينيها وخياشيمها وأومأت برأسها:

– لم يكذب البائع، إنه طازج .

قالت مريمة وهى تبتسم :

- الصفار وسليمة وحسن يقولون إنه لا أشهى من طريقتك فى صنع السمك ما رأيك هل تسوّيه لنا اليوم ؟
- ولم لا تسوّيه أنت ؟
- لأنهم يفضلونه على طريقتك !

تنهدت أم حسن وقامت متثاقلة لكى تعد السمك. تبعتها مريمة بالقفة إلى المطبخ. ثم أخبرتها أنها سوف تذهب مع سليمة إلى السوق.
- قد نتأخر قليلا فقد لانجد ما تريده سليمة لدى عطار واحد فنضطر إلى البحث لدى عطارين عديدين .

خرجت مريمة وسليمة من الدار وسارتا الى الساحة المتاخمة لكنيسة سان سلفادور حيث كانت العربة والمكارى فى انتظارهما كما هو متفق . قالتا للمكارى صباح الخير فقال صباح النور ثم ركبتا وتحركت العربة.

كان ما ينص عليه المرسوم من ضرورة تسليم كافة الكتب العربية لفحصها قد أفزع سليمة إذ كانت تعرف أن " فحص الكتب " يعنى مصادرتها وأن حسن سينصاع للقرارات الجديدة ولن تجدى محاولاتها إقناعه بغير ذلك .
- ما العمل يا مريمة ؟
- نخفى الكتب
- كيف ؟
- دعينى أفكر

فكرت مريمة يوما وليلة ثم وجدت حلا طرحته على سليمة : نذهب إلى عين الدمع وننقل الكتب من مكانها

وحين يصرّ حسن على تسليمها تقولين له إنك بعتها، لن يصدقك، سيذهب إلى بيت عين الدمع فلا يجد شيئا، يستشيط غضبا ثم يهدأ.

- ولكن الى أين ننقل الكتب ؟
- الى هذه الدار ؟
- هنا، كيف ؟!

كان لدى مريمة تصور متكامل عرضته على سليمة بدءا من شراء السمك وإلهاء أم حسن فى إعداده وانتهاء بإدخال الكتب الى الدار دون إثارة الشكوك.

وصلتا إلى عين الدمع وحملتا الكتب فى خمسة أجولة وربطتا كل جوال منها ربطة محكمة ثم عاونهما المكارى على نقلها إلى العربة. ركبتا وعادتا إلى بيت البيازين.

دخلت مريمة الدار أولا ومرّت بالمطبخ. فوجدت أم حسن تقف أمام كانون النار وقد وضعت عليه مقلاة كبيرة يقدح الزيت فيها. كانت تستعد لقلى السمك. حيتْها وتركتها مطمئنة ثم جمعت الصغار وأجلستهم فى غرفة أم حسن وطلبت من البنت الأكبر أن تحكى لهم حكاية وقالت " أحضرت لكم حلوى إن جلستم بهدوء واستمعتم للحكاية تأكلون منها " ثم هرولت إلى مدخل الدار وتعاونت مع المكارى وسليمة فى حمل الأجولة . ذهب المكارى بعد أن أعطته أجره ونقلت هى وسليمة الأجوله إلى غرفتها جوالا بعد جوال .

كانت مريمة قد أفرغت صندوقها من كل ما فيه.

فتحته وفتحت الأجولة ثم تعاونت مع سليمة فى صف الكتب بعناية داخل الصندوق وعندما انتهيتا أنزلت مريمة غطاءه وأقفلته بالمفتاح وقالت وهى تضحك :
- لو شك حسن فى أننا نقلنا الكتب فلن يرد على خاطره ابدا أنها مخبأة فى هذا الصندوق الذى يراه صباح مساء فى غرفة نومه ... هل ارتحت الآن يا سليمة ؟

احتضنتها سليمة بقوة ولم تقل شيئا وكانت عيناها مغرورقتين بالدموع .

-٢٢-

قال نعيم للقس ميجيل :

- سيدى القس ما رأيك فى لغتى القشتالية ؟
- ممتازة .
- هل يبدو حين أتحدث بها أننى نشأت على لغة سواها؟
- إطلاقا، لماذا تسأل ؟
- إننى سريع فى تعلم لغة الآخرين ولقد أردت أن أعد لك مفاجأة تسرك ... لقد صرت أعرف كلمات كثيرة من لغة أهل البلاد، صار بإمكانى مثلا أن أقول لشخص منهم جملة مفيدة وأن أفهم مايقوله لى إجابة على كلامى .
- هذه فعلا مفاجأة .
- أتعرف يا سيدى لماذا أريد أن أتعلم هذه اللغة؟ أريد أن أساعدك!
- تساعدنى ؟!
- نعم أساعدك فلو توفر لك ترجمان ينقل لك أفكار بعض أهل البلاد تصبح مهمتك فى الكتابة عنهم أسهل، أليس كذلك ؟!

تطلع الأب ميجيل إلى نعيم الذى أربكته النظرة وكأنها ستنفذ الى داخله وتكشف سره .

- ولكن تعلمك اللغة يحتاج إلى فترة طويلة قد نعود قبل انتهائها إلى قشتالة وقد انتهيت من كتابى .
- أبدا ياسيدى لقد تعلمت فى أسابيع معدودة الكثير من لغة أهل البلاد وبإمكانى فى شهرين أو ثلاثة اتقان اللغة ولكننى فقط أحتاج ...

كان قد حان وقت السؤال الواضح .. ماذا لو رفض القس ؟
- ما الذى تحتاج إليه .. معلما ؟!
قالها الأب ميجيل وهو يضحك فجاوبه نعيم بالضحك لان ذلك كان يبدد شيئا من توتره .
- كل ما إحتاج إليه يا سيدى هو أن أتحدث أكثر مع أهل البلد .
- وما الذى يمنعك من ذلك ؟
- لا شىء يمنعنى ولكننى أتحدث بشكل عابر وأنا أمر بهذه المجموعة أو تلك من العبيد وهم منهكون فى العمل. ولكن لو أتيح لى أن أجالسهم أحيانا، أن أذهب إليهم فى أكواخهم وأجلس معهم ساعة أو ساعتين كل يوم أقسم لك ياسيدى القس أن باستطاعتى أن أتعلم اللغة فى فترة قصيرة للغاية فأنقل لك ما تحتاجه عن أفكارهم وحكاياتهم ومعنى الأغانى التى يغنونها .

صمت الأب ميجيل لحظات وكأنه يتأمل الأمر
- تريد أن تتغيب عن البيت ساعة أو ساعتين كل يوم ؟
- لا تقلق ياسيدى حين أتغيب تكون كل حاجاتك جاهزة فلا تفتقد غيابى ولكن
- ماذا ؟

– لو عَرفَت حاكم المنطقة أننى أذهب لتعلم اللغة لأن هذا يفيدك فى كتابك فلن يظن أحد من جنوده أننى أتردد على الأكواخ بلاسبب مفهوم .

– فعلا من الأحكم أن نفعل ذلك، حين ألتقى بالحاكم غدا أخبره بذلك.

– تأكد ياسيدى القس أننى سأعمل بجد حتى أتقن اللغة فى أسرع وقت .

ما إن خرج نعيم من حجرة القس حتى أخذ يتراقص طربا فقد حصل على ما أراده بالضبط. وسوف يراها كل يوم وسوف يذهب إليها فى كوخها وقد تأخذه الى أهلها فى الداخل ومن يدرى لعل الله يقدر أن ...

كان نعيم قد التقى بها قبل أسبوعين . كان يتحمم فى جدول خلف الدار فاذا بها تمر بالقرب منه. استحى من عريه وغمر نفسه فى الماء. ثم عاد وأطل برأسه، وجدها واقفة تتطلع اليه . كانت لها قسمات منحوتة واضحة، وجه أسمر يميل إلى استدارة وجبين واسع وعينان سوداوان تميزهما سحبة فى الجانبين ملحوظة وأنف كبير وشفتان ممتلئتان وشعر أملس طويل يلتمع سواده التماعا فى ضوء الشمس. ظل نعيم فى الماء حتى رآها تمضى فقفز منه على عجل وارتدى ثيابه فاذا بها تظهر مرة ثانية. لم تكن صبية بل امرأة، ربما فى الثلاثين من عمرها، خصيبة البدن، فى ثدييها امتلاء، عريضة الأكتاف والأرداف. غض نعيم الطرف وتشاغل بالتحديق فى السماء ولكنه كان يعى أنها تنظر إليه فيشتعل وجهه حياء . نظر ودارى حياءه بالابتسام فابتسمت. أشار الى

صدره وقال " نعيم " كررها عدة مرات ثم أشار إليها بسبابته مستفهما عن اسمها . قالت "مايا " فراح نعيم يكرر اسمها وهو يشير إليها واسمه وهو يشير لنفسه ثم ضحك فضحكت وأشرق وجهها بعذوبة ترد الروح، من أين أتت المرأة بكل هذه العذوبة ؟ فكر نعيم أن يعطيها هدية ما ... فتش فى جيبه لم يجد شيئا. أشار لها أن تبقى مكانها ثم حرك كفه ليفهمها أنه سيذهب ويعود . ركض الى البيت وأتى بإحدى كعكتين خبزهما فى الصباح وعاد راكضا. وجدها حيث تركها كانت قد جلست على حافة الجدول. جلس بجوارها ووضع الكعكة أمامها ودعاها للأكل. لم تفهم كلامه فأخذ من الكعكة قطعة وأعطاها لها فى يدها وأخذ قطعة لنفسه وقضم منها ففعلت مثله. أكلا معا ولم يتبادلا سوى اسميهما والابتسام. وعندما قامت لتذهب أراد نعيم أن يضمها إليه ولكنه لم يجرؤ، مد يده على استحياء وربت على رأسها ومضت وظل يتطلع إليها وهى تسير متهادية يرتج جسدها الخصيب الممتلىء ارتجاجا يسيرا .

فى اليوم التالى التقيا عند الجدول فى نفس المكان والساعة وكان نعيم قد وفر وجبته لكى يأكلا معا، جلسا وأكلا. قالت "نعيم" قال "مايا" أشار الى الشجرة وقال "شجرة" فكررتها وراءه ثم علمته اسمها بلغتها. رجع الى البيت جذلا بحصيلة عشر كلمات من لغتها ورنة صوتها فى أذنيه ووقع ضحكتها فى نفسه وقبلة سريعة حيية طبعها على خدها الأسيل يشتعل بدنه كلما استعادها فى مخيلته .

فى اليوم الثالث لم تأت مايا. انتظرها وهو يُمنى نفسه بظهورها ... تأخرت ولكنها ستأتى ... لابد أن تأتى ... لايعقل ألا تأتى ... ولما طال انتظاره ولم تظهر عاد الى البيت خائبا وحزينا لايجد من سبيل لتهدئة نفسه والتخفيف عنها سوى انتظار الغد "لعل وعسى" ومرت الساعات ثقيلة وبطيئة من مساءإلى ليل ومن ليل الى نهار ومن الصبح حتى الظهيرة. ركض الى الجدول وأخذ يروح ويجيء ويقف ويتطلع حتى إذا رآها قادمة من بعيد ركض نحوها وهو يصيح باسمها وعندما اقترب منها افصح لها عن قلقه "أين كنت ... كدت أموت كمدا لمجرد التفكير أننى قد لا أراك ثانية ... أفزعنى اختفاؤك يا مايا .. لماذا ... " انتبه نعيم أنه كان يتحدث بالعربية وأنها كانت تتطلع اليه وتبتسم متسائلة عما يقوله ففتح ذراعيه على اتساعهما وضمها إليه، ضمها بقوة واضطرام وأخذ يقبل رأسها وعنقها وكتفيها ثم التقت الشفاه .

وبين الأشجار وارفة الأغصان على حافة الجدول أعطته المرأة نفسها، منحته ماتاقت له نفسه منذ الصبى المبكر ولم يطله. ما الذى فعلته به المرأة ؟ كان نعيم يصهل كمهر جموح زلزلت الأرض من تحته زلزالها فراح يركض، يدك الأرض وهى تهتز به وتميد فيضطرم عدوه وتشهق روحه وقد اجتمع عليها نصل السكين والرجفة الحيية تنهل من كوثر الجنة وهى تشتعل مُحرقة بالنار .

حين انسل نعيم من داخلها بقى متشبثا بقربها ملتصقا بها ولم ينتبه أن الدموع كانت تفيض من عينيه إلا عندما أحس بها تمسحها بكفها وتقول له كلمات لم يفهم معناها .

مالت الشمس إلى غروب وذهبت ثم أضاء قمر الله خيمته العالية ونعيم ساكن يمسك بيديها. سيقول القس "أين كنت يانعيم ؟" "يلعن أبو القس ! ويلعن أبوك ياسعد فلم تقل لى أبدا اننى لم أعرف الدنيا ولم أدخل حياة " " يلعن أبوك يا سعد !" سمع نفسه يقولها فضحك من نفسه، ضحكت مايا. تطلع إليها نعيم وقفز وقال :

- الآن سأقدم لك هدية .

لم تفهم، لايهم الآن ستفهم .

وفى ضوء القمر على حافة جدول يعكس بعض نوره وفى حضرة مايا الجميلة بين النساء رفع نعيم ذراعيه وحرك كتفيه ومال، مال يمنة ومال يسرة. شد قامته وصفق بيديه ودق كعبيه كعبا وراء كعب وقفز عاليا كأنما يفلت من قانون الأرض ثم نزل مقرفصا وحرك فخذيه مرات متتالية ثم قفز واقفا وراح يصفق ويميل ويلف ويدور ويعلو ويهبط ثم مال على مايا المحدقة فيه ولف ذراعيه حول خصرها دار بها دار حتى دارت بهمْا الدنيا فسقطا على الأرض وضحكا وظلا يضحكان حتى مالت عليه مايا و قبلته قبلة طويلة على فمه .

لم يكن بإمكان نعيم أن يختلق للقس كل يوم حكاية تفسر تغيبه فى ساعة معينة، لم يُسعفه خياله بحكايات كلها مقنعة لاتثير ذرة من الشك. ثم أنه لم يعد يكتفى بساعة واحدة يلتقيان فيها فما الذى تكفيه ساعة هل يبادلها الحب أم يتعلم منها لغتها أم يعلمها لغته أم يحكى لها أقل القليل بالكثير من الاشارات ومفردات معدودة

هى كل حصيلته من لغتها. لويكرمه الله فينام فى الليل ويصحو فى الصباح وقد أصبح يتحدث لغتها بطلاقة ؟ كان يريد أن يحكى لها ألف شىء ويسمع منها ألف شىء، إنها امرأته فكيف لاتعرف أصله وفصله . هل يسر للأب ميجيل بحكايته ويطلب منه الإذن بالزواج منها ؟ الأب ميجيل طيب ولكنه قشتالى والقشتاليون لهم أطوارهم الغريبة التى تستعصى على الفهم، من الأفضل ألا يعلمه بشىء. سيتعلم لغتها ويذهب الى أبيها ويقول له بلسانه " ياعمى " كما يليق ويحكى له حكايته ويفهمه أنه ليس من أولئك القشتاليين الذين يقتلون أهل بلاده وينتهكون أعراض النساء بلا رحمة. سيحبه أبوها ويضمه إلى أسرته وقد يتعلم منه العربية لأنهم سيصيرون أهلا ومن يدرى لعل الله يقدر أن تعود معه مايا إلى غرناطة. رحمك الله يا أم جعفر لو أن الله أطال عمرك لجئتك بكنة لم تحلمى بمثلها قط . كنت ستقولين لها : "شكل غريب ولسان أغرب" فأقول لك : "ولكنها مليحة يا أم جعفر، طيبة وحلوة ".

قال الأب ميجيل :

- ما الذى دهاك يا نعيم ؟
- ما الذى بدر منى يا سيدى ؟
- أراك ساهما وأحيانا تكلم نفسك وتواصل ذلك فلا تنتبه لدخولى عليك .
- هل أكلم نفسى يا سيدى القس ؟
- نعم سمعتك أكثر من مرة تفعل ذلك وأخشى أن يكون ذلك بسبب زياراتك المتكررة لأكواخ العبيد . فهؤلاء الناس يمارسون السحر وقد يؤذونك بسحرهم .

- أقسم لك ياسيدى القس أنهم أناس طيبون جدا ويحبونني. نعم إنني أتذكر الآن، هل سمعتني أكلم نفسي باللغة العربية ؟ الحقيقة ياسيدى القس أنني أشتاق لغرناطة ولأصحابي الذين تركتهم فيها. أحيانا أجد نفسي أتحدث معهم. تعرف ياسيدى أنه لايوجد في كل هذه المنطقة سوى شخص واحد من أصل عربي هو ذلك النجار الذي يعمل في الطرف الآخر من المستعمرة ولا التقى به سوى مرة كل عدة شهور. لا أجد من أتحدث معه بالعربية فأتحدث بها بصوت عال وأتوهم أني أكلم أحد أصحابي في غرناطة .

قال له القس بصرامة :

- لابد أن تكف عن ذلك والا أصبت بالجنون. وأيضا لأن الشيطان قد يتسلل إليك في تلك اللحظة ويحول حديثك إليه مادام الحديث ليس موجها إلى شخص حاضر أمامك. وإن تاقت نفسك لاستخدام العربية فاقرأ في كتاب الصلوات المترجم إلى اللغة العربية الذى أتيت لك به ... ألم تحضره معك ؟

تلعثم نعيم ثم أجاب :

- للأسف ياسيدى لم أحضره معى من غرناطة .

حدجه القس بنظرة لوم :

- هذا إهمال يا نعيم !
- آسف يا سيدى ... أعدك ألا أكلم نفسي بعد اليوم !

ولم يكن نعيم في أحاديثه اليوميه يكلم إلا مايا فقد كانت رغبته في أن يحكى لها لا تحتمل التأجيل حتى

يتقن أحدهما لغة الآخر. كان يحكى لها فى الليل وهو فى فراشه وفى النهار وهو يرتب الدار أو يعد الطعام أويغسل ملابس القس. كان يحدثها بلا توقف عن كل شىء فى حياته منذ اللحظة التى مد له أبو جعفر يده وهو يسأله " ما اسمك يا ولد؟ " إلى اللحظة التى مرت به وهو يتحمم فى الجدول فاستحى وغمر نفسه فى الماء .

أفهم نعيم مايا أنه يريد أن يتزوجها، ويريد أن يلتقى بأهلها ويطلب منهم ذلك فقالت له إن أهلها يسكنون بعيدا ولم يتيقن أنه فهم ما تقوله فسألها أكثر من مرة ولكن إجابتها لم تخالف مافهمه. بعد عناء يومين كاملين من الحديث المتقطع اتضح له الأمر. كانت قد أتت إلى تلك المنطقة برفقة زوجها الذى مات بعد ذلك فبقيت وحدها. وكان الذهاب إلى أهلها يقتضى الحصول على حصان أو المشى لأسابيع متصلة قد يتعرضان فيها لمشاكل مع القشتاليين. لو طلب من الأب ميجيل أن يعطيه حصانه فلابد أن يحكى له الموضوع كله وقد يوافق وقد لايوافق ... الأرجح انه لن يوافق. لم يعد إذن من الأمر بد .

نظف نعيم الدار تنظيفا كاملا وغسل ملابس القس وانتظر حتى جفت وطواها بعناية وأعد طعاما يكفى القس ثلاثة أو أربعة أيام ثم خرج من الدار وجمع بعض الزهور البرية كون منها باقة وضعها فى إناء ملأه بالماء وزين به مكتب القس. ثم حمل نعيم القليل الذى يملكه ومصحفا

صغيرا وشيئا من زاد للطريق وقبعة من القش الملون كان قد صنعها سرا لكى يقدمها الى الأب ميجيل هدية فى أعياد الميلاد. سوف يعطيها لوالد عروسه اذ لا يصح أن يدخل عليه بدون هدية .

قبل طلوع الفجر غادر نعيم البيت فى حذر وفك حصان سيده واقتاده الى الجدول حيث كانت مايا فى انتظاره. حملها معه على حصان سيده وانطلقا إلى أعماق الجزيرة .

بدا لحسن وهو مستدفىء فى فرشته أنه أفضل حالا وقد مرت تلك الزوبعة التى أثارتها مريمة وعادت الأمور بينهما إلى مجاريها . كان أهلها قد خرجوا من السجن وقد ثبتت براءة أمها وحكم على أخواها بغرامة كبيرة لم يكن بإمكانهم دفعها فصادر القشتاليون دار أبى ابراهيم. واقترحت مريمة ساعتها أن تأتى أمها وأخواها للإقامة معهم فقال لها حسن :

- لتأت أم ابراهيم لتقيم معنا على الرحب والسعة أما آخواك فلابد أن يجدا لهما مكانا آخر يقيمان فيه ففى البيت أمى وأختى وليسا محارم لهما .

حدجته مريمة بنظرة فاحصة وقالت :

- قل ما عندك يا حسن ولا داعى لاختلاق الأسباب ، لقد استضفت عمر وعبد الكريم أسابيع متصلة وهما رجلان غريبان من بالينسية دون أن تربطنا بهما علاقة قرابة ولا نسب .

فتطلع إليها حسن فى ضيق ولم يقل شيئا ولكنها ظلت تتطلع إليه فقال :

- تعرفين السبب الآخر فما الداعى لقوله ... تريدين أن

تسمعيه إذن اسمعى . أخواك خرجا من السجن والعين عليهما ولا أريد أن يكون لى أولأهل بيتى دخل فى أى مشاكل من هذا النوع .

لم تقل مريمة شيئا ولم تعاود الحديث فى الموضوع ولا الإشارة إليه ولكنها على مدى ثلاثة شهور كانت حادة محتقنة تصيح فى الصغار بداع وبلا داع . تضرب هشاما وتبكى مما لا يدعو الى بكاء . تلبى له احتياجاته فى المأكل و الملبس ولكنها لا تسهب معه فى الحديث ولاتقبل اقترابه منها فى الفراش .

تحلى بالصبر ومرت الأسابيع والشهور حتى هدأت . فكر حسن وهو فى فراشه أن الله راض عليه وأن أحواله وأحوال أسرته مستقرة فى زمان يعز فيه الاستقرار . حتى سليمة وعنادها وما اختارته لنفسها من حياة غريبة تسبب له القلق صارت تضفى على داره فى البيازين تقديرا ومهابة . ففى يدها الشفاء وفى علاجها ما يطيب البدن والروح . هكذا يقول الناس. ولأن سليمة ورثت عن أبى جعفر نبله وكرمه فما كانت ترد سائلا حتى إن لم يملك إعطاءها مقابل تطبيبها له . وربما لذلك ، فكر حسن، فتح الله عليها فأغدق عليها الناس من مالهم ، حين يتوافر المال ، ومن محبتهم وإعزازهم ، إن لم يتوافر أو توافر . وهب الله سليمة الحكمة والمعرفة وحب الناس وتلك الصغيرة أمل التى تملأ داره بهجة بضحكاتها الرقراقة وحضورها الفطن . ما الذى تعطيه لى اليوم يا أمل ؟ " فتفتح الصغيرة ذراعيها وتحتضنه بقوة وهى تقول :

" أحبك أكثر من الشمس والقمر وأمي. " فيضحك حسن حتى تترقرق عيناه بالدموع: لوفقط يعود سعد بالسلامة لاكتمل هدوء البال فيزوج البنتين الباقيتين ويكبر هشام ويزوجه أمل ويرى أحفاده منهما ثم يمضى فى أمان الله.

كان حسن يقضى عدة ساعات كل يوم يتأمل حاله وحال أسرته أو هذا الأمر أو ذاك لأنه وإن قصد أن يأوى الى فراشه متأخرا يستيقظ مبكرا قبل طلوع الفجر بساعتين أو ثلاث وتكون مريمة مستغرقة فى النوم إلى جواره وكل أهل الدار نائمين باستثناء سليمة فلا يجد ما يفعله سوى البقاء مع أفكاره فينتظر طلوع النهار واستيقاظ من فى الدار.

أحيانا يثقل عليه الصحو فى الظلام فيشعل شمعة ويروح يتابع شعلتها الراجفة والظلام على السقف والجدران . وأحيانا يقوم إلى سليمة يدق بابها ويدخل . يجلس بهدوء مستأنسا بوجودها وبوجه اسبرنزا الوديع المستغرق فى النوم .

سألته سليمة :

– ما الذى يؤرقك يا حسن ؟

– لاشىء يا سليمة . يبدو أننى أكتفى بساعات قليلة من النوم .

– هل أنت متأكد ؟

استغرب سؤالها ولم يحر جوابا فسكت . رفعت سليمة رأسها عن الكتاب وقالت :

- هل تذكر يا حسن يوم ذهبنا أنا وأنت وسعد ونعيم لمشاهدة موكب كريستوبال كولون .
- يوم تغيب نعيم فجأة ولم ندر أين ذهب ؟

راح حسن يستعيد شيئا من تفاصيل ذلك اليوم وظهرت على وجهه ابتسامة لم تكتمل تماما فبدت ملامحه موزعة بين حزن وابتسام .
- كنا صغارا يا سليمة لم يدر بخاطرنا ما تخبئه لنا الايام .
- أحيانا أتساءل يا حسن كيف يعيش أحفادنا بعد مائة عام مثلا .

لم يكن حسن قد تأمل ذلك أبدا .
- الله أعلم لا أذهب أبعد من يوم فى المستقبل يعيد لنا سعدا ونعيما وأزوج الصغار وأرى أولادهم .

سكت لحظات ثم قرر أن يقول لسليمة ما أراد قوله منذ شهور :
- هل تقبلين هشاما زوجا لأمل ؟

ضحكت سليمة بصوت عال جعل الصغيرة تتقلب فى فراشها كأنها ستصحو ولكنها عاودت النوم .أربكته ضحكتها فقال لها بنبرة لاتخلو من الضيق .
- لماذا تضحكين ؟
- لأن ابنتى عائشة فى الثالثة من عمرها وهشام لم يبلغ التاسعة !
- فى طرفة عين تجدينها صبية فى العاشرة وهشام فتى طولا و عرضا.

- هذا حديث سابق لأوانه يا حسن وعندما يأتى أوانه نواجه مشكلة قرار القشتاليين بحظر زواج الاقارب .
- ليذهبوا إلى جهنم الحمراء ، لن أعطى أملا لرجل غريب يأخذها من بيتى !

ابتسمت سليمة وهى تساير حسن وتشعر بأنها تشاركه فى لعبة طريفة عناصرها من غيب ومستقبل بعيد .
- والاوراق الرسمية كيف نستخرجها ؟! وحين يأتيهم صغار ألا يصبحون بحكم قانون قشتالة أطفالا غير شرعيين ؟!

قال حسن بانزعاج كأنه يواجه مشكلة عليه حلها دون تأجيل :
- سأجد مخرجا، سعد من مالقة وأمل تحمل اسمه . سوف أنكر فى الاوراق أننى خالها وأنك أمها !

ضحكت سليمة بصوت خافت هذه المرة مراعاة للبنت النائمة وقالت بشىءمن السخرية الهازلة :
- لِمَ لا تقوم الآن وتعقد العقد فلا يبقى أمامنا سوى الانتظار بضع سنين يبلغ فيها الولد وتبلغ البنت فنعلن الفرح ؟!

لم يتقبل حسن مزاح أخته وقال متكدرا :
- ماذا دهاك يا سليمة ؟! أقسم برب الكعبة أننى أحب ابنتك أكثر مما أحب هشاما وأكثر مما أحب بناتى حتى اللاتى تزوجن فى بالينسية ويشقلنى شوقى إليهن ... تصبحين على خير !

ترك حسن سليمة كى تأوى إلى فراشها كعادتها فى الفجر وخرج ليوقظ مريمة لكى تعد له إفطاره قبل ذهابة إلى الخان .

كان حسن يحب الذهاب إلى الخان والعمل فيه ولا يعكر صفوه إلا أبو منصور بحدته وسرعة غضبه وانفلات زمامه. لم يكن حسن فى حاجة الى جهده حين طلب منه العمل معه فى الخان ولكنه وجد الرجل بلا شغلة ولا مشغلة يقعد فى الدار ليناقر زوجته ويحتسى الخمر . ويظل يعب كأسا بعد كأس حتى تثقل أنفاسه ويشتعل وجهه فتتحول المناقرة إلى شجار يسمعه الجار وجار الجار.

قال له حسن وهو يريه الحجرة الصغيرة التى فى مدخل الخان :

- ما رأيك يا أبا منصور ... تجلس هنا بعيدا عن الصخب . تسجل أسماء النزلاء وتتسلم منهم ما يريدون إيداعه من الأمانات وتضعها بنفسك فى الصندوق وقبل أن يغادروا تعيد لهم أمانتهم وتأخذ منهم المستحق عن فترة اقامتهم ؟

فى الأسابيع الأولى بدا أن العمل مناسب تماما لأبى منصور . انهمك فى عمله الجديد وكان مقبلا عليه وسعيدا به ولم يكن يسرف فى الشرب . ولكنه بعد ذلك عاد يشرب كثيرا حتى تلعب الخمر فى رأسه فيخرج إلى فناء الخان يتصيد من يتشاجر معه . ويتأهب حسن لمنع المشاجرة أو احتوائها وإن اضطرته الظروف للتغيب من الخان يوصى

العاملين فيه بابقاء عيونهم مفتوحة على أبى منصور تحسبا من وقوع مشكلة .

وكان العمل فى الخان مزدهرا خاصة فى شهور الصيف حيث تشغل كل الحجرات ويزيد على النزلاء من يأتون للقائهم للبيع أو الشراء أو الائتناس بالحديث .

كان من النزلاء العربى والأعجمى ، من جاء من القرى القريبة من غرناطة لقضاء حاجة تقتضى بقاءه فى المدينة بضعة أيام ومن قطع المسافات البعيدة قادما من أراجون وبالينسية أو من مدن السواحل الايطالية ، تجار في الغالب يقصدون البيع والشراء . في النهار ينجزون مصالحهم وفى المساء يجلسون للتسامر والطعام والشراب وفي الصيف يمتد السهر حتى أن العاملين فى الخان لا يتمكنون من النوم إلا فى ساعة متأخرة من الليل.

كان حسن منهمكا فى محاسبة الطباخ حين سمع صياح أبى منصور فقفز مهرولا إلى الفناء حيث وجده رمادى الوجه تتقد عيناه الحمراوان بالغضب . أحاط حسن كتفيه بذراعه وقال وهو يحاول أن يحمله على السير باتجاه حجرته :
خير يا أبا منصور ما الذى حدث ؟

ولكن أبا منصور لم يتحرك من مكانه فقال حسن بحدة محكومة :
– تعال معى ندخل الى حجرتك ونتحدث بهدوء فيما أغضبك .

لم يعر أبو منصور حسن أى اهتمام وقال وهو يرفع سبابته مشيرا الى احد الرواد :

- تتنصل من أهلك يا كلب !

كان الشاب الذى يشير إليه أبو منصور وسيما مسرفا فى العناية بمظهره،حدج أبا منصور بنظرة ازدراء ثم أدار رأسه متأففا.

قال حسن وهو يدفع أبا منصور دفعا ليبتعد به عن المكان :

- الله يرضى عليك تعالَ معى !

- هذا الولد ابن يس الوقاد ، أبوه رحمة الله عليه كان يعمل وقادا فى حمامى . وأنا سمعته الآن بأذنى يتفاخر بأنه قشتالى أبا عن جد وأن دماءه نقية . من أين تأتيك الدماءالنقية وكل ما فيك ينضح أنك لوطى يُفعل فيك !

هب الشاب واقفا وقال لحسن بغضب :

- هل تترك هذا الرجل الخرف يهين الناس ؟! مادمت صاحب الخان فعليك أن تضمن احترام نزلائك .

وقبل أن يفتح حسن فمه ليعتذر عما حدث كان أبو منصور قد مد يديه ليمسك بتلابيب الشاب . قفز حسن بينهما وصاح فى أبى منصور بصوت هادر غاضب :

- يا أبا منصور تصرف كالرجال وكفاك ما تفعله فى نفسك وفى الناس!

ولكن أبا منصور كان كالثور الهائج يتفلت ليصل الى الشاب وهو يكرر :

- نقاء الدم، هه يا ابن الحرام !

فما كان من حسن إلا أن جذبه بقوة ولكمه لكمة قوية أصابته فى بطنه وأسكتته. ران الصمت للحظات ثم قال أبو منصور وهو يحدق فى حسن :
- حسن الذى حملته بين يدى وهو رضيع يضربنى . لا تقلق يا ابن يس الوقاد لست وحدك ابن الحرام !

كان الصوت الذى بدأ عاليا يرن فى فضاء الباحة قد انتهى خافتا وراجفا ثم استدار أبو منصور وسار بخطواته الوئيدة المترنحة قليلا وغادر الخان .

ورغم أن حسن اعتذر للنزيل وقبل كتفه وقال له إن أبا منصور رجل طاعن فى السن يسرف فى الشراب تصعب مؤاخذته على سلوكه إلا أنه حين آوى إلى فراشه فى الليل كاد يختنق ضيقا . لم يجرؤ أبدا على زجره أو الاساءة إليه فكيف يصيح فيه ويضربه أمام نزلاء الخان ؟!

فى الصباح ذهب حسن إلى بيت أبى منصور وحاول أن يعتذر له ولكن أبا منصور أشاح بوجهه عنه . كان ممتقع الوجه ولم يتفوه سوى بجملة واحدة كررها مرتين. قال :
- اذهب يا حسن لا تثقل على ... يكفينى هم الزمان !

ذهب حسن ثم عاد لزيارته فى العيد الصغير والعيد الكبير وفى المرتين كان أبو منصور يطلب من امرأته أن تضيفه بالموجود من طعام أو شراب ولكنه يجلس صامتا كمن نسى الكلام .

لم يعد حسن لزيارته، قال حين يرجع سعد يصلح ما بيننا ولكن أبا منصور لم ينتظر عودة سعد .

وحين سار حسن مع المشيعين لتوديع أبى منصور إلى مثواه الأخير بكى بحرقة جعلت من معه من الرجال يقولون له :

- تماسك يا أبا هشام لا يصح أن تنتحب هكذا كالنساء !

-٢٤-

كان سعد يعرف أن معاودته العمل مع زملائه المجاهدين قد أصبحت من المستحيلات .. فأى نفع أو فائدة ترجى من رجل يتحرك ببطء وجلا مستندا على عكازتين ؟ وكيف له أن يصعد إلى تلك القرية أو يهبط منها وهى معلقة فى أعالى الجبال والطرق إليها متعرجة ووعرة ؟ وإن وجدوا له موقعا آخر يقيم فيه لإنجاز مهام مختلفة فكيف يصح له ذلك وحكم المحكمة يقضى بأن العقوبة لا تنتهى بالإفراج عنه بعد ثلاث سنوات قضاها فى السجن بل تمتد الى تحديد إقامته فى غرناطة لا يغادر بيته إلا لحضور القداس أيام الآحاد وفى أعياد الميلاد والفصح ولا يكون خروجه بين الناس إلا مرتديا " السانبيتو" العباءة الصفراء ذات الشريط الأحمر التى تميز الخطاة .

لو ترك لسعد أن يختار مايفعله بعد خروجه من السجن لما اختار أن يذهب إلى غرناطة مباشرة فهل يعود إلى حسن وسليمة ويقول لهما إنفقا على طعامى وشرابى لاننى أصبحت بلا عمل ولا تسمح لى المحكمة بالخروج للعمل ؟ ثم أنه كان يرتجف خوفا من نظرة إشفاق فى العينين أو شهقة ارتياع تكتم ويفضحها اختلاج الشفتين ساعة يفتح الباب فيرى فى

صفحة الوجه صورته وعجزه وعكازتيه .

حين دق سعد الباب فتحت له أم حسن وهتفت باسمه ثم قالت «سليمة وانتحبت!». كان اضطرابا ليس ماتوقعه من اضطراب ، هل أصاب سليمة مكروه ؟

ملأه الروع فانعقد لسانه وتجمدت أطرافه ثم سأل هامسا كأن الصوت مع الفزع راح. ولكن مريمة جاءت تركض وهى تقول :

- يا ألف أهلا بسعد ... سليمة بخير خلّفت لك بنتا لا أحلى ولا أبهى منها ... تعالى يا عائشة لتسلمى على سعد أبيك .

حدق سعد فى طفلة فى الثالثة من عمرها وضاءة الوجه كأمه لها ملامحها وعيناها الدعجاوان. كان يتطلع مبهوتا كأنه يرى معجزة تستعصى على الفهم أو التصديق. كانت فى سن اخته نفيسة تحمل اسم أمه عائشة وملامحها تبعثهما أمام عينيه. كأن السنوات لم تنقض أو سارت معاكسة للزمان الى الوراء .

- اسمها عائشة ؟!
- اسمها عائشة وفى الأوراق اسبيرانزا وخالها لايناديها الا "أمل" .
- أمل ؟!

انحنى سعد بقدر ما تسمح له وقفته المستندة إلى العكازتين .

- تعالى يا عائشة ... تعالى ياحلوة ... تعالى .

ولكن الصغيرة خافت منه وانفجرت فى البكاء .

لم يغمض لسعد جفن طوال الليل بل ولم يتمكن من الرقاد فى فرشته . ظل جالسا يحدق فى الصغيرة حينا وفيما تبقى من أشياء سليمة حينا آخر . كان النهار قد انقضى والصغيرة نافرة منه . لم تعاود البكاء وإن ظلت واقفة تتطلع إليه واحتفظت بمسافة تراها مناسبة للركض هربا لو حاول الاقتراب منها . ومع ذلك فقد بدت منشغلة بأمره لأنها كانت تتبعه عن بعد وتتطلع اليه . فى المساء أخذتها مريمة وحكت لها حكاية حتى أغفت بجوارها ثم حملتها إلى فراش أمها وقالت لسعد وهى تبتسم :

- لكى تنام بقربها يا سعد .

كانت الصغيرة مستغرقة تماما فى النوم لايبدو منها سوى وجهها المدور الوضاء تحيط بها حلقات شعرها الأسود مبللة بعرق يغطى جبينها . كان يتطلع اليها فيسمع دقات قلبه التى أنهكته كل تلك المستجدات. صارت لك ابنة ياسعد، ليست نطفة فى بطن أمها تنمو يوما بعد يوم، وليست وليدة تتابع كيف ترضع وكيف تبكي وكيف تبتسم وكيف تدرج بخطواتها الأولى على الأرض وكيف تنطق أول كلمة مفردة وأول جملة. إنسان صغير كامل يعرف اسمه ويقول نعم ويقول لا هو ابنتك تلقاها أمام عينيك جاهزة مكتملة ... وكيف ؟! ولكنهم يقولون لك هذه عائشة ابنتك ثم يقولون ولكن زوجتك ليست هنا لأن رجال ديوان التحقيق جاءوا قبل أيام وأخذوها. لماذا وما الذى فعلته ؟

قالت مريمة: " فتشوا البيت، كل ركن وزاوية فيه فحصوه ونقبوا فيه كأن ابن حرام اصطنع من خياله فرية عن سلاح مخبوء أو كنز . قلبوا الدار يا سعد. ولم يخطر ببالي أنهم يقصدون سليمة فما شأن ديوان التحقيق بامرأة مثلها ولكنهم كانوا يقصدونها. فتشوا حجرتها أكثر مما فتشوا الدار كلها وكان أحدهم يمسك قلما ودفترا ويسجل ما وجدوه من أعشاب وقوارير وكتب. ثم جمعوا الأشياء ووضعوها في جوالين كبيرين وقيدوا سليمة وحملوها في قفة، هل تصدق يا سعد أنهم حملوها في قفة؟! كان هذا أغرب ما حدث ومازلت لا أفهم لماذا حملوها في قفة. للحظات شككت انهم مصابون في عقولهم وقد جاءوا إليها هربا من البيمارستان ولكن حسن تأكد بعد ذلك أنهم من رجال ديوان التحقيق ".

كان سعد وهو ينصت إلى مريمة يزداد توجسا وارتياعا فقد كان يتمنى أن تكون هناك تهمة ما توجهها المحكمة إلى سليمة أي تهمة إلا تهمة ممارسة السحر. ولكن حملها في قفة. يعني أنهم يخشون لمسها ويؤكد مخاوفه أنهم قبضوا عليها لتوجيه تلك التهمة إليها، تهمة التهم. يرتجف بدنه رجفة مفاجئة قصيرة ثم يتماسك ويضغط بأسنانه على شفته السفلى لكي لاتؤخذ مريمة بكلمة لا التي تتفلت من فمه .

هل يفرح بالصغيرة أم يترك قلبه في قبضة الحزن يعتصره وكيف يقدر على ذلك كله وقد غمرته كل هذه الأشياء في يوم واحد؟ الآن يفهم ما نطق به وجه أم حسن حين دق الباب وفتحت. كانت تغرق في موجة الخوف

العالية حين رأته فاستغاثت. اكتهل كثيرا أو قليلا، بعكازتين أو بدونهما، كانت قد رأته وهو سعد زوج سليمة فاستنجدت به. وهاهو يجلس بلا حول ولا قوة لايملك حتى أن يفرح بالصغيرة دون أسى أو أن يرتاع على سليمة دون وعى بوجود تلك الصغيرة التى تدغدغ قلبه وكأن الوجود به فرح أو حنان .

ولم يكن سعد وهو جالس يتطلع الى طفلته النائمة ويفكر فى زوجته الغائبة يسمع شيئا مما يدور بين حسن ومريمة فى الحجرة المجاورة. كان الحوار على مافيه من حدة وغضب محكوما إلى حد الهمس .

قال حسن مهموما :

– لا أدرى ما الذى أفعله الآن ؟
– بشأن سليمة ؟
– لا، بشأن سعد .

قالت مريمة وقد بدا على وجهها شئ من توجس :

– ما الذى تقصده ؟
– لم يأتنا سعد خارجا من السجن بعد حكم من ديوان فقط بل أتانا محددة إقامته عليه لبس السانبنيتو .
– وما الذى يعنيه هذا ؟!
– يعنى أنه مراقب وعيون السلطات عليه وهذا يضع الدار ومن فيها...
– يضع الدار ومن فيها فى وضع مشرّف. كل أهل البيازين يحترمون من يُعاقبهم الديوان والعباءة الصفراء تعلى الرأس وتنيف .

كانت مريمة محتشدة مستفزة تطل من عينيها بوادر العاصفة .

- أعرف هذا يا مريمة ولم أقل إننى لا أحترم سعدا ولكننى حرصت سنوات طويلة على المحافظة على أمان الدار.

قاطعته مريمة وقالت بنبرة لاتخلو من التهكم :

- أعرف أنك كنت شديد الحرص حتى أنك لم توافق على إقامة أمى وأخوتى معنا عندما صادرت المحكمة دارهم !

لم يعلق حسن على ما قالته .. سكت لحظات ثم قال :

- أفكر أن أنقل له بصراحة رأيى فى الموضوع ... سعد مرهف وسيفهم وحده أن إقامته بعيدا أسلم . لن ينتظر حتى أقول له صراحة إننى أفضل ألا يقيم معنا .

حدقت فيه مريمة لحظات دون أن تقول شيئا ثم قامت فى هدوء وأحضرت المصحف ووضعته تحت عينى حسن ووضعت يدها عليه وقالت :

- اسمع جيدا يا حسن، وانظر جيدا، ها هو كتاب الله وها أنا أقسم عليه . أقسم بالله تعالى أنك ياحسن لوتحدثت فى هذا الموضوع مع سعد أو صرحت أو ألمحت لتركت أنا البيت قبله ولا أدخله أبدا ما حييت !

حملت المصحف وأعادته إلى مكانه ثم رفعت الغطاء عن فراشها وحملته وخرجت من الحجرة .

أحست أم حسن بمريمة وهى تستلقى بجوارها على

فرشتها فسألتها مستغربة :

- هل تنامين هنا ؟

- لا أدرى ما الذى أكله حسن الليلة انه لايكف عن الشخير بصوت عال ... نعم سأنام هنا !

* * *

حين تطلب عائشة أمها تبكى أم حسن أما مريمة فتنهمك فى مشاغلة البنت، تحكى لها حكاية أو تصطنع لها لعبة غريبة أو تنادى على هشام وتطلب منه أن يمشى على أربع ويصهل كالحصان وتقول لعائشة :

- هل تركبين هذا الحصان الصغير أم أركبه أنا ؟!

تقول البنت :

- إنه حمار وليس حصانا !

وتضحك فتضحك مريمة فيغتاظ هشام ويقفز قائما على قدميه وهو يصيح محتدا :

- لست حمارا .

تنهره أمه وتأمره أن يعاود الانحناء ليركب ابنة عمته فيفعل على مضض ثم يثأر لنفسه قائلا :

- أبي يقول إن عائشة قدم السعد ولكنها منحوسة جاءت الى البيت فمرض أبوها وصار يمشى على عكازتين وأخذ ديوان التحقيق عمتى سليمة .

تزجره أمه مهددة بأنها " ستقطع خبره " إن سمعته يقول هذا الكلام ثانية ولكن الولد لاينزجر ويكرره فتطعمه أمه ضربا مبرحا ثم تعود لمصالحته وتفهمه بهدوء أن عليه أن يكون لطيفا مع ابنة عمته لانها ابنة عمته

ولأن أمها بعيدة عنها .

كان غياب سليمة يثير الاضطراب والحزن فى أهل البيت . تقول أم حسن دامعة العينين وهى تضرب كفا بكف : « ما باليد حيلة ! » تقولها وتكررها ويزيد الأسى وجهها المتهدل تهدلا ويقولها سعد وحسن دون صوت، بنظرات العيون الضائعة كأنما غرقت فى بئر بلا قرار.

" لابد من حيلة ... لابد ... ولكن كيف ؟ " كان السؤال يشغل مريمة وإن لم تفصح عنه لأحد . بإمكانها على الأقل أن تعرف أخبار سليمة، تهمتها ، مدة سجنها ... لفت مريمة ودارت وطقست واستعلمت حتى استدلت على امرأة قشتالية يعمل زوجها كاتبا فى الديوان. تعرفت عليها فى السوق كأنما بالمصادفة وحدثتها بشكل عابر ومضت. بعد يومين أطالت الحديث قليلا ثم ذهبت. ولما صارت المرأة تألفها وتألف كلامها الظريف صارت تطيل الوقوف معها فى السوق تسألها كيف تطبخ تلك الطبخة أو تفصل لها طريقتها هى فى صنع الفطائر. وبعد أسابيع من تعارفهما قالت لها مريمة :

– زوجى أطال الله عمره وأبقاه بألف صحة وعافية كريم معى لايضن على بأى شىء لولا أخته التى لاتحبنى ولا تحب أولادى ولاتتمنى لنا أى خير. ولكن شكرا للرب الذى عاقبها على قلبها الحقود وكافأنى على قلبى الطيب . قبض عليها رجال ديوان التحقيق، ولا أدرى لأى شر تسببت فيه .

– مادامت سيئة فلابد أنها أتت أفعالا يعاقب عليها القانون .

- هذا هو ما يشغلنى ليتنى أعرف ما الذى فعلته بالضبط فأنقله لزوجى حتى يعرف أخته على حقيقتها ويتأكد أنه فى كل شجار دب بيننا كنت المظلومة وكانت الظالمة. طبعا ستخرج بعد التحقيق وتدعى أنهم أخطأوا فى القبض عليها ظنا أنها امرأة أخرى وتدعى الطهر والبراءة .

لم يبد على المرأة أنها اهتمت بهذا الجزء من الكلام سألت مريمة ان كانت ستشترى باذنجانا .

قالت مريمة وقد انفلتت منها زفرة :

- أشترى ... ولكن أخت زوجى تشغلنى، هل تعرفين من الأقرباء أو الجيران من يعمل فى الديوان ؟

- زوجى يعمل فى الديوان !

وقفت مريمة وبدت مشدوهة وهى تقصد الابتسام بحبور :

- إننى محظوظة، أكيد أننى محظوظة ! إذن بإمكان زوجك أن يعرف لماذا قبضوا على سُليمة. وحين أعرف أنقل الكلام لزوجى فلا يعود يصدق أخته أبدا بل يصدقنى أنا !

- سأسأله، ولكن ما رأيك فى هذا الزيتون ... هل تشترين منه ؟

- لا تشترى سآتيك بأحسن منه فلزوجى عروق زيتون لا أشهى من ثمارها. حين تأتينى بالأخبار آتيك بحملين من الزيتون .

فى لقائهما التالى توجست مريمة وانقبض قلبها حين

رأت وجه زوجة الكاتب يتهلل مستثارا عند السؤال عن سليمة .

قالت المرأة :

- أتيت لك بأخبار قد تكافئيننى عليها بحمل شجرة كاملة من الزيتون. قولى لزوجك إن اخته ساحرة تمارس شرها على حياة الخلق الطيبين. لقد أعلمنى زوجى أنهم يعذبونها عذابا شديدا لكى تعترف ولكنها لاتفعل وهذا يؤكد أن الشيطان يتلبسها ويعاونها.

امتقع وجه مريمة وزاغت عيناها ودار رأسها حتى بدا لها أنها ستسقط مغشيا عليها .

- ماذا جرى هل أسفت عليها ؟!

تلعثمت مريمة ثم قالت وهى تطلق من صدرها زفرة مسموعة :

- أبدا أصابنى الهلع ... كان بإمكانها إذن أن تدس السم لى ولأولادى ! ولكن ...

- ولكن ماذا ؟

- لا أظن أنها ساحرة ... أنا متأكدة أنها ليست ساحرة لقد عشت معها سنوات ولم أرها ابدا تخرج من البيت فى الليل. قولى لزوجك إنهم مخطئون ... قولى لزوجك إن على الديوان أن يعرف تهمتها الحقيقة ... ربما سرقت شيئا ليس لها، أو كذبت على بعض الناس ... إنها كذابة ولا تحب الانفسها ولكنها ليست ساحرة !

قالت المرأة القشتالية وهى تعلق ذراعها فى ذراع مريمة :

- لا تكونى مسرفة فى طيبتك قلت لى إنها سيئة معك وها هوذا الرب يعاقبها فتلقى صنوف العذاب ... لاتشغلى نفسك بأمرها تعالى نشترى ما نحتاج إليه .

اعتذرت مريمة عن المشى فى السوق متعللة بأنها نسيت نقودها فى الدار .

- سأعود الى البيت .
- والزيتون ؟
- أى زيتون ؟
- الزيتون الذى وعدتنى به .
- سأحضره لك الأسبوع القادم .

-٢٥-

كان على سليمة أن تدخل القاعة بظهرها وأن تمشى بضع خطوات، على عكس البشر، إلى الوراء. ولم يكن ذلك وحده ما لاقته من عجائب منذ حملوها قبل يومين الى المكان .

استدارت فرأتهم. وكان أربعتهم يحدقون فيها بعيون فاحصة. ثلاثة منهم يجلسون متجاورين وراء المنضدة الصقيلة السوداء، فى مواجهتها مباشرة، وعند الزاوية بعيدا عنهم بعض الشىء رابعهم، دواته أمامه والأوراق، والريشة مشرعة فى يده .

تنحنح الجالس فى الوسط وكان شيخا متغضن الوجه، مال برأسه الى الخلف قليلا وضم يديه فرأت سليمة الكلف البنى المتكاثر على ظهر يديه العاجيتين. تنحنح مرة ثانية فغمس الكاتب ريشته فى الدواة ثم بدأ يكتب مايمليه الشيخ .

"باسم الرب، آمين .

إنه فى عام سبعة وعشرين وخمسمائة وألف من ميلاد السيد المسيح، فى يوم الخامس عشر من شهر مايو

وبحضورنا نحن أنطونيو آجابيدا القاضى بديوان التحقيق وكل من آلونسو ماديرا وميجيل آجيلار المحققين فى الديوان بدأ التحقيق فيما شاع ونمى إلى علمنا من أن جلوريا ألفاريز واسمها القديم سليمة بنت جعفر تمارس السحر الأسود وتقتنى فى بيتها مايدعو الى الشبهة من بذور ونباتات وتراكيب تستخدمها فى إيذاء الناس وأنها... "

كانت سليمة تنصت بتركيز شديد لكى لايفوتها فهم أى من الكلمات القشتالية وتسمع رغم ذلك صرير ريشة الكاتب وهى ترسم مايملى عليه من كلمات على الأوراق .

" ولقد اقترفت بممارساتها تلك مايهدد الكنيسة الكاثوليكية وأمن الدولة ".

أشار لها القاضى بسبابته أن تقترب وضيق عينيه فكادتا تختفيان تحت جفنيه المنتفخين. اقتربت فطلب منها أن تلمس الكتاب المقدس الموضوع أمامه وتقسم على أن تقول الحقيقة كاملة فيما يخصها ويخص الآخرين ففعلت .

واصل الإملاء والكاتب التدوين " وبعد أن أقسمت المتهمة على الأناجيل الأربعة وجهنا اليها الأسئلة التالية:

- اسمك ؟
- جلوريا ألفاريز بعد التعميد وسليمة بنت جعفر قبله.
- محل الإقامة ؟
- البيازين .

– اسم والديك وهل هما على قيد الحياة ؟
– والدى جعفر بن أبى جعفر الوراق توفى قبل دخول القشتاليين غرناطة ووالدتى أم حسن قبل التعميد وماريا بلانكا بعده، وهى على قيد الحياة .
– هل سبق أن حوكم أى من أقاربك لممارسته السحر ؟
– لا .
– متزوجة ؟
– نعم .
– إسم زوجك ؟
– كارلوس مانويل بعد التعميد وسعد المالقى قبله .
وأين زوجك ؟
لا أدرى .
ما الذى تعنيه ؟
اختلفنا فغضب منى وترك البيت لا أدرى إلى أين .

تبادل المحققون الثلاثة نظرات لم تفهم سليمة دلالتها وإن كانت تيقنت أنها لم توفق فى الإجابه. ازدردت لعابها وأخذت نفسا عميقا انحبس برهة فى صدرها ثم خرج ببطء :
– متى ترك زوجك البيت ؟
– منذ سنوات .
– كم سنة بالضبط ؟
– منذ حوالى ست سنوات .
– هل لك أولاد ؟
– نعم .
– كم ؟
– طفلة واحدة .

- ما اسمها وعمرها ؟
- اسمها إسبيرانزا وهى فى الثالثة من عمرها .
- ألم تقولى الآن إن زوجك هجرك منذ ست سنوات ؟
- عاد مرة وتصافينا ثم سافر مرة أخرى .

عاد المحققون لتبادل النظرة ذاتها وإن زاد عليها بريق متألق فى عينى المحقق الشاب الجالس إلى يمين القاضى وابتسامة ارتسمت على وجه الكاتب كشفت عن أسنانه الأمامية .

- هل تمارسين السحر ؟
- لا أمارسه.
- ما تفسيرك للمضبوطات التى كانت فى بيتك ؟
- إنها بذور وأعشاب ومحاليل أصنع منها دواء لعلاج المرضى .
- ومن علمك ذلك ؟
- تعلمته وحدى .
- وحدك أم من الكتب ؟

سكتت سليمة لحظة ثم قالت:

- من أين لى بالكتب ... أنا لا أقرأ القشتالية والكتب العربية ممنوعة بنص القانون .
- والكتب التى وجدناها فى حوزتك ؟
- ليست لى ولا لأحد من أهل الدار، لانملك كتبا ولا نقتنى كتبا .
- إذن فانت تعترفين بممارسة السحر وأن الشيطان هو الذى علمك صنع ذلك الذى تسمينه دواء ؟
- لم أقل ذلك .
- ألا تعتقدين بأن هناك سحرا وساحرات بإمكانهن إثارة

الزوابع أو قتل الماشية أو إيذاء البشر بزرع الأمراض فى أجسادهم وإهلاكهم .

- أعتقد أن كل هذه الأشياء أقصد الزوابع وموت الماشية أو البشر لها أسباب طبيعية قد نجهلها لأن المعرفة تنقصنا شخصيا أو عموما كبشر ... لايا سيدى لا أعتقد فى وجود ساحرات .
- لماذا يكرهك الناس اذن ؟
- يكرهنى الناس ؟!
- لماذا يكرهونك ويخافونك ويتحاشون أن تحدقى فيهم. قلت لشخص مرة: " لاتتحدث معى هكذا" وحدجته بنظرة جعلته يتلوى ألما طوال الليل. ووضعت يدك على بطن امرأة حبلى فماتت بعدها بيومين. واستدعتك امرأة لعلاج ابنها المريض فجعلت دمه يتدفق حتى غمر أرض الحجرة ثم مات .
- الواقعة الأولى لا أذكرها. يمكن أن يسىء إليك شخص أو يكلمك بغلظة فتقول له " لاتتحدث معى هكذا " ولكنى لا أذكر متى قلت ذلك ولمن، ومرضه فى تلك الليلة تحديدا مجرد مصادفة. الواقعة الثانية صحيحة لان المرأة التى التقيت بها فى الطريق وهى نصرانية جديدة؛ أى عربية مثلى، قالت لى لا أدرى لماذا لا يتحرك الصغير فى بطنى فوضعت يدى على بطنها فقدرت أن الوليد فى بيت الولد ميت فلم تكن هناك أية بوادر حركة رغم أن بطنها كان منتفخا يؤكد أنها فى الأسابيع الأخيرة لحملها، وكان تقديرى سليما إذ ماتت المرأة لأن الطفل الميت داخلها سمم جسمها فماتت .

أما الواقعة الثالثة فهى أيضا صحيحة. جاءتنى امرأة قشتالية وهى تبكى وطلبت منى أن أذهب معها لأن ابنها الصغير مريض جدا ورغم اعتراض أخى على ذهابى إلى بيت أغراب لا نعرفهم رافقتها الى دارها. وحين وصلت وجدت الولد نازفا ممتقع الوجه وأظافره زرقاء، كان يحتضر. وقدرت أن النزيف فى امعائه وانه لم يعد بإمكانى عمل أى شىء لإنقاذه .

- اذن تعترفين بممارسة السحر ؟
- قلت إننى لا أومن بالسحر .
- ولا تؤمنين بالشيطان ؟

سكتت سليمة ولم تحر جوابا فكرر القاضى سؤاله :

- لا تؤمنين بوجود الشيطان ؟
- لا أدرى .
- هل تؤمنين بوجود الشيطان ؟ أجيبى بنعم أو لا .

كان المحققون يحدقون فيها، القاضى من وراء جفنيه الثقيلين، والمحقق النحيل عن يساره بعينين لامعتين متوقدتين لا تفهم لماذا، والمحقق الشمعى الوجه عن يساره مصمت الملامح متحجر النظرات. وكان الكاتب أيضا قد رفع عينيه عن الأوراق وراح يراقبها باستمتاع.

قالت سليمة بصوت خافت :

- لا أعتقد أن للشيطان وجودا !

قالت ذلك ثم عدلت كلامها بسرعة وقد لاحظت بريق تشفٍ منتصر يتخلق فى عيون المحققين . قالت :

- نعم، أعتقد أن الشيطان موجود .
- وتعبدينه ؟

هذا ما لم يخطر لها ببال .

- كيف أعبده ؟!
- تعبدينه بديلا عن الرب !
- بالطبع لا .
- إذن ما تفسيرك لهذا ؟

أشرع القاضى فى وجهها ورقة بحجم الكف لم تتبين تفاصيلها. كان قد رفعها بزهو كأنها الدليل النهائى الدامغ على جرمها. وكان معاونان يهزان رأسيهما ويبتسمان استحسانا .

- ما هذا ؟
- اقتربى قليلا وحدقى فى هذه الورقة حدقى فيها جيدا.

حدقت كانت تحمل رسما لنعجة أو غزال. تأملته ثم تذكرت :

- هذا رسم، متواضع لأننى لا أتقن الرسم .
- إذن تعترفين ان هذا الرسم لك .
- كان عندى ظبية و كنت أحبها كثيرا، وحاولت أن أرسمها .

ضحك القاضى، ضحك بصوت عال ثم انتقلت عدوى الضحك إلى زميليه ثم إلى الكاتب من بعدهما .

- هذا تيس وليس ظبية !
- قلت يا سيدى القاضى إننى لست ماهرة فى الرسم .
- إنه التيس الذى تعاشرينه وتسرين فى الليل إليه .
- التيس الذى أعاشره ؟!!
- نعم، التيس الذى صرفك عن زوجك وجعله يهجرك ...

إنه الشيطان الذى تعملين فى خدمته !

قالها القاضى وقد علا صوته واحتقن وجهه واندفعت سبابته تشير اليها بالاتهام ومعه اندفع عنقه الى الأمام حاملا رأسه المضطرم بالغضب .

هل هو كابوس زجها فى لعبة عابثة يديرها معتوهون غريبو الأطوار ؟ يتهمها القاضى بمعاشرة تيس ويؤاخذها على قصاصة ورق لامعنى لها ولا أهمية .ومن جاءوا للقبض عليها تصرفوا بما هو أعجب. حاول أحدهم العبث بكتبها فمدت يدها لتمنعه فاذا به يقفز مرتاعا ويصيح بأعلى صوته "لاتلمسينى !" وكأنها حية أو عقربة فى لمستها هلاكه. ثم يقيدونها كأنها ثور هائج ويضعونها فى قفة ! ليس الثور الهائج مايحمل فى قفة بل السخل الصغير أو الدجاجة أو الأرنب . وهى سليمة بنت جعفر حملوها من بيتها مقيدة فى قفة! تستحضر المشهد فتضحك ضحكا كالبكاء ثم لا تضحك .

وقبل أن يدخلوها إلى أولئك المحققين الثلاثة جاءوا بامرأة كالعملاق عظيمة الجرم صارمة الوجه قصت لها شعرها وأمرتها بخلع ملابسها، كل ملابسها، حتى صارت عارية كما ولدتها أمها ثم راحت المرأة تجوس بيديها تحت إبطيها وبين فخذيها وفى فتحات الأنف والفم والأذنين، والفرج والشرج، باحثة عن ماذا ؟! هل هو عبث أو جنون؟! ثم يدفع القاضى بسبابته كأنه يقصد فقء عينيها ويصرخ " التيس الذى تعاشرينه ! "

كانت سليمة وهى وحدها فى زنزانتها مرتاعة لأنها لم

تعد تفهم شيئا، أى شىء. فى البداية بدا لها أنهم يقصدون سعدا ولكنها الآن وبعد التحقيق عرفت أنهم يقصدونها فلماذا ؟! قالت سيتهومننى بالاحجام عن الذهاب الى القداس أيام الآحاد والأعياد ولكن القاضى لم يشر لشىء من ذلك. تحتاج لقدر من صفاء الذهن لكى تفهم، تحتاج لقدر من هدوء ولكن كيف يأتى الهدوء ومن أين والمهانة تلاحقها، والمرأة تلقى لها بخرقة من صوف عينتها لها ثوبا ثم تقودها إلى قاعة وتملى عليها الدخول فيها على خلاف سنة مخلوقات الله بظهرها ثم تقول:
" استديرى " فتستدير لترى المحققين الثلاثة بوجوههم الشمعية و قصبات أنوفهم المرتفعة وعيونهم المتفحصة تريد النفاذ الى روح روحها. ما الذى يريدونه منى ؟! تضطرب سليمة وتتوزع بين الارتياع والمرارة، تثور فى غضب لايخمده سوى أن تنقض على المحققين والكاتب والمرأة الغريبة وتحطم رءوسهم وتسحقهم سحقا ولكن المهانة، ما الذى يُذهبها، لا شىء وقد وقعت وكان ماكان ... "التيس الذى تعاشرينه " تضحك أم تبكى أم تدق رأسها فى الجدار فتحطمه بدلا من تحطيم رءوسهم التى لاتطولها، " التيس الذى تعاشرينه ! "

لم يدر بخاطر سليمة وهى فى التحقيق، غاضبة مزعزعة الأحشاء، أن قاضيها كان رجلا فاضلا ذا علم يقابل الحجة بالحجة فيلجم ميلا لدى معاونيه لاستشراس ومغالاة لايرى لهما داعيا أو ضرورة .

جلسوا يتداولون كما يليق بعلماء تبحروا في كتب الأقدمين وترسخت معارفهم بدقائق اللاهوت وتفاصيله .

وكان المحقق آلانسو ماديرا أصغر المحققين سنا يضطرم بالغيرة على مقدسات العقيدة والرغبة فى صونها من كل سوء. وكان يتحدث كعادته بصوت متقد بالحماس جهورى فتضيء عيناه وتتبدد صرامة وجهه النحيل التى يؤكدها أنفه الأقنى وشفتاه الدقيقتان .

- علينا أن نقبض على الطفلة فهى تحمل نطفة الشيطان وروحه . وكلام المتهمة واضح لالبس فيه. لقد رحل زوجها منذ سنوات ست ووضعت هى الطفلة منذ ثلاث سنين. إذن فالطفلة ثمرة الجماع بين المتهمة والشيطان الذى جاءها على هيئة تيس .

ابتسم القاضى آجابيدا الذى كان صبورا وحانيا مع معاونيه فلم يكن يفوته أبدا أن حماسهم الذى يدفعهم إلى التطرف أحيانا مرده إيمان راسخ ورغبة متقدة فى خدمة العقيدة .

- يا عزيزى آلونسو الشيطان روح وليس جسدا وهو غير قادر على إنتاج بذرة واحدة من بذور الحياة .

- ولكن يا سيدى القاضى الشيطان، كما هو معروف ومثبت، يجول الأرض ويقطعها من أقصاها الى أقصاها لجمع البذور ومن بينها منى الانسان لكى ينتج مايريده من ثمار. ولقد أكد القديس أوغسطين ذلك فى الجزء الثالث من كتابه عن الثالوث حيث قال إن الشياطين تجمع منى الانسان وتحفظه فى أجساد البشر. وفى شرحه للإصحاح السابع من سفر الخروج كتب العلامة ولا فريد سابو أن الشياطين تجوس الأرض وتجمع كل أنواع البذور وتستطيع بإعمال قوتها أن تنتج مخلوقات متنوعة. كذلك

ياسيدى فان الشرح الخاص بنفس الإصحاح والذى ترد الإشارة فيه الى أبناء الرب الذين راودوا بنات الإنسان أن العمالقة جاءوا نتاجا لشياطين بعينها تشتهى النساء وتجامعهم بلا خجل ولا حياء.

هنا تدخل ميجيل أجيلار الذى كان محققا مخضرما يضفى عليه علمه الواسع وخبرته الطويلة ثقة تنعكس على حديثه المتزن الهادئ .

– الشيطان، كما قال الأب أنطونيو روح، وولادة طفل من خصائص الجسم المادى الحى. ولاتملك الشياطين رغم ما تحظى به من قوى خارقة أن تضفى الحياة على الأجساد التى تتلبسها ولا أن تمنحها القدرة على إنتاج الحياة. تستطيع الشياطين أن تملأ الأرض بالأوبئة وتثير الزوابع وتصيب الرجال بالعنّة وتحمل الجحيم معها أينما حلت وتدخل أجسام من لايقاوم إغراءها وتدمر وتخرّب فى حياة البشر، تستطيع ذلك كله ولكنها تعجز عن إنتاج نطفة واحدة تتخلق وتنمو لتصبح إنسانا من لحم ودم .

قال آلونسو ببؤس :

– هذه الطفلة إذن ألا تنتسب للشيطان ؟

قال الأب أبيجادا بحسم :

– لا بل تنتسب الى رجل آخر حمل الشيطان منيه منه مباشرة أو من شيطان آخر لأن الشياطين درجات فهناك الأكثر نبلا الذين يربأون بأنفسهم عن مضاجعة النساء فيجمعون المنى ضمن ما يجمعونه من بذور ويعطونه للشياطين الأقل التى تجامع النساء فتضع البذرة فى

المكان المناسب من المرأة .

إن الشيطان فى هذه الحالة يقوم بالفعل المطلوب لإ حداث الحَمْل ولكن الحَمْل نفسه لا يرجع لقوة الشيطان ولا للجسد الذى تقمصه بل لقوة الحياة المستمدة من رجل ما فى مكان ما. هذه الطفلة إذن ليست ابنة الشيطان بل ابنة لرجل بعينه لا نعرفه ولا تعرفه المتهمة .

– إذن لن تحرق ؟!

قالها آلانسو بشىء من خيبة الأمل .

– لن تحرق !

قالها أجابيدا بحسم ونهائية. ساد صمت قصير واصل بعدها أجابيدا كلامه :

– لم يكن هذا السؤال هو مايشغلنى لأن فى كتابات العلماء قديمهم وحديثهم الإجابات الواضحة. ولكن السؤال الذى يستحق المناقشة هو هل نعذب المرأة لاحتمال وجود المزيد الذى تخفيه أم نكتفى بجلسة تحقيق آخر لنعزز اعترافاتها ؟

أجابه ميجيل أجيلار :

– فى كلامها اليوم ثلاثة اعترافات: أولها صريح عندما أقرت بأن رسم التيس لها، وثانيها قدمته ثم تراجعت عنه عندما قالت إن زوجها متغيب منذ ست سنوات وان ابنتها فى الثالثة من عمرها والثالث يؤكد الكفر والمروق . حين قالت انها لاتدرى ان كان هناك شيطان أم لا .

قال ألانسو ماديرا :

- هذا الانكار وحده كاف لإدانتها بالكفر فقولها إنها لاتدرى إن كان هناك شيطان أم لا إنكار لواحد من أسس العقيدة الكاثوليكية. ولكننى أعتقد أن تعذيبها واجب لانه من المؤكد أن لديها الكثير غير ذلك.

استدار الى الأب أجابيدا وقال :

- ألم تقل لى ياسيدى القاضى قبل أن تصطحبنى للمرة الأولى لمباشرة تحقيق إن الساحرات الراسخات فى تعاملهن مع الشيطان يتحدثن بهدوء ولا يبكين ولا ينتحبن لأنهن يستندن إلى قوة الشيطان الذى يدعمهن ويصور لهن أن بإمكانه تخليصهن من عذاب التحقيق دون أى أذى يلحق بهن ؟

- هذا صحيح ولقد لاحظت ذلك اليوم. لم تبك المتهمة ولم تتوسل ولم تفقد هدوءها وهذا يؤكد أنها من عتاة المتعاملين مع الشيطان ... هل تقترحون أن نعذبها أم نجرى معها تحقيقا آخر ؟

تنحنح ميجيل أجيلار وقال :

- فى تقديرى أنه من الأنسب إجراء تحقيق آخر نعيد طرح بعض ما سبق وسألناه من أسئلة لنرى إن كانت تجيب بنفس الاجابات أم لا ونسألها أيضا أسئلة جديدة ونحدد فى ضوء كل ذلك إن كانت هناك ضرورة للتعذيب.

بدا ذلك مرضيا لثلاثتهم فقاموا لكى يتناولوا عشاءهم ويريحوا أذهانهم وأبدانهم من إرهاق يوم عمل طويل .

-٢٦-

وحدها فى زنزانتها تحاول سليمة أن تهوّن على نفسها. لاتنام لأن بإمكانها وهى مفتوحة العينين يقظة أن تدفع الجرذان بعيدا عنها وتتحاشى ذلك الكابوس الذى لا تملك أن تتحاشاه وهى نائمة فتصرخ مستريعة، لاتنام. ما الذى يهوِّن الأمر حتى يهون ؟! قالت المرأة العملاقة التى تأتى بالطعام إنها ساحرة وقد ثبت ذلك وتأكد، وإن حكم الديوان كمثات من الأحكام السابقة سيكون الموت حرقا. تتخيل ذلك، يقيدونها ويدفعون بها إلى ساحة مكتظة بالوجوه المتطلعة تنتظر إضرام النار فى الأخشاب وفيها ... كحرق الكتب ... كيف تحمّل جدها أبو جعفر أن يرى لهب الحريق وهو ينتشر من كتاب لكتاب ومن ورقة لسواها تلتف على نفسها كأنما تدرأ النار عنها ولكن النار تظل تسرى، تأكل، وتجفف، وتقدد، وتفحم، ثم لاشىء، لاشىء سوى الرماد الهش؟ والمكتوب فيها ... أين يذهب المكتوب فيها ؟ والانسان، أليس الانسان كالورقة مكتوبا ... سلسلة من الكلمات كل منها دال على مدلول ومجملها أيضا ألا يشى به المخطوط من الكلام ؟ وهى سليمة بنت جعفر فى لحظة هوجاء أرادت أن تهزم الموت ثم تراجعت وقبلت بمهمة أقل استحالة. قرأت فى الكتب وطبّبت مريضا وأسقطت عامدة جور القشتاليين وحين

تمشى فى الأسواق لاتشغلها كباقى النساء الأسواق بل يشغلها وجه امرأة أعطتها دواء لم يشفها، تستنطق الوجه والأعراض، تقلب فى رأسها، تتساءل ما الدواء ؟

سليمة بنت جعفر " سأل المحققون " لماذا يكرهك الناس ؟ " كذبوا فلم يسألوا أهل البيازين ... هل يقدرون على التطلع إليها وهم يضرمون النار فيها ؟ هل يطيقون ماطاقه أبو جعفر ولم تطقه هى يوم أحرقوا الكتب؟ وعائشة ؟ تطرد صورتها وفكرتها وتركض مبتعدة مما يهزم البدن والروح والعقل أيضا إذ يحيله إلى الجنون. تركض إلى صورة جدها أبى جعفر الكبير الذى خط الكلمة الأولى فى الكتاب. لم يكن أبوها ولا أمها بل أبو جعفر هو أول من فعل حين أعلن أنه سيعلمها كما سيعلم حسن وهمس لزوجته أن سليمة ستكون كنساء قرطبة العالمات. ضحكت جدتها وكررت الكلام فسمعته سليمة وصار أول المخطوط فى الكتاب ... لم تقس الا على سعد فلماذا وقد أحبته وتحبه مازالت. عذبتك يا سعد فهل تغفر لى ؟! تكررها وهى لاتعرف إن كان على قيد الحياة أم سبقها إلى هناك. وهذه "الهناك " وهم أم حقيقة ؟ وهل تلتقى جدها وسعداً والصغير الذى راح وأباها هناك لو أن هذه "الهناك" هناك ؟ وكيف تتعرف على أبيها ويتعرف هو عليها ؟ هو لن يتعرف لان الوليدة التى خلفها صارت امرأة مكتهلة على مشارف الأربعين. قد تتعرف هى عليه حين تجده يشبه حسن ... مسكين حسن، أراد أن يحمى أهل بيته فجاءته المصيبة من حيث لايدرى ولا يتوقع. ولكنه ليس وحده فمريمة معه تعمر داره وترعى عياله وترعى عائشة أيضا. اختنقت سليمة بالبكاء واهتز بدنها وهى

تحاول جاهدة أن تكتم النشيج .

* * *

حين قبضت سليمة بيديها على قضيب الحديد المحمى بالنار وسارت به الخطوات المقررة لم يخلص المحققون كما هو متوقع بعد اجتياز اختبار من هذا النوع إلى أن المتهمة صادقة فيما تقول بل زاد يقينهم أنها تستند استنادا قويا إلى شيطان فائق الجبروت مكنها من تحمل الألم .

وكانوا فى اليوم السابق قد أعادوا التحقيق معها فلم تقر بغير ما أقرت به فى المرة السابقة. وإن كانت قد أثارت المزيد من الشبهة حين سألها القاضى إن كانت تسرى فى الليل عبر المسافات على ظهر دابة تطير أجابت أنها لم تسمع أن بشرا تمكن من ذلك سوى محمد نبى المسلمين. ولما سألها القاضى أن تفصّل كلامها وتوضحه حكت عن دابة مجنحة حملت محمدا من مسجد فى مكة الى مسجد سّواه فى القدس. وعندما أراد القاضى أن يعرف منها إن كانت تؤمن أن ذلك حدث فعلا راوغت وقالت : "لقد تعمدت وصرت نصرانية " .

ونبهت تلك التفاصيل الجديدة المحققين إلى عنصر جديد فى القضية غاب عن أذهانهم وهو أن تهمة المروق والارتداد قد لاتقتصر على تعامل المتهمة مع الشيطان بل قد تمتد إلى صدق عقيدتها اذ يبدو أنها، رغم التعميد، لم تتخل عن دينها المحمدى. وفى هذه الحالة يكون تعاملها مع الشيطان مقصودا للإضرار بالكنيسة الكاثوليكية .

حاول المحققون حملها على الاعتراف بذلك وعندما فشلوا عرض عليها القاضى الاختيار وحذرها قائلا:
" لاتستهينى به فعليك أن تتحملى قضيبا من الحديد المحمى " ولكنها قالت إنها مستعدة ورآها المحققون وهى تحمل القضيب بكلتى يديها وتمشى به فكيف ؟! أثار السؤال الرعدة فيهم وفى الكاتب الذى وضعوا له منضدته فى جانب من الفناء لكى يشهد كل شىء بنفسه ويسجله .

بعد انسحاب المحققين هنأ القاضى نفسه وزميليه لأنهم لم يستهينوا بتلك المرأة واتخذوا المنصوح به من الاحتياطات لمواجهة قوة سحرها الشرير . كان كل منهم قد تحصن بتعويذة من الملح المقدس وورقة دوّن فيها الكلمات السبع التى قالها السيد المسيح من على صليبه وعلق كل منهم التعويذة حول رقبته تلامس صدره يخفيها ثوبه الرهبانى الأسود .

قال الأب أجابيدا وهو يهز رأسه بأسى :
– ليس هناك بد من التعذيب !

فوافقه مساعداه بهز رأسيهما. وبدا ألانسو مادير مغتبطا بما ستلقاه امرأة ضالعة فى الكفر. أما ميجيل أجيلار فقد بدا وجهه هادئا مسلما بأن هذه هى الاجراءات المعتادة لاستخلاص الحقيقة من خطاة يتصفون دائما بالكبر والعناد اللذين حولا إبليس من ملاك نبيل من ملائكة الرب إلى شيطان رجيم .

* * *

في يوم النطق بالحكم ساقوا سليمة مقيدة إلى ساحة باب الرملة. وشق لها الحراس الطريق وسط الجموع المحتشدة لمتابعة المحاكمة ثم التنفيذ .

وكانت سليمة تجتهد في تحمل مشقة السير على قدمين متورمتين ملتهبتين من جراء التعذيب وتحاول أن تتحاشى احتكاك يديها المقيدتين من الرسغ خلف الظهر، ببعضهما أو بثوبها. كانت يداها مازالتا تؤلمانها من أثر القبض على قضيب الحديد المحمي. لم تكن تتطلع إلى من حولها بل شغلتها أفكارها. سيحكمون عليها بالموت فلماذا لاتتزعزع أحشاؤها خوفا ولا تصيح فزعا أو ثورة، هل لأنها تمنت الموت وتضرعت لله تطلبه حتى بدا الموت خلاصا من عذاب لاتطيقه النفس ولا البدن ؟ أم لأنها سلمت أمرها لله كعتاة المؤمنين الذين تضيء السكينة والقبول قلوبهم حتى وإن لم يكن قضاء الله مفهوما ولا مقبولا ؟ أم أن الأمر بعيد عن ذلك وأنها قررت بلا تفكير ولا تدبير أنها لن تهين نفسها بالصراخ والتضرع أو حتى بالارتياع كالفئران في المصيدة؟ لن تضيف على المهانة مهانة، والعقل في الانسان زينة والكِبر في النفس جلال، بإمكانها أن تمشي الآن، كإنسان يملك روحه وإن كان يمشي لنار المحرقة. بإمكانها أن تقول نعم أنا سليمة بنت جعفر أنشأني رجل جليل يصنع الكتب واحترق قلبه يوم شاهد حرق الكتب فمضى في صمت نبيل. وأنا يا جدي صرخت ساعة التعذيب، صحيح، واختل مني العقل والبدن، لحظات يا جدي لحظات، ولكني لم أقل شيئا تخجل منه. قرأت في الكتب كما علمتني وطببت أوجاع الناس ما

... ... وحلمت ياجدى أن أهديك يوما كتابا أخطّه بيدى وأودعه خلاصة ماقرأت ولمسته فى الأبدان يداى ... أردت، لولا سجن زمان ياجدى .

تطلعت سليمة من حولها. كان الحشد قد سكن سكونا غريبا. وكان المحققون الثلاثة يجلسون على منصة قريبة عالية والقاضى يقرأ بصوت جهورى يتردد فى المكان :

" ... ولقد أردنا التأكد من التهم الموجهة إليك والتحقق من صحتها أو بطلانها وإذا ما كنت تمشين فى النور أو الظلام فاستدعيناك للتحقيق وجعلناك تقسمين أمامنا وسألنا الشهود والتزمنا بكافة القواعد التى تمليها علينا قوانين الكنيسة . ورغبة منا فى تحقيق القدر الأمثل من العدالة فقد اجتمع مجلس موقر من علماء اللاهوت والمتبحرين فيه وبعد أن قمنا بفحص ومناقشة كافة أركان القضية وكل ما أدليت به فى التحقيقات توصلنا إلى أنك أنت المدعوة جلوريا ألفاريز والتى كان اسمك قبل التعميد سليمة بنت جعفر متهمة بالكفر لأنك كنت أداة للشيطان وخادمة له تحتفظين بالبذور التى يجمعها وتعدين المركبات الشيطانية التى تؤذى البشر والدواب .

ورغم إنكارك فقد ثبت بشهادة الشهود أنك تسببت فى موت طفل فى بطن أمه وآخر كان مريضا فأهلكته .

كذلك ثبت ارتدادك عن الكنيسة التى احتضنتك وأرادت الخلاص لروحك واتضح أنك رغم التعميد مازلت مبقية على دينك المحمدى وولائك لنبى المسلمين.

ورغم ذلك فقد أردنا ومازلنا نريد لك الرجوع إلى الحق والتوبة عن الكفر والولاء للشيطان الذى هو الكفر بعينه، والعودة إلى أحضان الكنيسة المقدسة وإلى العقيدة الكاثوليكية وذلك لتجنبى نفسك الهلاك فى الدنيا وفى الآخرة ... ولقد حاولنا جاهدين أن نحملك على ذلك وأجلنا النطق بالحكم فترة طويلة على أمل أن تفصحى عن ندمك ولكن كبرك وعنادك وغيك فى الخطيئة جعلتك تواصلين الإنكار. وإننا نعلن بكل الحزن والأسى عدم نجاحنا فى حملك على التوبة .

ولكى يعتبر كل ذى عقل ونفس سوية وينأى عن طريق الكفر العباد، ولكى يعرف الكافة أن المروق لايمكن أن يمر بلا عقاب أعلن أنا القاضى أنطونيو أجابيدا، نيابة عن الكنيسة، وأنا جالس هنا وأمامى الأناجيل الأربعة، أعلن حكمى وليس نصب عينى سوى الرب وشرف العقيدة ومجدها :

حكمنا عليك وأنت واقفة أمامنا هنا فى ميدان باب الرملة أنك كافرة لاتوبة لها، عقابها الموت حرقا ."

صخب الأصوات وجلبة الجموع المحتشدة تدق فى رأس سليمة كمطارق عالية تختلط بدقات قلبها ونبض فى معدتها. لاتريد أن تتطلع حولها، لاتريد، تخشى العيون، عيون قشتالية تبتسم مزهوة تتهيأ للفرجة، وعيون عربية يفيض القلب أمام نظرتها الحانية أو المرتاعة. لاتتطلع ولكنها تسمع صوتا كأنه صوت سعد، لاتتطلع.

يفكون بعض قيودها ويدفعون بها فى اتجاه الأخشاب.

ورغم ان مريمة كانت مثقلة القلب ومضطربة لتأخير سعد وحسن الا أنها لم تملك أن ترفض طلب عائشة بأن تقص عليها حكاية فبدأت تحكى:

" فى السماء ياعائشة شجرة كبيرة تحمل أوراقا خضراء بعدد أهل الأرض، كل أهل الأرض، الصغار والكبار، البنات والبنين، من يتكلمون العربية مثلنا ومن لايتكلمونها. شجرة كبيرة يا عائشة تتساقط منها أوراق وتنبت أوراق بلا توقف. وفى ليلة القدر من كل سنة تزهر الشجرة زهرة غريبة عجيبة . وفى تلك السنة التى حدثت الحكاية فيها أزهرت الشجرة ... "

توقفت مريمة وقد تاه منها الكلام . كان عقلها مشتتا تفكر فى سبب تأخر حسن وسعد ... هل يكون الحكم على سليمة اليوم ؟

– وبعدين ياخالة مريمة ... وبعدين ؟

نظرت مريمة إلى وجه الصغيرة واستنشقت نفسا عميقا وزفرت وواصلت الحكاية .

إشارات

استفدت من عشرات الكتب التاريخية والدراسات التي مكنتني من معرفة الملامح الأساسية للمرحلة التي أتناولها . ولا أرى داعيا لذكرها جميعا وأكتفي بالإشارة لأهمها: مقدمة الإحاطة في أخبار غرناطة للسان الدين بن الخطيب، حققه محمد عبدالله عنان (القاهرة، ١٩٧٣) . و أخبار العصر في انقضاء دولة بني نصر وهو لمؤلف مجهول عاصر سقوط غرناطة. ووثائق عربية غرناطية من القرن التاسع الهجري/ الخامس عشر الميلادي ، حققه لويس سيكو دى لوثينا (مدريد ١٩٦١). نهاية الأندلس وتاريخ العرب المتنصرين لمحمد عبدالله عنان (القاهرة، ١٩٥٨م) . والتنصير القسري لمسلمي الأندلس في عهد الملكين الكاثوليكيين لمحمد عبده حتاملة (عمان، ١٩٨٠) وعدد من الدراسات لنفس المؤلف منشورة في حوليات الجامعة الأردنية. وكتب هنرى شارلز لى وبالأخص كتابه حول الموريسكيين:

The Moriscos of Spain : Their Conversion and Expulsion (N. Y. 1968).

وبحوث قدمها الدارسون في ندوات متخصصة عقدت في المغرب وتونس وأسبانيا منها البحوث التي جمعتها سلمى الخضراء الجيوسي وصدرت مؤخرا تحت عنوان

The Legacy of Muslim Spain (Leiden, 1992).

والنص المعتمد من الكنيسة لاستخدام المحققين فى محاكم التفتيش فى القرنين الخامس عشر والسادس عشر، وهو من تاليف كرامر وسبرنجر وقد ترجم الى الإنجليزية وأعيد نشره تحت عنوانه اللاتينى

Malleus Maleficarum (N.Y. 1971).

* الأبيات المقتبسة ص ١١٤ من شعر ابن عربى .

* قصة معركة المهلهل ص ١١٥ - ١٢٠ منقولة مع تصرف بسيط وأحيانا بعض الحذف ، من ترجمة صلاح فضل لهذا النص الأندلسى الشعبى الذى يورده ضمن نصوص أخرى فى كتابه ملحمة المغازى المورسكية (القاهرة، ١٩٨٢) .

* الرسالة المقتبسة ص١٧٣ - ١٧٤ وثيقة تاريخية عثر عليها محمد عبدالله عنان فى مكتبة الفاتيكان الرسولية بروما وضمنها كتابه نهاية دولة الأندلس وتاريخ العرب المتنصرين (القاهرة، ١٩٥٨) .

رقم الايداع : ٣٥٩٨ / ١٩٩٤

I.S.B.N
977-07-0324-9



د. رضــوى عاشــور

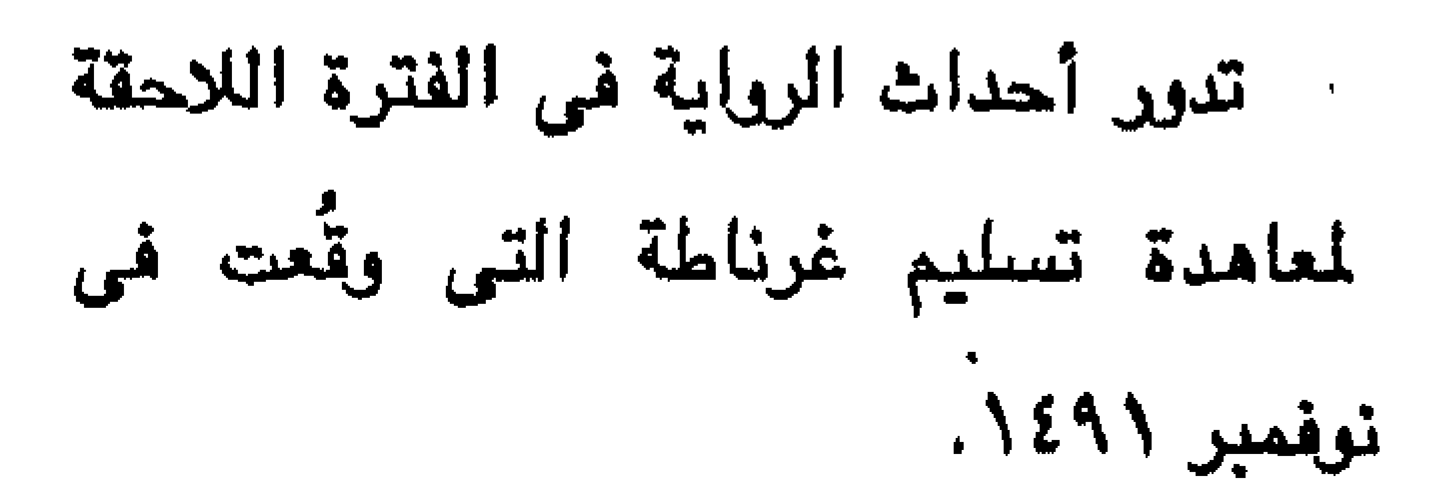
● مواليد القاهرة ١٩٤٦

● تشغل وظيفة أستاذ بقسم اللغة الإنجليزية وآدابها بكلية الآداب، جامعة عين شمس. صدر لها: الرحلة : أيام طالبة مصرية فى أمريكا، ١٩٨٣ حجر دافىء (رواية) ١٩٨٥، خديجة وسوسن (رواية) ١٩٨٩. رأيت النخل (مجموعة قصصية) ١٩٨٩. سراج (رواية) ١٩٩٢. ومن دراساتها النقدية :

– دراسة فى أعمال غسان كنفانى، ١٩٧٧.

– والرواية فى غرب افريقيا ١٩٨٠.

هــذه الروايــة



تدور أحداث الرواية فى الفترة اللاحقة لمعاهدة تسليم غرناطة التى وقُعت فى نوفمبر ١٤٩١.

ولا تتناول الرواية حياة الملوك والساسة بل الحياة اليومية للبشر العاديين الذين كتب عليهم أن يعيشوا زمن السقوط ذاك.

ويمزج النص بين ماشهده تاريخ تلك المرحلة: قمع الاحتلال، حرق الكتب، ثورة البيازين، محاكم التفتيش، «اكتشاف العالم الجديد» وتفاصيل حياة أسرة عربية من غرناطة، حياة تموج بالنبل والعذاب والشجاعة والحذر والمضحكات والطرائف.

«غرناطة» رواية تربط بين المصير التاريخى المحتوم ومنمنمات الحياة اليومية فى مفصل زمنى شهد سقوط مفردات عالم كامل، وتشكل نقيضه الفادح.

روايات الهلال تقدم

لبن العصفـــور

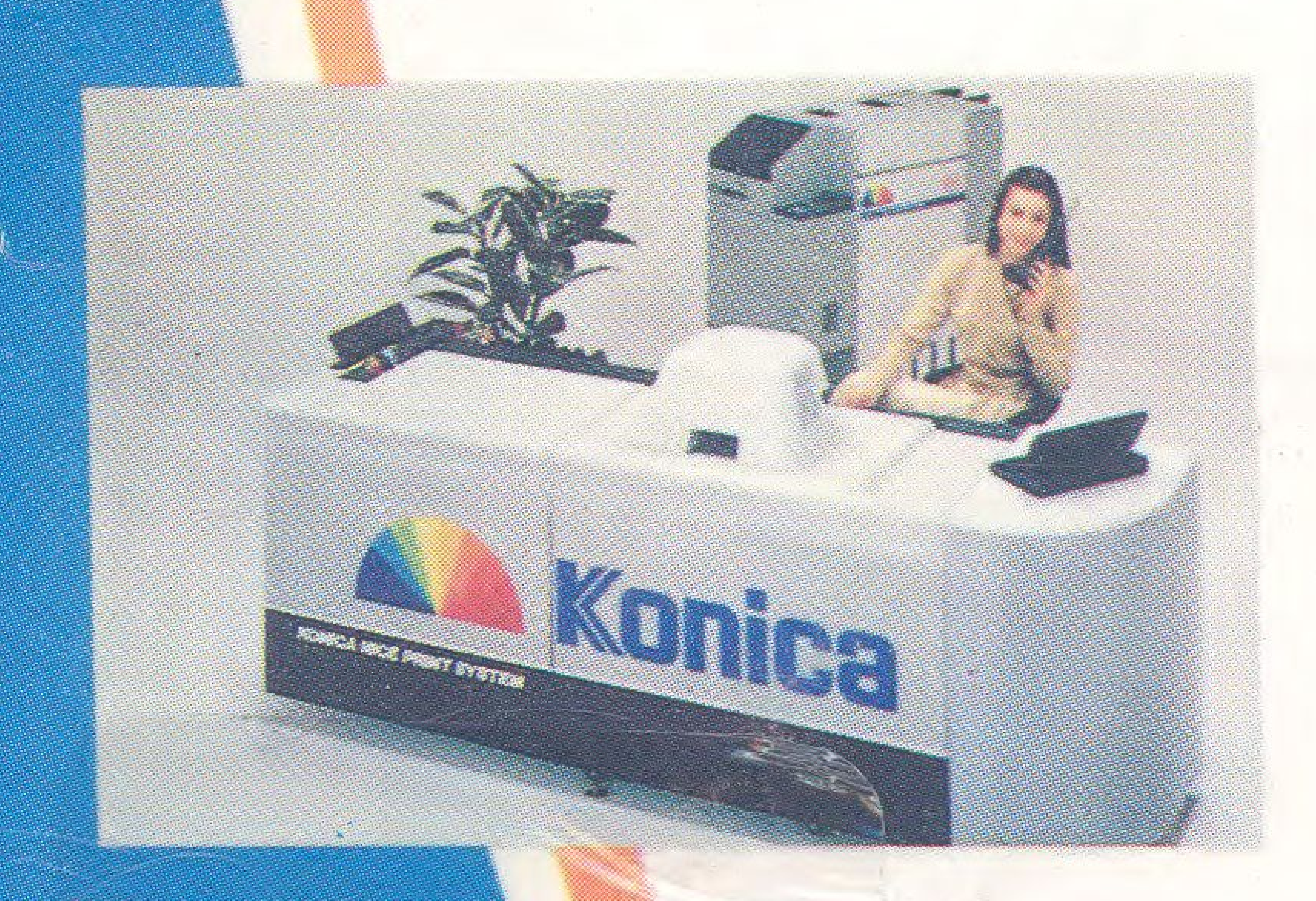
بقلــم

يوسـف القعيـد

تصدر : ١٥ مايو ١٩٩٤

كونيكا
Konica

كاميرات
أفلام
معامل طبع وتحميض
شرائط ڤيديو







الوكيل
شركة إساى
٩٦ ش أحمد عرابى
ت: ٣٤٤٠٥٨٣ فاكس: ٣٤٦٦٥٩٢

Bibliotheca Alexandrina
0686867